من مكتبة التراث

القرآن

كلام الله حقيقة

لشيخ الإسلام أحمد بن تيمية

الجزء الأول

حقق نصوصه وخرج أحاديثه

الدكتور عبد الرحمن عميرة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴿١﴾

الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٢﴾ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴿٣﴾

مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴿٤﴾ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ

نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾

صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ

عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ﴿٧﴾

قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم :

القرآن الكريم « من قال به صدق، ومن عمل به أجر، ومن حكم به عدل، ومن دعا إليه هدى إلى صراط مستقيم. »

رواه الترمذي

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة التحقيق للدكتور

عبد الرحمن عميره

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء والمرسلين محمد بن عبد الله، وعلى آله وصحبه وسلم.

يطيب لنا أن نقدم للأمة الإسلامية بخاصة وللناطقين بالضاد بعامة كتاب: القرآن كلام الله، لشيخ الإسلام الامام أحمد بن تيمية رحمه الله.

والقرآن الكريم:هو كتاب الله. عز وجل ـ المنزل على خاتم أنبيائه محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ بلفظه ومعناه، المنقول بالتواتر المفيد للقطع واليقين، المكتوب في المصاحف من أول سورة الفاتحة الى آخر سورة الناس.

وهو كتاب محكم قال تعالى: «كتاب احكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير»[1]

وهو المعجزة الكبرى:تحدى بها رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ الناس كافة والإنس والجن أن يأتوا بمثله فعجزوا.

تحداهم أولاً أن يأتوا بمثله فعجزوا وما أستطاعوا قال تعالى:

«قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا»[2]

---

١ ـ سورة هود آية رقم ١

٢ ـ سورة الاسراء آية رقم ٨٨

«أم يقولون افتراه قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين»[1]

ثم تحداهم أن يأتوا بسورة واحدة فعجزوا قال تعالى:

«أم يقولون افتراه قل فاتوا بسورة مثله وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين»[2]

ثم كرر التحدى مرة أخرى قال تعالى:

«وان كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وأدعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التى وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين»[3]

والقرآن الكريم؛ شريعة الله تعالى لخلقه، الذى تكفل بجميع ما يحتاج إليه البشر فى أمور دينهم ودنياهم.

والقرآن الكريم حارب التقليد ودعا إلى النظر والتأمل فى الكون وكون أمة مثاليه:اختطت من شئون السياسة والتنظيم السياسى ما تعمل الدول جاهدة للوصول إليه فى القرن العشرين.

روى الترمذى بسنده عن الحارث الأعور.قال:مررت فى المسجد فإذا الناس يخوضون فى الأحاديث فدخلت على « علىٌ » رضى الله عنه. فقلت:يا أمير المؤمنين ألا ترى الناس قد خاضوا فى الأحاديث؟ قال:أو قد فعلوها..؟

---

١ ـ سورة هود آية رقم ١٣ ـ ١٤

٢ ـ سورة يونس آية رقم ٣٨ ـ ٣٩

٣ ـ سورة البقرة آية رقم ٢٣ ـ ٢٤

قلت:نعم.

قال:أما إنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول:

«ألا إنها ستكون فتنة.»

قلت:وما المخرج منها يارسول الله..؟

قال:كتاب الله فيه نبأ من قبلكم وخبر ما بعدكم، وحكم ما بينكم ـ وهو الفصل ليس بالهزل من تركه من جبار قصمه الله، ومن أبتغى الهدى فى غيره أضله الله ـ وهو حبل الله المتين، وهو الذكر الحكيم، وهو الصراط المستقيم، هو الذى لا تزيغ به الأهواء، ولا تلتبس به الألسنة، ولا يشبع منه العلماء، ولا يخلق عن كثرة الرد، ولا تنقضى عجائبه، وهو الذى لم ينته الجن إذ سمعته حتى قالوا:

«إنا سمعنا قرآنا عجباً يهدى إلى الرشد فآمنا به»[1]

من قال به صدق، ومن عمل به أجر، ومن حكم به عدل، ومن دعا إليه هدى إلى صراط مستقيم.[2]

وللقرآن الكريم أسماء كثيرة منها.

١ ـ القرآن:قال تعالى:

---

١ ـ سورة الجن آية رقم ١

٢ ـ قال الترمذى فيه : حديث غريب، وإسناده مجهول، وفى حديث للحارث مقال. ولكن ذكره الحافظ السيوطى فى الإتقان، وقال أخرجه الترمذى، والدارمى وغيرهما. وسكت عنه. وكذا ذكره الحافظ ابن كثير فى فضائل القرآن وتعقب كلام الترمذى مما يدل على إعتماده للحديث.

«وقرآنا فرقناه لتقرأه على الناس على مكث ونزلناه تنزيلا»[1]

٢ ـ الفرقان: قال تعالى:

«تبارك الذى نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا»[2]

٣ ـ الكتاب: قال تعالى:

«الحمد لله الذى أنزل على عبده الكتاب، ولم يجعل له عوجا قيماً لينذر بأساً شديداً من لدنه، ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجراً حسناً»[3]

٤ ـ التنزيل: قال تعالى:

«وإنه لكتاب عزيز لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد»[4]

٥ ـ الذكر: قال تعالى:

«وإنه لذكر لك ولقومك»[5]

وقال تعالى:

«إن نحن نزلنا الذكر وإن له لحافظون»[6]

أوصاف القرآن الكريم.

١ـ سورة الإسراء آية رقم ١٠٦ — ٢ ـ سورة الفرقان آية رقم ١

٣ ـ سورة الكهف آية رقم ١ ـ ٢ — ٤ ـ سورة فصلت آية رقم ٤١ ـ ٤٢

٥ ـ سورة الزخرف آية رقم ٤٤ — ٦ ـ سورة الحجر آية رقم ٩

وكما تعددت أسماؤه تعددت أوصافه، فهو حيناً يوصف بالعزيز

قال تعالى:«وإنه لكتاب عزيز»[1]

وحينا يوصف بالعظيم قال تعالى:«ولقد آتيناك سبعاً من المثانى والقرآن العظيم»[2]

وحينا يوصف بالكريم قال تعال:إنه لقرآن كريم»[3]

وحينا يوصف بالمجيد قال تعالى:«ق والقرآن المجيد»[4]

أول ما نزل من القرآن الكريم

إن أول ما نزل هو قوله تعالى:

«اقرأ باسم ربك الذى خلق، خلق الإنسان من علق، اقرأ وربك الأكرم الذى علم بالقلم، علم الإنسان مالم يعلم»[5] والدليل على ذلك ما رواه الامام البخاري ومسلم بسندهما عن عائشة أم المؤمنين ـ رضى الله عنها. قالت:

«أول ما بدى به رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ من الوحى الرؤيا الصالحة فى النوم، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح ثم حبب إليه الخلاء، وكان يخلو بغار حراء، فيحنث فيه ـ وهو التعبد ـ الليالى ذوات العدد قبل أن ينزع ـ يرجع الى أهله، ويتزود لذلك ثم يرجع الى خديجة فيتزود لمثلها حتى جاءه الحق وهو فى غار حراء فجاءه الملك فقال:اقرأ.

قلت:ما أنا بقارىء.

---

١ ـ سورة فصلت آية رقم ٤١

٢ ـ سورة الحجر آية ٨٧

٣ ـ سورة الواقعة آية رقم ٧٧

٤ ـ سورة ق آية رقم ١

٥ ـ سورة العلق الآيات من ١ ـ ٥

فقال: اقرأ.

قلت: ما أنا بقارىء.

فأخذنى فغطنى الثانية حتى بلغ منى الجهد ثم أرسلنى

فقال: اقرأ.

قلت: ما أنا بقارىء.

فأخذنى فغطنى الثالثة حتى بلغ منى الجهد ثم أرسلنى.

فقال: «اقرأ باسم ربك الذى خلق، خلق الإنسان من علق، اقرأ وربك الأكرم، الذى علم بالقلم، علم الإنسان مالم يعلم»[1]

فرجع بها الى خديجة يرجف فؤاده فقال: زملونى زملونى.

فزملوه حتى ذهب عنه الروع فقال لخديجة - وأخبرها الخبر - لقد خشيت على نفسى.

فقالت خديجة: كلا والله ما يخزيك الله أبداً إنك لتصل الرحم، وتحمل الكل وتكسب المعدوم وتقرى الضيف.[2]

والقول الثانى:

إن أول ما نزل هو قوله تعالى: «يا أيها المدثر»[3] الى قوله تعالى:

«والرجز فاهجر»[4]

وهذا القول مروى عن جابر بن عبد الله، وأبى سلمة بن عبد الرحمن بن عوف - رضى الله عنهم.

---

١ - سورة العلق الآيات من ١ - ٥

٢ - صحيح البخارى باب كيف كان بدء الوحى، وصحيح مسلم أيضاً

٣ - سورة المدثر آية رقم ١ ٤ - سورة المدثر آية رقم ٥

وقد أجاب القائلون بالأول عن هذا بأجوبة أحسنها وأخلقها بالقول أن «يا أيها المدثر» أول ما نزل بعد فترة الوحى أما «اقرأ» فهى أول ما نزل على الاطلاق.

القول الثالث:

إن أول ما نزل سورة الفاتحة، وقد اسند هذا القول الزمحشرى فى كشافه الى اكثر المفسرين، ورد عليه الحافظ بن حجر : بأن هذا القول لم يقل به إلا عدد أقل من القليل.

آخر ما نزل من القرآن

يقول الشيخ أبو شهبة:

ليس فى الموضوع أحاديث مرفوعة الى النبى - صلى الله عليه وسلم - وإنما هى آثار مروية عن بعض الصحابة والتابعين، وقد كثر الخلاف بين السلف والعلماء فى آخر ما نزل وتعددت الأقوال وتشعبت الآراء. فمن ذلك:

أن آخر ما نزل من القرآن قوله تعالى فى آخر سورة البقرة:

«واتقوا يوماً ترجعون فيه إلى الله ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون»[1]

دليله ما رواه النسائى من طريق عكرمة عن ابن عباس - رضى الله عنهما - قال آخر ما نزل من القرآن

«واتقوا يوماً ترجعون فيه الى الله» [2] الآية

القول الثانى:

---

١ - ٢ - سورة البقرة آية رقم ٢٨١

قوله تعالى فى سورة البقرة «يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقى من الربا إن كنتم مؤمنين»[1]

يدل على ذلك ما أخرجه البخارى عن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ قال: وآخر آية نزلت آية الربا.

ويجاب عن هذا القول: أما بأنها آخر آية نزلت فى شأن الربا وأما بأن المراد إنها من أواخر الآيات نزولاً.

وهناك أقوال أخرى ليس هذا مجالها، وعلى الله قصد السبيل.

الترغيب فى قراءة القرآن وحفظه

تعلم القرآن وتعليمه يجعل صاحبه خير الناس وأفضلهم: روى الشيخان عن عثمان بن عفان ـ رضى الله عنه ـ عن النبى ـ صلى الله عليه وسلم قال:

«خيركم من تعلم القرآن وعلمه.»

والاشتغال به خير من الاشتغال بصلاة النوافل. روى ابن ماجة فى سننه من حديث أبى ذر قال.

«لأن تغدو فتتعلم آية من كتاب الله خير لك من أن تصلى مائة ركعة» وقارىء القرآن مأجور على قراءته:

«روى الشيخان فى صحيحهما بسندهما عن أبى موسى الأشعرى عن النبى ـ صلى الله عليه وسلم قال:

مثل المؤمن الذى يقرأ القرآن ويعمل به كالأترجة[2] طعمها طيب وريحها

---

١ ـ سورة البقرة آية رقم ٢٧٨

٢ ـ نوع من الفاكهة الجيدة كالتفاح ولكنها اكبر.

طيب.ومثل المؤمن الذى لا يقرأ القرآن ويعمل به كالثمرة طعمها طيب ولا ريح لها. ومثل المنافق الذى يقرأ القرآن كالريحانه ريحها طيب وطعمها مر، ومثل المنافق الذى لا يقرأ القرآن كالحنظلة طعمها مر أو خبيث وريحها مر، وفى رواية أخرى:ولا ريح لها.

وروى ابن مردويه بسنده عن عبد الله بن مسعود - رضى الله عنه قال: قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم:

«إن هذا القرآن هو حبل الله المتين وهو النور المبين، وهو الشفاء النافع وعصمته لمن تمسك به، ونجاة لمن اتبعه.»

وروى الترمذى بسنده عن النبى - صلى الله عليه وسلم قال:

«يقول الرب - عز وجل - من شغله القرآن عن ذكرى وعن مسألتى اعطيته أفضل ما أعطى السائلين، وفضل كلام الله على سائر الكلام كفضل الله على خلقه.»

من هنا نعلم بأن المسلم الذى يتعاهد القرآن بالحفظ والتلاوة يكون من أفضل الناس وأحسنهم.

والاهتمام بالقرآن الكريم ومعالجته بالحفظ والقراءة أفضل عند الله من صلاة النوافل وكيف لا يكون كذلك والمتمسك بكتاب الله تعالى:مستمسك بحبل الله المتين وتحيط به هالة من النور المبين. ويكون له شفاء من الأمراض المعنوية، ويطمئن قلبه قال تعالى:ألا بذكر الله تطمئن القلوب»[1]

والقرآن الكريم أفضل الذكر لقوله تعالى:

«وإنه لذكر لك ولقومك»[1]

ولقد أمر النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ أصحابه وكل من يجيء من الأمة بعدهم بتعهد القرآن وممارسة قراءته.

ففى الصحيحين عن أبى موسى ـ رضى الله عنه ـ عن النبى ـ صلى الله عليه وسلم قال:

«تعاهدوا القرآن فوالذى نفس محمد بيده لهو أشد تفصياً من الابل فى عقلها»

وقد اعتبر كثير من السلف نسيان القرآن كبيرة من الكبائر، من ذلك ما أخرجه أبو عبيد من طريق الضحاك بن مزاحم موقوفا قال:

«ما من أحد تعلم القرآن ثم نسيه إلا بذنب أحدثه لأن الله تعالى يقول:

«وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم»[2]

وروى عن أبى العالية موقوفاً أى عليه:كنا نعد من أعظم الذنوب أن يتعلم الرجل القرآن ثم ينام عنه حتى ينساه»

قال ابن كثير:

«وقد أدخل بعض المفسرين هذا المعنى فى قوله تعالى:

«ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكاً ونحشره يوم القيامة أعمى

---

١ ـ سورة الزخرف . آية رقم ٤٤ .

٢ ـ سورة الشورى . آية رقم ٣٠ .

قال رب لم حشرتنى أعمى وقد كنت بصيرا قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى»[1]

دعاء حفظ القرآن الكريم

روى الترمذى بسنده عن عبد الله بن عباس - رضى الله عنهما - قال: بينما نحن عند رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إذ جاء على بن أبى طالب.

فقال:بأبى أنت وأمى يارسول الله - تفلت هذا القرآن الكريم من صدرى فما أجدنى أقدر عليه..

فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم:

«يا أبا الحسن أفلا أعلمك كلمات ينفعك الله بهن، وينفع بهن من علمته، ويثبت ما تعلمت فى صدرك..؟

قال:أجل يارسول الله فعلمنى.

قال:اذا كان ليلة الجمعة فإن استطعت أن تقوم فى ثلث الليل الآخر فإنها ساعة مشهودة ، والدعاء فيها مستجاب، وقد قال أخى يعقوب لبنيه:

«سوف أستغفر لكم ربى»[2]

يقول:حتى تأتى ليلة الجمعة، فإن لم تستطيع فقم فى وسطها ، فإن لم تستطع فقم فى أولها فصل أربع ركعات تقرأ فى الركعة الأولى بفاتحة الكتاب وسورة يس والقرآن الحكيم. »[3]

---

١ - سورة طه . آية رقم ١٢٤ ، ١٢٥ .

٢ - سورة يوسف آية رقم

٣ - سورة يس الأيتان ١ - ٢

وفى الركعة الثانية بفاتحة الكتاب و. حم والكتب المبين[1] «الدخان»

وفى الركعة الثالثة بفاتحة الكتاب و. الم تنزيل الكتاب[2] «السجدة»

وفى الركعة الرابعة بفاتحة الكتاب و. تبارك الذى بيده الملك[3]

فإذا فرغت من التشهد فاحمد الله تعالى، واحسن الثناء على الله وصل علىَّ وأحسن، وعلى سائر النبين، واستغفر للمؤمنين والمؤمنات، ولاخوانك الذين سبقوك بالايمان، ثم قل فى آخر ذلك:

«اللهم ارحمنى بترك المعاصى أبداً ما أبقيتنى، وارحمنى أن أتكلف مالا يعينينى، وارزقنى حسن النظر فيما يرضيك عنى.

اللهم بديع السموات والأرض ذا الجلال والاكرام، والعزة التى لا ترام أسألك يا الله يارحمن بجلالك ونور وجهك أن تنور بكتابك بصرى، وأن تطلق به لسانى، وأن تفرج به قلبى، وان تشرح به صدرى، وأن تعمل به بدنى، إنه لا يعيننى على الحق غيرك ولا يؤتينيه إلا أنت، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم.

يا أبا الحسن فافعل ذلك ثلاث جمع أو خمس أو سبع يجاب بإذن الله والذى بعثنى بالحق ما أخطا مؤمن قط.

قال عبد الله بن عباس ـ رضى الله عنهما ـ فو الله مالبس علىٌّ إلا خمساً أو سبعاً حتى جاء على رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى مثل ذلك المجلس فقال:

---

١ ـ سورة الدخان الآيتان ١ ـ ٢

٢ ـ سورة السجدة الآيتان ١ ـ ٢

٣ ـ سورة الملك آية رقم ١

يا رسول الله: إنى كنت فيما خلا لا آخذ إلا أربع آيات أو نحوهن وإذا قرأتهن على نفسى تفلتن، وأنا أتعلم اليوم أربعين آية أو نحوها وإذا قرأتها على نفسى فكأنما كتاب الله بين عينى.

ولقد كنت أسمع الحديث فإذا رددته تفلت، وأنا اليوم أسمع الأحاديث فإذا تحدثت بها لم أخرم منها حرفاً.

فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم: مؤمن ورب الكعبة يا أبا الحسن.

قال الترمذى:

«هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث الوليد بن مسلم.

نبذة مختصرة عن كتاب الامام ابن تيمية[1]

القرآن كلام الله ...

تدور فكرة الكتاب على مناقشة أراء الجهمية والمعتزلة القائلين بخلق القرآن.

وحقيقة هذه القضية أن جهم بن صفوان رأس طائفة الجهمية قال:إن القرآن مخلوق، ورددت مدرسة الاعتزال مقولة جهم واستعانت بنفوذ السلطة الحاكمة لإجبار جماعة المسلمين على هذا المعتقد.

ولكن متى نشأت هذه الفكرة..؟

وهل هناك من سبق جهم بهذا القول..؟

إن الراصدين للحياة الفكرية فى المجتمعات البشرية يرون فى صدر فكرة الخلق سلسلة يصل سندها الى لبيد بن أعصم اليهودى القائل بخلق التوراة.

فالفكرة يهودية الأصل وممن روج لها فى المجتمع الاسلامى بشر المريس - وكان أبوه اليهودى يشتغل بصناعة صبغ الملابس بالكوفة.

ولما عرف هارون الرشيد مقولته حلف أن يقتله فأختفى طول عهده ليظهر بعد ذلك فى بلاط المأمون الذى تولى كبر هذا الأمر.

ولقد ابتلى المسلمون بلاء كبيراً من جراء هذا القول، وتساقط الشهداء فى غير ساحة للقتال صرعى بسيوف المسلمين أيضاً.

---

١ - راجع ترجمة وافيه له فى مقدمة كتاب التفسير الكبير لابن تيمية بتحقيقنا، وفوات الوفيات ١ : ٣٥ - ٤٥ والمنهج الأحمد، والدرر الكامنة ١ : ١٤٤ والبداية والنهاية ١٤ : ١٣٥ وابن الوردى ٢ : ٢٨٤، وآداب اللغة ٣ : ٢٤٣ والنجوم الزاهرة ٩ : ٢٧١ ودائرة المعارف الاسلامية ١ : ١٠٩

وكان اكثر الناس بلاء فى تلك المحنة إمام أهل السنة والجماعة أحمد بن حنبل رضوان الله عليه.

روى البيهقى عن الربيع صاحب الإمام الشافعى. قال:

« بعثنى الشافعى بكتاب من مصر الى أحمد بن حنبل فأتيته وقد انفتل من صلاة الفجر فدفعت إليه الكتاب

فقال: أقرأته..؟

قلت: لا.

فأخذه فقرأه فدمعت عيناه.

فقلت ما فيه..؟

قال: يذكر أنه رأى رسول الله - صلى الله عليه وسلم فى المنام فقال:

«اكتب الى أبى عبد الله أحمد بن حنبل واقرأ عليه منى السلام، وقل له إنك ستمتحن، وتدعى الى القول بخلق القرآن فلا تجبهم يرفع الله لك علماً الى يوم القيامة.

قال الربيع: قلت جلاوة البشارة.

فخلع الإمام أحمد قميصه الذى على جلده فأعطانيه.

فلما رجعت الى الشافعى أخبرته فقال:

«إنى لست أفجعك فيه ولكن بله بالماء واعطينيه حتى أتبرك به، لقد مضت فترة ليست بالقصيرة من عمر الزمن بعد هذه البشارة حتى كان عام ٢١٧ هـ. سمعت الكوفة أن المأمون تخلص من قاضى قضاته يحيى بن اكثم وعين بدلاً منه أحمد بن أبى دؤاد رئيس المعتزلة فى ذلك الوقت. والذى اقنع المأمون بفكرة خلق القرآن. فما كان من المأمون إلا أن جعل منها مسألة

دولة، وموضوعاً لامتحان فأرسل الى ولاته بالأقاليم، ونائبه ببغداد اسحاق إبن ابراهيم - وهو فارس الأصل - خزاعى بالولاء - ليجمع كل منهم من بحضرته ويمتحنهم ويكشف معتقدهم فى خلق القرآن، ويعلمهم أنه غير مستعين فى عمله إلا بمن خلص توحيده ويقينه وأقرّ بخلق القرآن.

وقام الولاة بتنفيذ طلب الخليفة، وازدحمت السجون بالقابضين على دينهم المخالفين للخليفة فى رأية. وكان على رأس هؤلاء الامامُ أحمد بن حنبل وابن نوح.

وطلب المأمون من نائبه أن يرسلهما مقيدين إليه فى طرسوس.

ووضع أحمد وابن نوح مقيدين على بعير واحد وساروا بهما حيث مقر الخلافة.

واقترب أحدهم من الامام أحمد قائلاً له

«ألا ترى الباطل كيف ظهر على الحق..؟»

قال الامام:كلا:إن ظهور الباطل على الحق أن تنتقل القلوب من الهدى الى الضلال وقلوبنا بعد لازمة للحق.

يقول الاستاذ عبد الحليم الجندى:سار الامام الى طرسوس وليست النجاة غرضه وإنما اعلاء كلمة السنة غاية الغايات من زهده وتحديثه وفقهه.

لقد قدم راحة جسده قرابين للزهد والتحديث وتفقيه المسلمين يوماً يوماً وعلى مدار أعوام خمسين. وليس تقديم روحه من أجل عقيدته أشق مما سبق، فإنها ضربة بالسيف واحدة. لكن بقاء السنة رافعة أعلامها هو طريق الخلود فى الجنة.[1]

---

١ - أحمد بن حنبل إمام أهل السنة للاستاذ عبد الحليم الجندى ط : دار المعارف مصر ص ٣٨٩

وانطلقا فى الطريق الطويل الممتد الى طرسوس.حتى وصلا الى الأنبار بلد أبو بكر الأحول، وكان يراقب الطريق منذ أيام عدة ـ عندما علم بخروج أحمد الى الخليفة، وعندما وقعت عين أبى بكر على الامام أحمد قال له:إن عرضت على السيف تجيب..؟

ورد الامام العملاق:لا.

وكر أبو بكر راجعاً من حيث أتى عندما اطمئن الى صلابة صاحبه.

وانطلقا حتى إذا وصلا الى مكان يسمى « رحبة طوق » يقول أحمد:

عرض لى رجل فسلم على ثم قال:

« يا هذا ما عليك أن تقتل ها هنا وتدخل الجنة..؟

ثم سلم وانصرف.

فقلت:من هذا..؟

قيل:جابر بن عامر الشاعر بالبادية.

وحتى بعد أن هدأت الفتنة كان الامام أحمد يقول كلما يتذكر هذه المحنة:

« ما سمعت منذ وقعت فى هذا الأمر أقوى من كلمة اعرابى فى رحبة طوق قال لى : إن يقتلك الحق مت شهيداً، وإن عشت عشت حميداً فقوى قلبى.

وانطلقا وفى الطريق لقيا أبا جعفر الأنبارى وكان قد عبر الفرات ليلتقى بأحمد قبل ذهابه الى طرسوس.

فقال له الامام احمد : يا أبا جعفر تعنيت ـ أى أتعبت نفسك.

قال:ليس هذا عناء أنت اليوم رأس والناس يقتدون بك فوالله لئن أجبت بخلق القرآن ليجيبن بإجابتك خلق من خلق الله ومع هذا فإن الرجل إن لم يقتلك فأنت تموت، ولابد من الموت فإتق الله ولا تجبهم بشيء.

فجعل أحمد يقول:ما شاء الله ما شاء الله.

ثم قال:يا أبا جعفر أعد على ما قلت فأعاد.

فجعل أحمد يقول:ما شاء الله ما شاء الله.

إن جميع الاخوان يشدون من أزد أحمد بن حنبل ويقوون من عزمه ويملؤون قلبه بالاطمئنان والرضا الى قضاء الله وعدله، وليس منهم أحد حاول أن يخزله أو يدخل الوهن والضعف الى قلبه أو يصور له الباطل بأنه ذو صولجان وقوة بل قال له جابر شاعر البادية : «مت ها هنا فى «رحبة طوق» لتدخل الجنة.

وقال له أبو جعفر:مت هنالك فى طرسوس كيلا يهلك الناس » نفس الوصية التى أوصى بها أبو بكر الصديق قائده خالدين الوليد ـ رضى الله عنهما ـ بقوله:احرص على الموت توهب لك الحياة.

إنهم ابناء مدرسة الايمان التى انداع أفرادها فى أربعة أركان الأرض ينشرون الأمن بعد الخوف والنور بعد الظلام والهدى بعد الضلال فمد نوا الدنيا وهذبوا العالم وقرروا الحق للإنسان.

ثم ماذا..؟

ما كاد الرجلان المصفدان يدلغان ببعيرهما إلى « مزنة » فى الطريق الى «طرسوس» حتى جاءهما البشير:مات المأمون.

مات الرجل الذى أراد أن يخرس صوت الحق.

مات الرجل الذى حشد باطله وقوته وصو لجانه وشهر سيفه ورفع يديه ليقطع به رقبتين خالفاه فى الرأى.

ولكن يد الله كانت هناك فاسقطت السيف من يده وقبضت روحه وكر الرجلان عائدين الى بلدهما وفى «الرقه» فى طريق العودة أحس ابن نوح بدنو أجله فاقترب من أحمد وقال له.

«يا أبا عبد الله ـ الله ـ الله إنك لست مثلى ـ أنت رجل يقتدى به وقد مد الخلق أعناقهم إليك لما يكون منك فاتق الله واثبت لأمر الله» ثم فاضت روحه الى بارئها.

ولم تبرح ذاكرة أحمد صورة محمد بن نوح وكان جاراً له فكان يقول عنه:

«ما رأيت أحداً على حداثة سنة وقلة علمه أقوم بأمر الله من محمد بن نوح» وتتابعت الأحداث فى حياة المعتصم، ثم هدأت الفتنة بوفاته، وذهب أصحاب الحق، وأدعياء الباطل الى ربهم ليحكم بينهم فيما كانوا فيه يختلفون وبقيت أراء هؤلاء وهؤلاء تدور فى فلك الزمن وتتناولها عقول الرجال والمفكرين بالرضى مرة وبالنقد والتفنيد مرات ـ وهذا الكتاب الذين بين أيدينا من أمتع الكتب وأجودها فى تناول هذه الأراء التى شغلت الأمة الإسلامية فترة ليست قصيرة من عمر الزمن، ونحمد الله العلى القدير على عونه لنا فى اخراجه بهذه الصورة وعلى الله قصد السبيل.

أ.د. عبد الرحمن عميره

القرآن

كلام الله حقيقة

لشيخ الاسلام أحمد بن تيمية

الجزء الأول

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله وحده والصلاة والسلام على من لانبى بعده.

قال الشيخ الامام أبو العباس

احمد بن تيمية رضى الله عنه

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، ومن يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له[1] وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، واشهد أن محمداً عبده ورسوله؛ أرسله بالهدى ودين الحق (ليظهره على الدين كله وكفى بالله شهيداً)[2] صلى الله عليه وسلم تسليما.

١- كما قال تعالى: كذلك يضل الله من يشاء ويهدى من يشاء) سورة المدثر آية رقم ٣١.
وقال أيضاً : (قل إن الله يضل من يشاء ويهدى إليه من أناب) سورة الرعد آية رقم ٢٧.
٢- سورة الفتح آية رقم ٢٨.

قاعدة فى القرآن وكلام الله

فان الأمة اضطربت فى هذا اضطراباً عظيما ،وتفرقوا واختلفوا بالظنون والأهواء بعد مضى القرون الثلاثة، لما حدثت فيهم الجهمية[1] المشتقة من الصابئة[2]، وقد قال الله تعالى: (وإن الذين اختلفوا فى الكتاب لفي شقاق بعيد)[3]،وقال تعالى: (كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مُبشرين ومنذرين، وانزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه، وما اختلف فيه إلا الذين أوتوه من بعد ماجاءتهم البينات بغياً بينهم، فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه)[4]

والاختلاف «نوعان»:اختلاف فى تنزيله واختلاف فى تأويله.

والمختلفون الذين ذمهم الله هم المختلفون فى الحق، بأن ينكر هؤلاء الحق الذي مع هؤلاء، أو بالعكس.فإن الواجب الايمان بجميع الحق المنزل.فاما من آمن بذلك وكفر به غيره فهذا اختلاف يذم فيه أحد الصنفين كما قال

---

١ ـ الجهمية أتباع جهم بن صفوان – وهو من الجبرية الخالصة ظهرت بدعته بترمذ وقتله سلم بن أحوز المازنى بمرو فى آخر ملك بنى أمية ووافق المعتزلة على نفى الصفات الأزلية وزاد عليهم بأشياء.

راجع الملل والنحل للشهرستانى ١:١١٣:١١٤ والتبصير ٦٤ والفرق بين الفرق ١٩٩

٢ ـ هم قوم معرفون ولهم مذهب ينفردون به ومن دينهم عبادة النجوم وهم يقرون بالصانع وبالمعاد وببعض الأنبياء وقال مجاهد والحسن: الصابئون بين اليهود والمجوس لادين لهم، وقال السدى: هم طائفة من أهل الكتاب يقرءون الزبور. والفقهاء بأجمعهم يجيزون أخذ الجزية منهم وعند الامامية لايجوز ذلك لأنهم ليسوا بأهل كتاب.

٣ ـ سورة البقرة آية رقم ١٧٦

٤ ـ سورة البقرة آية رقم ٢١٣

تعالى: (تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض) إلى قوله: (ولكن اختلفوا فمنهم من آمن ومنهم من كفر)[1] والاختلاف فى تنزيله أعظم، وهو الذي قصدنا هنا. فنقول:

«الاختلاف فى تنزيله» هو بين المؤمنين والكافرين، فان المؤمنين يؤمنون بما أنزل،والكافرون كفروا بالكتاب وبما ارسل الله به رسله فسوف يعلمون، فالمؤمنون بجنس الكتاب والرسل من المسلمين واليهود والنصارى والصابئين يؤمنون بذلك،والكافرون بجنس الكتاب والرسل من المشركين والمجوس والصابئين يكفرون بذلك.

وذلك ان الله ارسل الرسل إلى الناس لتبلغهم كلام الله الذي انزله إليهم، فمن آمن بالرسل آمن بما بلغوه عن الله،ومن كذب بالرسل كذب بذلك. فالايمان بكلام الله داخل فى الايمان برسالة الله إلى عباده،والكفر بذلك هو الكفر بهذا، فتدبر هذا الأصل،فانه فرقان هذا الاشتباه؛ولهذا كان من يكفر بالرسل:تارة يكفر بأن الله له كلام أنزله على بشر،كما أنه قد يكفر برب العالمين:مثل فرعون وقومه، قال الله تعالى: (أكان للناس عجباً أن أوحينا إلى رجل منهم ان انذر الناس)[2] الآية، وقال تعالى عن نوح وهود: (أوعجبتم ان جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم لينذركم)[3] وقال (وما قدروا الله حق قدره إذ قالوا ما انزل الله على بشر من شيء)[4] إلى

---

١ - سورة البقرة آية رقم ٢٥٣

٢ - سورة يونس آية رقم ٢

٣ - سورة الأعراف آية رقم ٦٣

٤ - سورة الانعام آية رقم ٩١

آخر الكلام فان فى هذه الآيات تقرير قواعد،وقال عن الوحيد: (إن هذا إلا قول البشر)[1].

ولهذا كان أصل «الايمان» الايمان بما أنزله.قال تعالى:(الم ذلك الكتاب لاريب فيه هدى للمتقين،الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة)إلى قوله:(والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك)[2].وفى وسط السورة:(قولوا آمنا بالله وما أنزل الينا،وما أنزل إلى إبراهيم)[3] الآية.وفى آخرها:(آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون،كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله)[4].الآيتين.وفى السورة التى تليها:(الم الله لا إله إلا هو الحي القيوم،نزّل عليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه،وانزل التوراة والانجيل من قبل هدى للناس، وانزل الفرقان)[5].وذكر فى اثناء السورة الايمان بما انزل، وكذلك فى آخرها:(ربنا اننا سمعنا مناديا ينادي للايمان ان آمنوا بربكم فآمنا) إلى قوله: (وإن من اهل الكتاب لمن يؤمن بالله وما انزل إليكم وما أنزل إليهم)[6].الآية.

ولهذا عظم تقرير هذا الاصل فى القرآن. فتارة يفتتح به السورة إما اخباراً كقوله: (ذلك الكتاب)وقوله.(الر تلك آيات الكتاب الحكيم)[7] وقوله:(الر، كتاب احكمت آياته)[8] الآية.وكذلك ال «طس» وال «حم». فعامة ال «الم» وال «الر»، وال «طس»، وال «حم» كذلك.

---

١ ـ سورة المدثر آية رقم ٢٥ ويقصد بالوحيد الوليد ابن المغيره الذى قال الله تعالى فيه (ذرنى ومن خلقت وحيدا)

٢ ـ سورة البقرة آية رقم ١ ـ ٤

٣ ـ سورة البقرة. آية رقم ١٣٦.

٤ ـ سورة البقرة آية رقم ٢٨٥

٥ـ سورة آل عمران آية رقم ١ - ٤

٦ ـ سورة آل عمران آية رقم ١٩٣ ـ ١٩٩

٧ ـ سورة يونس آية رقم ١

٨ ـ سورة هود آية رقم ١

واما ثناء بانزاله كقوله (الحمد لله الذي انزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجا)[1] (تبارك الذي نزّل الفرقان على عبده)[2] الآية.

واما فى اثناء السور فكثير جداً، وثنى قصة موسى مع فرعون؛ لأنهما فى طرفى نقيض فى الحق والباطل، فان فرعون فى غاية الكفر والباطل حيث كفر بالربوبية وبالرسالة، وموسى فى غاية الحق والايمان من جهة ان الله كلمه تكليما لم يجعل الله بينه وبينه واسطة من خلقه، فهو مثبت لكمال الرسالة وكمال التكلم،ومثبت لرب العالمين بما استحقه من النعوت، وهذا بخلاف اكثر الأنبياء مع الكفار، فان الكفار اكثرهم لايجحدون وجود الله ولم يكن ايضاً للرسل من التكليم ما لموسى؛ فصارت قصة موسى وفرعون اعظم القصص واعظمها اعتباراً لأهل الايمان ولأهل الكفر؛ ولهذا كان النبى صلى الله عليه وسلم يقص على امته عامة ليله عن بني إسرائيل، وكان يتأسى بموسى فى أمور كثيرة، ولما بشر بقتل ابي جهل يوم بدر قال:هذا فرعون هذه الأمة، وكان فرعون وقومه من الصابئة المشركين الكفار؛ ولهذا كان يعبد الهة من دون الله، كما اخبر الله عنه بقوله: (ويذرك وآلهتك)[3]وان كان عالما بما جاء به موسى مستيقنا له، لكنه كان جاحداً مثبوراً، كما اخبر الله بذلك فى قوله:(فلما جاءتهم آياتنا مبصرة قالوا هذا سحر مبين.وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلواً)[4] الآية.وقال

---

١ ـ سورة الكهف آية رقم ١

٢ ـ سورة الفرقان آية رقم ١

٣ ـ سورة الاعراف آية رقم ١٢٧

٤ ـ سورة النمل آية رقم ١٣ ـ ١٤

تعالى:(ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات) إلى قوله:(لقد علمت ما أنزل هؤلاء إلا رب السموات والأرض بصائر)[1] الآية.

والكفار بالرسل من قوم نوح وعاد، وثمود وقوم لوط، وشعيب وقوم إبراهيم، وموسى ومشركي العرب، والهند والروم والبربر، والترك واليونان والكشدانيين، وسائر الأمم المتقدمين والمستأخرين يتبعون ظنونهم وأهواءهم، ويعرضون عن ذكر الله، الذي آتاهم من عنده، كما قال لهم لما اهبط آدم من الجنة (فإما يأتينكم منى هدى فمن تبع هداى فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون. والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك اصحاب النار هم فيها خالدون)[2] وفى موضع آخر:(فإما يأتينكم منى هدى فمن اتبع هداي فلا يضل ولايشقى. ومن أعرض عن ذكرى فان له معيشة ضنكا)[3] الآية. وفي أخرى (إما يأتينكم رسل منكم يقصون عليكم آياتي)[4].

ثم انهم مع انهم مانزل الله بما هم عليه من سلطان، إن يتبعون الا الظن وماتهوى الأنفس: يزعمون أن لهم العقل والرأي والقياس العقلي والأمثال المضروبة، ويسمون أنفسهم الحكماء والفلاسفة، ويدعون الجدل والكلام، والقوة والسلطان والمال، ويصفون اتباع المرسلين بأنهم سفهاء، واراذل وضلال، ويسخرون منهم، قال الله تعالى:(فلما جاءتهم رسلهم بالبينات فرحوا بما

---

١ ـ سورة الاسراء آية رقم ١٠١ ـ ١٠٢

٢ ـ سورة البقرة آية رقم ٣٨ ـ ٣٩

٣ ـ سورة طه آية رقم ١٢٣ - ١٢٤

٤ ـ سورة الأعراف آية رقم ٣٥

عندهم من العلم وحاق بهم ما كانوا به يستهزؤون)[1] وقال: (وإذا قيل لهم آمنوا كما آمن الناس قالوا: أنؤمن كما آمن السفهاء ألا إنهم هم السفهاء ولكن لايعلمون)[2] وقال تعالى: (ان الذين اجرموا كانوا من الذين آمنوا يضحكون)[3] إلى قوله (وما ارسلوا عليهم حافظين)[4] وقال تعالى عن قوم نوح: (أنؤمن لك واتبعك الأرذلون؟)[5] وقالوا: (ومانراك اتبعك الا الذين هم أراذلنا بادي الراي)[6] وقال: (زين للذين كفروا الحياة الدنيا ويسخرون من الذين آمنو)[7] وقال: (كلما مر عليه ملأ من قومه سخروا منه)[8] بل هم يصفون الأنبياء بالجنون والسفه والضلال وغير ذلك، كما قالوا عن نوح: (مجنون، وازدجر)[9] وقالوا: (انا لنراك فى ضلال مبين)[10] ولهود: (انا لنراك فى سفاهة)[11]

---

١ - سورة غافر آية رقم ٨٣

٢ - سورة البقرة آية رقم ١٣

٣ - سورة المطففين آية رقم ٢٩

٤ - سورة المطففين آية رقم ٣٣

٥ - سورة الشعراء آية رقم ١١١

٦ - سورة هود آية رقم ٢٧ وقد جاءت الآية محرفة فى المطبوعة حيث قال: (مانراك) بدلاً من (وما نراك).

٧ - سورة البقرة آية رقم ٢١٢

٨ - سورة هود آية رقم ٣٨

٩ - سورة القمر آية رقم ٩

١٠ - سورة الأعراف آية رقم ٦٠

١١ - سورة الأعراف آية رقم ٦٦

فصـــل

و « الايمان بالرسل» يجب أن يكون جامعاً عاما، مؤتلفاً لاتفريق فيه، ولاتبعيض ولا اختلاف؛ بأن يؤمن بجميع الرسل وبجميع ماانزل إليهم. فمن آمن ببعض الرسل وكفر ببعض، أو آمن ببعض ماأنزل الله وكفر ببعض فهو كافر، وهذا حال من بدل وكفر من اليهود والنصارى والصابئين؛ فان هؤلاء في أصلهم قد يؤمنون بالله واليوم الآخر ويعملون صالحاً؛ فأولئك لاخوف عليهم ولاهم يحزنون.كما قال تعالى:(ان الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين، من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً فلهم اجرهم عند ربهم ولاخوف عليهم ولاهم يحزنون)[1] ونحوه في المائدة.

ومنهم من فرق فآمن ببعض وكفر ببعض، كما قال تعالى عن اليهود: (وإذا قيل لهم آمنوا بما أنزل الله، قالوا:(نؤمن بما أنزل علينا ويكفرون بما وراءه)[2] الآيات وقال تعالى:(إن الذين يكفرون بالله ورسله،ويريدون أن يفرقوا بين الله ورسله،ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض،ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلاً،أولئك هم الكافرون حقاً)[3] الآية وقال تعالى: (قولوا آمنا بالله،وما أنزل إلينا ،وما أنزل إلى ابراهيم واسماعيل)[4] الآيتين

١- سورة البقرة آية رقم ٦٢

٢ - سورة البقرة آية رقم ٩١

٣ - سورة النساء آية رقم ١٥٠

٤- سورة البقرة آية رقم ١٣٦

وقال عن المؤمنين (آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون، كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله، لانفرق بين أحد من رسله)[1] وقال:(شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً والذي أوحينا إليك، وما وصينا به ابراهيم وموسى وعيسى؛ أن أقيمو الدين ولاتتفرقوا فيه)[2].

وذم الذين تفرقوا واختلفوا فى الكتب،وهم الذين يؤمنون ببعض دون بعض،فيكون مع هؤلاء بعض ومع هؤلاء بعض، كقوله:(وإن الذين اختلفوا فى الكتاب لفي شقاق بعيد)[3] وقوله:(وما اختلف فيه إلا الذين أوتوه من بعد ماجاءتهم البينات بغياً بينهم)[4] وقوله:(وما تفرق الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءتهم البينة)[5] وقال تعالى:(إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً لست منهم فى شيء)[6].

فصـــل

التفريق والتبعيض قد يكون فى القدر تارة، وقد يكون في الوصف، إما فى الكم وإما فى الكيف، كما قد يكون فى التنزيل تارة، وفى التأويل أخرى؛ فان الموجود له حقيقة موصوفة، وله مقدار محدود، فما أنزل الله على رسله قد يقع التفريق والتبعيض فى قدره، وقد يقع فى وصفه.

١- سورة البقرة آية رقم ٢٨٥

٢ - سورة الشورى آية رقم ١٣

٣- سورة البقرة آية رقم ١٧٦

٤ - سورة البقرة آية رقم ٢١٣

٥ - سورة البينة آية رقم ٤

٦ - سورة الأنعام آية رقم ١٥٩

فالأول مثل قول اليهود: نؤمن بما أنزل على موسى دون ما أنزل على عيسى ومحمد. وهكذا النصارى فى إيمانهم بالمسيح دون محمد. فمن آمن ببعض الرسل والكتب دون بعض فقد دخل في هذا؛ فانه لم يؤمن بجميع المنزل، وكذلك من كان من المنتسبين إلى هذه الأمة يؤمّن ببعض نصوص الكتاب والسنة دون بعض؛ فان البدع مشتقة من الكفر.

واما «الوصف» فمثل اختلاف اليهود والنصارى فى المسيح: هؤلاء قالوا إنه عبد مخلوق: لكن جحدوا نبوته وقدحوا في نسبه، وهؤلاء أقروا بنبوته ورسالته: ولكن قالوا هو الله، فاختلف الطائفتان فى وصفه وصفته، كل طائفة بحق وباطل.

ومثل «الصابئة[1] الفلاسفة» الذين يصفون إنزال الله على رسله بوصف، بعضه حق وبعضه باطل؛ مثل أن يقولوا: ان الرسل تجب طاعتهم، ويجوز أن يسمى ما أتوا به كلام الله؛ لكنه إنما أنزل على قلوبهم من الروح الذي هو العقل الفعال فى السماء الدنيا لا من عند الله، وهكذا ما يتنزل على قلوب غيرهم هو أيضاً كذلك، وليس بكلام الله فى الحقيقة، وإنما هذا فى الحقيقة كلام النبى صلى الله عليه وسلم، وانه سمى كلام الله مجازاً. فهؤلاء أيضاً مبغضين مفرقين؛ حيث صدقوا ببعض صفات ما أنزل الله وبعض صفات رسله دون بعض، وربما كان ما كفروا به من الصفات اكثر مما آمنوا به، كما ان

١- الصابىء: جمع صابىء وقيل: صاحب ولذلك اختلفوا فى همزة، وهمزة الجمهور الا نافعاً فمن همزة جعله من صبأن النجوم إذا طلعت، وصبأن ثنية الغلام إذا خرجت، ومن لم يهمز جعله من صبا يصبو إذا مال. فالصابىء فى اللغة من خرج ومال من دين إلى دين، ولهذا كانت العرب تقول لمن أسلم قد صبأ. فالصابئون قد خرجوا من دين أهل الكتاب.

ماكفر به اليهود من الكتاب أكثر وأعظم مما آمنوا به؛ لكن هؤلاء اكفر من اليهود من وجه، وان كان اليهود أكفر منهم من وجه آخر.

فان من كان من هؤلاء يهودياً أو نصرانياً فهو كافر من الجهتين، ومن كان منهم لايوجب اتباع خاتم الرسل بل يجوز التدين باليهودية والنصرانية فهو أيضاً كافر من الجهتين، فقد يكون أحدهم أكفر من اليهود والنصارى الكافرين بمحمد والقرآن، وقد يكون اليهود والنصارى أكفر ممن آمن منهم بأكثر صفات ما بعث الله به محمداً صلى الله عليه وسلم؛ لكنهم في الأصل أكفر من جنس اليهود والنصارى، فان أولئك مقرون فى الأصل بكمال الرسالة والنبوة، وهؤلاء ليسوا مقرين بكمال الرسالة والنبوة. كما أن من كان قديماً مؤمناً من اليهود والنصارى صالحاً فهو أفضل ممن كان منهم مؤمنا صالحاً، وكذلك من كان من المنتسبين إلى الاسلام مؤمناً ببعض صفات القرآن، وكلام الله وتنزيله على رسله، وصفات رسله دون بعض، فنسبته إلى هؤلاء كنسبة من آمن ببعض نصوص الكتاب والسنة دون بعض إلى اليهود والنصارى.

ومن هنا تتبين الضلالات المبتدعة في هذه الأمة، حيث هي من الايمان ببعض ماجاء به الرسول دون بعض، وإما ببعض صفات التكليم والرسالة والنبوة دون بعض، وكلاهما إما فى التنزيل وإما فى التأويل.

فصـــل

فى اتفاق شبه أهل الضلال

والسبب الذي أوقع هؤلاء فى الكفر ببعض ما أنزله هو من جنس ما أوقع الأولين فى الكفر بجميع ما أنزل الله فى كثير من المواضع، فان من تأمل وجد شبه اليهود والنصارى ومن تبعهم من الصابئين فى الكفر بما أنزل الله على محمد صلى الله عليه وسلم هي من جنس شبه المشركين والمجوس، ومن معهم من الصابئين فى الكفر بجنس الكتاب، وبما أنزل الله على رسله فى كثير من المواضع؛ فانهم يعترضون على آياته، وعلى الكتاب الذي أنزل معه، وعلى الشريعة التى بعث بها وعلى سيرته بنحو ما اعترض به على سائر الرسل: مثل موسى وعيسى، كما قال الله تعالى فى جميعهم: (مايجادل فى آيات الله الا الذين كفروا فلا يغررك تقلبهم فى البلاد، كذبت قبلهم قوم نوح والأحزاب من بعدهم، وهمت كل أمة برسولهم ليأخذوه، وجادلوا بالباطل ليدحضوا به الحق) إلى قوله: (كذلك يضل الله من هو مسرف مرتاب: الذين يجادلون فى آيات الله بغير سلطان أتاهم، كبر مقتا عند الله وعند الذين آمنوا)[1] وفى الآية الأخرى: (ان فى صدورهم إلا كبر ماهم ببالغيه فاستعذ بالله) إلى قوله: (ألم تر إلى الذين يجادلون فى آيات الله أنى يصرفون؟! الذين كذبوا بالكتاب وبما أرسلنا به رسلنا فسوف يعلمون)[2].

١- سورة غافر آية رقم ٣٤ - ٣٥

٢ - سورة غافر آية رقم ٥٦ - ٥٧

هذا مع أن السلطان الذي أيد الله به رسوله من أنواعه الحجج المعجزات، وأنواع القدر الباهرات، أعظم مما أيد به غيره، ونبوته هى التى طبق نورها مشارق الأرض ومغاربها و، وبه ثبتت نبوات من تقدمه، وتبين الحق من الباطل، والا فلولا رسالته لكان الناس فى ظلمات بعضها فوق بعض، وأمر مريج، يؤفك عنه من أفك: الكتابيون منهم والأميون؛ ولهذا لما كان مايقال له إلا ماقد قيل للرسل من قبله: أمره الله سبحانه باستشهاد أهل الكتاب على مثل ما جاء به.

وهذا من بعض حكمة إقرارهم بالجزية، كقوله تعالى: (فان كنت فى شك مما أنزلنا إليك فاسئل الذين يقرؤون الكتاب من قبلك)[1] وقوله: (كفى بالله شهيداً بينى وبينكم، ومن عنده علم الكتاب)[2] وقوله: (وما أرسلنا من قبلك إلا رجالاً نوحي إليهم، فاسئلوا أهل الذكر إن كنتم لاتعلمون، بالبينات والزبر، وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس مانزل إليهم)[3] وفى الآية الأخرى: (وماأرسلنا قبلك إلا رجالاً نوحي إليهم فاسئلوا أهل الذكر إن كنتم لاتعلمون، وما جعلناهم جسداً لا يأكلون الطعام)[4] الآية. ومثل قوله: (قل أرءيتم ان كان من عند الله وكفرتم به، وشهد شاهد من بني إسرائيل على مثله)[5].

١- سورة يونس آية رقم ٩٤

٢ - سورة الرعد آية رقم ٤٣

٣- سورة النحل آية رقم ٤٣ -٤٤

٤ - سورة الانبياء آية رقم ٧ - ٨ - وقد جاءت الآية محرفة فى المطبوعة حيث قال: من قبلك بدلاً من (قبلك)

٥- سورة الاحقاف آية رقم ١٠

وجماع شبه هؤلاء الكفار: أنهم قاسوا الرسول على من فرق الله بينه وبينه، وكفروا بفضل الله الذي اختص به رسله، فأتوا من جهة القياس الفاسد، ولابد في القياس من قدر مشترك بين المشبه والمشبه به: مثل جنس الوحي والتنزيل؛ فان الشياطين ينزلون على أوليائهم ويوحون إليهم، كقوله: (وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم ليجادلوكم)[١] وقال سبحانه: (هل أنبئكم على من تنزل الشياطين؟ تنزل على كل أفاك اثيم. يلقون السمع وأكثرهم كاذبون)[٢].

وقال تعالى: في الـ «طس» وقد افتتح كلامنهن بقصة موسى وتكليم الله إياه، وإرساله إلى فرعون، فانها عظم القصص كما قدمناه، فقال في سورة الشعراء المحتوية على قصص المرسلين واحداً بعد واحد، وهي «سبع»: قصة موسى وابراهيم، ونوح وهود، وصالح ولوط وشعيب، ثم قال عن القرآن: (وإنه لتنزيل رب العالمين، نزل به الروح الأمين) إلى قوله: (وأنهم يقولون مالايفعلون)[٣] فذكر الفرق بينه وبين من تنزل عليه الشياطين من الكهان والمتنبئين ونحوهم، وبين الشعراء؛ لأن الكاهن قد يخبر بغيب بكلام مسجوع، والشاعر أيضاً يأتي بكلام منظوم يحرك به النفوس، فان قرين الشيطان مادته من الشيطان، ويعين الشيطان بكذبه وفجوره. والشاعر مادته من نفسه، وربما أعانه الشيطان.

١- سورة الأنعام آية رقم ١٢١

٢ - سورة الشعراء آية رقم ٢٢١ - ٢٢٣

٣ - سورة الشعراء آية رقم ١٩٢ - ٢٢٦

فأخبر أن الشياطين إنما تنزل على من يناسبها وهو: الكاذب فى قوله، الفاجر فى عمله: بخلاف الصادق البر، وان الشعراء إنما يحركون النفوس إلى أهوائها فيتبعهم الغاوون، وهم الذين يتبعون الأهواء، وشهوات الغي، فنفى كلا منهما بنتقاء لازمه، وبين ما يجتمع فيه شياطين الأنس والجن.

فصـــل
اشتقـاق البـدع مــن الكفـر

إذا تبين هذا الأصل ظهر به اشتقاق البدع من الكفر، فنقول:كما أن الذين اثنى الله عليهم من الذين هادوا والنصارى[1] كانوا مسلمين مؤمنين، لم يبدلوا ما أنزل الله، ولاكفروا بشيىء مما أنزل الله، وكان اليهود النصارى صاروا كفاراً من جهة تبديلهم لما أنزل الله، ومن جهة كفرهم بما أنزل الله على محمد، فكذلك الصابئة صاروا كفاراً من جهة تبديلهم لما انزل الله وان كانوا منافقين كما قد ينافق اليهودي والنصراني.وهؤلاء المستأخرون من اليهود والنصارى والصابئين.

١- النصارى:جمع، واحد نصرانى، وقيل: نصران باسقاط الياء، وهذا قول سيبويه والأنثى نصرانه كندمان وندمانه وهو نكرة يعرف بالألف واللام قال الشاعر:

صدت كما صد عما لايحل لـه .:. ساقى نصارى قبيل الفصح صوام

فوصفه بالنكرة، وقال الخليل: واحد النصارى نصرى، كمهرى ومهارى، وأنشد سيبويه شاهداً على قوله:

تراه إذا دار العشـا متحنفـاً .:. ويضحى لديه وهو نصران شامس

وذلك ان متأخري الصابئين لم يؤمنوا ان لله كلاماً أو يتكلم، ويقول، أو أن ينزل من عنده كلاماً وذكراً على أحد من البشر،أو انه يكلم أحداً من البشر؛ بل عندهم لايوصف الله بصفة ثبوتية لايقولون:إن له علماً، ولا محبة ولا رحمة، وينكرون أن يكون الله اتخذ ابراهيم خليلاً، أو كلم موسى تكليماً، وإنما يوصف عندهم بالسلب والنفي، مثل قولهم ليس بجسم، ولاجوهر، ولاعرض، ولا داخل العالم ولا خارجه، أو باضافة، مثل كونه مبدأ للعالم أو [العلة] الأولى، أو بصفة مركبة من السلب والاضافة؛ مثل كونه عاقلا ومعقولا وعقلا.

وعندهم أن الله لايخص موسى بالتكليم دون غيره، ولا يخص محمداً بارسال دون غيره، فانهم لايثبتون له علماً مفصلا للمعلومات فضلا عن إرادة تفصيلية؛ بل يثبتون - إذا أثبتوا - له علماً جملياً كلياً،وغاية جميلة كلية، ومن أثبت النبوة منهم قال: إنها فيض تفيض على نفس النبى من جنس ما يفيض على سائر النفوس؛ لكن استعداد النبى صلى الله عليه وسلم اكمل، بحيث يعلم مالايعلمه غيره، ويسمع مالا يسمع غيره،ويبصر مالا يبصر غيره،وتقدر نفسه على مالا تقدر عليه نفس غيره.

والكلام الذي تقوله الأنبياء هو كلامهم وقولهم،وهؤلاء الذين يقولون عن القرآن (أن هذا الا قول البشر)[1] فان «الوحيد» الذي هو الوليد بن المغيرة كان من جنسهم؛كان من المشركين الذين هم صابئون ايضاً، فان الصابئين كأهل الكتاب تارة يجعلهم الله قسما من المشركين، وتارة يجعلهم الله قسيما لهم، كما قال تعالى:(لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب

١- سورة المدثر آية رقم ٢٥

والمشركين منفكين)[1] (إن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين فى نار جهنم)[2].

وكذلك لما ذكر الملل الست في الحج فقال:(ان الذين آمنوا والذين هادوا)[3] الآية وقال تعالى (اتخذوا احبارهم ورهبانهم ارباباً من دون الله)[4] الآية وهذا بعد قوله:(وقالت اليهود عزير ابن الله وقالت النصارى المسيح ابن الله) إلى قوله:(ولو كره الكافرون)[5] وقال:(لقد كفر الذين قالوا ان الله هو المسيح بن مريم)[6] فاذا كان اليهود والنصارى قد يكونون مشركين فالصابئون أولى، وذلك بعد تبديلهم، فحيث وصفوا بالشرك فبعد التبديل، وحيث جعلوا غير مشركين فلأن أصل دينهم الصحيح ليس فيه شرك، فالشرك مبتدع عندهم؛ فينبغيى التفطن لهذه المعاني.

وكان الوحيد من ذوي الرأي والقياس والتدبير من العرب، وهو معدود من حكمائهم وفلاسفتهم.

ولهذا اخبر الله عنه بمثل حال المتفلسفة فى قوله:(انه فكر وقدر فقتل كيف قدر، ثم قتل كيف قدر، ثم نظر، ثم عبس وبسر، ثم ادبر واستكبر، فقال:إن هذا الا سحر يؤثر، إن هذا إلا قول البشر)[7].

---

١ ـ سورة البينة آية رقم ١

٢ ـ سورة البينة آية رقم ٦

٣ ـ سورة البقرة آية رقم ٦٢

٤ ـ ٥ ـ سورة التوبة آية رقم ٣٠ - ٣٢

٦ ـ سورة المائدة آية رقم ١٧

٧ ـ سورة المدثر آية رقم ١٨ - ٢٥

ثم إن هؤلاء فيما تقوله الأنبياء حيارى متهوكون؛ فانه بهرهم نور النبوة، ولم تقع على أصولهم الفاسدة، فصاروا على «انحاء»: منهم من لايؤمن بكثير مما تقوله الأنبياء والمرسلون؛ بل يعرض عنه أو يشك فيه أو يكذب به، ومنهم من يقول: يجوز الكذب لمصلحة راجحة، والأنبياء فعلوا ذلك، ومنهم من يقول: يجوز هذا لصالح العامة دون الخاصة، وأمثلهم من يقول: بل هذه تخيلات وأمثلة مضروبة لتقريب الحقائق إلى قلوب العامة.. وهذه طريقة الفارابى[1] وابن سينا؛[2] لكن ابن سينا أقرب إلى الايمان من بعض الوجوه، وان لم يكن مؤمناً.

فمن ادركته رسالة محمد صلى الله عليه وسلم وبهرته براهينها وانوارها ورأى ما فيها من أصناف العلوم النافعة، والأعمال الصالحة - حتى قال ابن سينا: اتفق فلاسفة العالم علي انه لم يطرق العالم ناموس أفضل من هذا الناموس - فلابد ان يتأول نصوص الكتاب والسنة على عادة اخوانه في تحريف الكلم عن مواضعه، فيحرفون ماأخبرت به الرسل عن كلام الله؛ تحريفاً يصيرون به كفاراً ببعض تأويل الكتاب فى بعض صفات تنزيله.

فلما رأوا أن الرسل سمت هذا الكلام كلام الله واخبرت أنه نزلت ملائكة الله مثل الروح الأمين جبريل، أطلقت هذه العبارة فى الظاهر، وكفرت بمعناها

---

١ - هو محمد بن محمد بن طرخان بن أوزلغ أبو نصر الفارابى ويعرف بالمعلم الثانى تركى الأصل مستعرب ولد فى فاراب على نهر جيحون وانتقل إلى بغداد فنشأ فيها وألف بها اكثر كتبه ورحل إلى مصر والشام واتصل بسيف الدولة بن حمدان وتوفى فى دمشق عام ٣٣٩ هـ كان يحسن اليونانية واكثر اللغات الشرقية المعروفة فى عصره.

راجع وفيات الوفيات ٢:٧٦ وطبقات الأطباء ٢:١٣٤-١٤٠ وتاريخ حكماء الاسلام ٣٠ والبداية والنهاية ١١:٢٢٤

٢ - له ترجمة قريبة من هذا

في الباطن، وردوها إلي اصلهم أصل الصابئين، وصاروا منافقين فى المسلمين وفى غيرهم من أهل الملل.

فيقولون:هذا القرآن كلام الله، وهذا الذي جاءت به الرسل كلام الله، ولكن المعنى انه فاض على نفس النبى صلى الله عليه وسلم من العقل الفعال، وربما قالوا ان العقل هو جبريل، الذي ليس على الغيب بضنين أى بخيل؛ لأنه فياض. ويقولون ان الله كلم موسى من سماء علقه، وان اهل الرياضة والصفا يصلون إلى ان يسمعوا ما سمعه موسى كما سمعه موسى.

وقد ضل بكلامه كثيرا من المشهورين مثل «ابي حامد الغزالي»[1] ذكر هذا المعنى فى بعض كتبه، وصنفوا «رسائل اخوان الصفا»[2] وغيرها، وجمعوا فيها على زعمهم بين مقالات الصابئة المتأخرين التى هي الفلسفة المبتدعة وبين ماجاءت به الرسل عن الله، فأتوا بما زعموا انه معقول ولا دليل على كثير منه، وربما ذكروا أنه منقول. وفيه من الكذب والتحريف أمر عظيم، وانما يضلون به كثيراً بما فيه من الأمور الطبيعية والرياضية، التى لا تعلق لها بأمر النبوات والرسالة لا بنفي ولا باثبات، ولكن ينتفع بها فى مصالح الدنيا: كالصناعات من الحراثة والحياكة، والبناية والخياطة ونحو ذلك.

فإذا عرف ان حقيقة قول هؤلاء المشركية الصابئة، ان القرآن قول البشر

١- هو محمد بن محمد بن محمد الغزالى الطوسى أبو حامد حجة الاسلام فيلسوف متصوف له نحو مئتى مصنف مولده عام ٤٥٠ هـ ووفاته فى الطابران فى قصبة طوس بخراسان عام ٥٠٥ من كتبه: احياء علوم الدين، وتهافت الفلاسفة، والمنقذ من الضلال، ومقاض الفلاسفة والمضنون به على غير أهله، وغير ذلك. راجع وفيات الأعيان ١:٤٦٣ وشذرات الذهب ٤:١٠

٢ - رسائل إخوان الصفا وغلاب الرفاء وهى اثنتان وخمسون رسالة فى تهذيب النفوس واصلاح الاخلاق - كما يقولون- قامت بطبعها أخيراً دار صادر ببيروت فى أربع مجلدات.

كفيره، لكنه أفضل من غيره،كما أن بعض البشر أفضل من بعض،وانه فاض على نفس النبى صلى الله عليه وسلم من المحل الأعلى كما تفيض سائر العلوم والمعارف على نفوس أهلها، فاعلم ان هذا القول كثر فى كثير من المتأخرين المظهرين للإسلام،وهم منافقون وزنادقة، وان ادعوا كمال المعارف من المتفلسفة والمتكلمة، والمتصوفة والمتفقهين، حتى يقول احدهم ـ كالتلمسانى[1] ـ كلامنا يوصل إلى الله والقرآن يوصل إلى الجنة. وقد يقول بعضهم - كابن عربى[2] ـ إن الولي يأخذ من حيث ما يأخذ الملك الذي يوحى إلى النبى صلى الله عليه وسلم. ويقول كثير منهم ان القرآن للعامة وكلامنا للخاصة.

فهؤلاء جعلوا القرآن عضين، وضربوا له الأمثال؛ مثل مافعل المشركون قبلهم كما فعلوا بالنبى صلى الله عليه وسلم.فان هؤلاء منهم من يفضل الولي الكامل والفيلسوف الكامل على النبى صلى الله عليه وسلم، ومنهم من يفضل بعض الأولياء على زعمه، أو بعض الفلاسفة: ـ مثل نفسه أو

١- هو شعيب بن الحسن الأندلسى التلمسانى أبو مدين صوفى من مشاهيرهم أصله من الأندلس أقام بفاس وسكن بجاية وكثر أتباعه حتى خافه السلطان يعقوب المنصور وتوفى بتلمسان عام ٥٩٤هـ وقد قارب الثمانين.

راجع تعريف الخلف ٢:١٧٢ - ١٧٨

والبستان ١٠٨ وجذوة المقتبس ٣٣٢

٢- هو محمد بن على بن محمد بن العربى أبو بكر الحاتمي الطائى الأندلسى المعروف بمحيى الدين بن عربى المقلب بالشيخ الاكبر فيلسوف ومن أئمة المتكلمين ولد فى مرسية بالأندلس عام ٥٦٠ وقام برحلة فزار الشام وبلاد الروم والعراق والحجاز وانكر عليه أهل الديار المصرية شطحات صدرت عنه وعمل بعضهم على اراقة دمه، فهرب إلى دمشق ومات بها عام ٦٣٨هـ

راجع مفتاح السعادة ١:١٨٧ وميزان الاعتدال ٣:١٠٨

شيخه أو متبوعه ـ على النبى صلى الله عليه وسلم.وربما قالوا هو افضل من وجه والنبى أفضل من وجه، فلهم من الالحاد والافتراء فى رسل الله نظير مالهم من الالحاد والافتراء فى رسالات الله، فيقيسون الكلام الذي بلغته الرسل عن الله بكلامهم، ويقيسون رسل الله بأنفسهم.وقد بين الله حال هؤلاء فى مثل قوله:(وماقدروا الله حق قدره إذ قالوا ماانزل الله على بشر من شيء) إلى ان قال:(ومن أظلم ممن افترى على الله كذباً، أو قال أوحى إليّ ولم يوح إليه شيء، ومن قال (سأنزل مثل ماأنزل الله)[1] فذكر الله انزل الكتابين، الذين لم ينزل من عند الله كتاب اهدى منهما ـ التوراة والقرآن ـ كما جمع بينهما فى قوله:(وقالوا سحران تظاهرا، وقالوا: انا بكل كافرون. قل فأتوا بكتاب من عند الله هو اهدى منهما اتبعه ان كنتم صادقين)[2].

وكذلك الجن لما استمعت القرآن (قالوا:ياقومنا! إنا سمعنا كتاباً انزل من بعد موسى)[3] الآية.وقال تعالى:(قل أرأيتم ان كان من عند الله وكفرتم به، وشهد شاهد من بني إسرائيل على مثله فآمن)[4] ولهذا قال النجاشى لما سمع القرآن:ان هذا والذي جاء به موسى ليخرج من مشكاة واحدة.

ثم ذكر تعالى حال الكذاب والمتنبىء. فقال:(ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا، أو قال:أوحى إلي ولم يوح إليه شيء، ومن قال سأنزل مثل ما أنزل الله)[5] فجمع فى هذا بين من أضاف مايفتريه إلى الله، وبين من يزعم أنه

---

١ ـ سورة الانعام آية رقم ٩١ - ٩٣

٢ ـ سورة القصص آية رقم ٤٨ - ٤٩

٣ ـ سورة الاحقاف آية رقم ٣٠

٤ ـ سورة الأحقاف آية رقم ١٠

٥ ـ سورة الأنعام آية رقم ٩٣

يوحى إليه ولايعين من أوحاه، فإن الذي يدعي الوحي لايخرج عن هذين القسمين.

ويدخل في «القسم الثاني» من يرى عينيه في المنام مالاتريا ، ومن يقول: القي في قلبي والهمت ونحو ذلك إذا كان كاذباً.

ويدخل في «القسم الأول» من يقول: قال الله لي أو أمرني الله أو وافقني أو قال لي ونحو ذلك! بخيالات أو الهامات يجدها في نفسه ولا يعلم أنها من عند الله، بل قد يعلم انها من الشيطان، مثل مسيلمة الكذاب[1] ونحوه. ثم قال تعالى: (ومن قال سأنزل مثل ما أنزل الله)[2] فهذه حال من زعم ان البشر يمكنهم أن يأتوا بمثل كلام الله، أو ان هذا الكلام كلام البشر بفضيلة وقوة من صاحبه، فإذا اجتهد المرء أمكن أن يأتي بمثله. وهذا يعم من قال انه يمكن معارضة القرآن، كابن أبي سرح[3] في حال ردته، وطائفة متفرقين من الناس، ويعم المتفلسفة الصابئة المنافقين والكافرين؛ ممن يزعم أن رسالة الأنبياء كلام فاض عليهم قد يفيض على غيرهم مثله، فيكون قد أنزل مثل ما أنزل الله في دعوى الرسل؛ لأن القائل سأنزل مثل ما أنزل الله قد يقوله غير معتقد أن الله أنزل شيئاً؛ وقد يقوله معتقداً أن الله أنزل شيئا.

١- هو مسيلمة بن ثمامة بن كبير بن حبيب الحنفي الوائلي أبو ثمامة متنبيء من المعمرين وفي الأمثال: اكذب من مسيلمة قتل في حرب اليمامة عام ١٢هـ. راجع ابن هشام ٢:٧٤ والروض الأنف ٢:٣٤٠ والكامل لابن الاثير ٢: ٣٧ - ١٤٠ ٢- سورة الأنعام آية رقم ٩٣

٣ـ عبد الله بن سعد بن أبي سرح من قريش فاتح أفريقيا وفارس بني عامر من أبطال الصحابة أسلم قبل فتح مكة- وهو من أهلها وكان من كتاب الوحي للنبي - صلى الله عليه وسلم - وكان على ميمنة عمرو بن العاص حين افتتح مصر وولي مصر سنة ٢٥هـ بعد عمرو فاستمر نحو ١٢ عاما مات بعسقلان عام ٣٧هـ وهو أخو عثمان بن عفان من الرضاعة واخباره كثيرة.

راجع اسد الغابة ٣:١٧٣ ومعالم الايمان ١:١١٠ والكامل لابن الاثير ٣:١١٤.

فصـــــل

فى إنكار التكليم وإتباع المذاهب الباطلة

ولهذا كان أول من اظهر انكار التكليم والمخالة «الجعد بن درهم»[1] فى أوائل المائة الثانية، وأمر علماء الإسلام ـ كالحسن البصري[2] وغيره ـ بقتله؛ فضحى به خالد بن عبد الله القسري أمير العراق بواسط[3].فقال أيها الناس ضحوا تقبّل الله ضحاياكم، فانى مضح بالجعد بن درهم، فانه زعم أن الله لم يتخذ إبراهيم خليلا، ولم يكلم موسى تكليماً؛ تعالى الله عما يقول الجعد علوا كبيراً. ثم نزل فذبحه. وأخذ ذلك عنه «الجهم بن صفوان»[4] فأنكر أن يكون الله يتكلم، ثم نافق المسلمين فأقر بلفظ الكلام، وقال: كلامه يخلق فى محل كالهواء وورق الشجر.

١ـ هو الجعد بن درهم من الموالى مبتدع له أخبار فى الزندقة سكن الجزيرة الفراتية وأخذ عنه مروان بن محمد لما ولى الجزيرة فى أيام هشام بن عبد الملك قال الذهبى: مبتدع ضال: زعم أن الله لم يتخذ إبراهيم خليلا ولم يكلم موسى تكليما. فقتل على ذلك بالعراق يوم النحر عام ١١٨هـ.

راجع ميزان الاعتدال ١:١٨٥ والكامل لابن الاثير ٥:١٦٠ ولسان الميزان ٢:١٠٥

٢ـ هو الحسن بن يسار البصرى أبو سعيد تابعى،كان إمام أهل البصرة وحبر الأمة فى زمنه وهو أحد العلماء الفقهاء الفصحاء الشجعان النساك ولد بالمدينة عام٢١هـ وتوفى بالبصرة عام ١١٠هـ.

راجع تهذيب التهذيب ووفيات الأعيان وميزان الاعتدال ١:٢٥٤ وحلية الأولياء ٢:١٣١.

٣ ـ هو خالد بن عبد الله بن يزيد بن أسد القسرى أبو الهيثم أمير العراقيين، وأحد خطباء العرب وأجوادهم ، يمانى الأصل من أهل دمشق ولى مكة سنة ٨٩ هـ للوليد بن عبد الملك ثم ولاه هشام العراقين والكوفة والبصرة سنة ١٠٥هـ عزله هشام سنة ١٢هـ وولى مكانه يوسف بن عمر الثقفى وأمره أن يحاسبه فسجنه يوسف وعذبه بالحيرة، ثم قتله فى أيام الوليد بن يزيد عام ١٢٦هـ.

راجع الأغانى ١٩:٥٣ - ٦٤.

٤- هو الجهم بن صفوان السمرقندى أبو محرز من موالى ابن راسب رأس الجهمية قال الذهبى:

ودخل بعض أهل الكلام والجدل من المنتسبين إلى الإسلام من المعتزلة ونحوهم إلى بعض مقالة الصابئة والمشركين، متابعة للجعد والجهم. وكان مبدأ ذلك أن الصابئة فى «الخلق» على قولين: منهم من يقول إن السموات مخلوقة بعد أن لم تكن، كما أخبرت بذلك الرسل، وكتب الله تعالى، ومنهم من ابتدع فقال: بل هي قديمة أزلية، لم تزل موجودة بوجود الأول، واجب الوجود بنفسه، ومنهم من قد ينكر الصانع بالكلية، ولهم مقالات كثيرة الاضطراب فى الخلق والبعث، والمبدأ والمعاد؛ لأنهم لم يكونوا معتصمين بحبل الله تعالى فيجمعهم، والظنون لاتجمع الناس فى مثل هذه الأمور التى تعجز الآراء عن إدراك حقائقها إلا بوحي من الله تعالى.

وهم انما يناظر بعضهم بعضاً بالقياس المأخوذ مقدماته من الأمور الطبيعية السفلية، وقوى الطبائع الموجودة فى التراب والماء، والهواء والحيوان، والمعدن والنبات، ويريدون بهذه المقدمات السفلية ان ينالوا معرفة الله وعلم مافوق السموات، وأول الأمر وآخره؛ وهذا غلط بين اعترف به أساطينهم بأن هذا غير ممكن، وانهم لاسبيل لهم إلى ادراك اليقين، وانهم ان يتبعون إلا الظن.

فلما كان هذا حال هذه الصابئة المبتدعة الضالة، ومن اضلوه من اليهود النصارى، وكان قد اتصل كلامهم ببعض من لم يهد بهدى الله، الذي بعث به رسله، من اهل الكلام والجدل، صاروا يريدون ان يأخذوا مأخذهم، كما أخبر النبى صلى الله عليه وسلم بقول: «لتأخذن مأخذ الأمم قبلكم شبراً بشبر

= الضال المبدع، هلك فى زمان صغار التابعين وقد زرع شراً عظيماً كان يقضى فى عسكر بن شريح الخارج على أمراء خراسان فقبض عليه نصر بن سيار وأمر بقتله عام ١٢٨هـ.

راجع ميزان الاعتدال ١:١٩٧ ولسان الميزان ٢ : ١٤٢ وخطط المقريزى ٢:٣٤٩ - ٣٥١.

وذراعا بذراع» قالوا يارسول الله! فارس والروم؟! قال:«ومن الناس إلا فارس والروم؟!»[1] فاحتجوا على حدوث العالم بنحو من مسالك هذه الصابئة، وهو الكلام فى الأجسام والاعراض، بأن تثبت الأعراض ثم يثبت لزومها للأجسام ثم حدوثها، ثم يقال:مالا يسبق الحوادث فهو حادث، واعتمد كثير من أهل الجدل على هذا فى اثبات حدوث العالم، فلما رأوا أن الأعراض ـ التى هي الصفات ـ تدل عندهم على حدوث الموصوف الحامل للأعراض التزموا نفيها عن الله؛ لأن ثبوتها مستلزم حدوثه.وبطلان دليل حدوث العالم ـ الذي اعتقدوا ان لا دليل سواه، بل ربما اعتقدوا انه لايصح إيمان أحد إلا به ـ معلوم بالاضطرار من دين الإسلام.

وهؤلاء يخالفون «الصابئة الفلاسفة» الذين يقولون بقدم العالم، وبأن النبوة كمال تفيض على نفس النبى؛ لأن هؤلاء المتكلمين اكثر حقا، واتبع للأدلة العقلية والسمعية لما تنورت به قلوبهم من نور الإسلام والقرآن، وإن كانوا قد ضلوا فى كثير مما جاءت به الرسل؛ لكن هم خير من أولئك من وجوه أخرى وافقوا فيها [أهل السنة] فوافقوا أولئك على ان الله لم يتكلم، كما وافقوهم على أنه لاعلم له ولا قدرة ولا صفة من الصفات، ورأوا ان اثباته متكلما يقتضي أن يكون جسما، والجسم حادث؛ لأنه من الصفات الدالة على حدوث الموصوف، بل هو عندهم أدل على حدوث المتكلم من غيره؛ بل الله يفتقر من الخارج إلى مالا يفتقر إليه غيره؛ ولأن فيه من الترتيب والتقديم والتأخير ماليس فى غيره ولما رأوا أن الرسل اتفقت

١- الحديث أخرجه الامام البخارى فى كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة ٧٣١٩ حدثنا أحمد بن يونس حدثنا ابن ابى ذئب عن المقبرى عن أبى هريرى- رضى الله عنه ـ عن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال:وذكره.

على انه متكلم والقرآن مملوء باثبات ذلك صاروا تارة يقولون متكلم مجازاً لاحقيقة، وهذا قولهم الأول لما كانوا في بدعتهم على الفطرة، قبل ان يدخلوا في المعاندة والجحود.

ثم انهم رؤا ان هذا شيئا فقالوا بل هو متكلم حقيقة، وربما حكى بعض متكلميهم الاجماع وليس عندهم كذلك، بل حقيقة قولهم واصله عند من عرفه وابتدعه ان الله ليس بمتكلم، وقالوا المتكلم هو من فعل الكلام ولو في محل منفصل عنه؛ ففسروا المتكلم في اللغة بمعنى لايعرف في لغة العرب ولا غيرهم؛ لا حقيقة ولا مجازاً؛ وهذا قول من يقول إن القرآن مخلوق، وهو أحد قولي الصابئة الذين يوافقون الرسل في حدوث العالم، وهو وان كان كفراً بما جاءت به الرسل فليس هو في الكفر مثل القول الأول:لأن هؤلاء لايقولون ان الله أراد أن يبعث رسولاً معيناً، وان ينزل عليه هذا الكلام الذي خلقه، وانكروا أن يكون متكلما على الوجه الذي دلت عليه الكتب الالهية، واتفقت عليه أهل الفطرة السليمة.

ونشأ بين هؤلاء الذين هم فروع الصابئة وبين المؤمنين اتباع الرسل الخلاف، فكفر هؤلاء ببعض ماجاءت به الرسل من وصف الله بالكلام والتكليم، واختلفوا في كتاب الله فآمنوا ببعض وكفروا ببعض.

واتبع المؤمنون ما انزل اليهم من ربهم من ان الله تكلم بالقرآن، وانه كلم موسى تكليما، وانه يتكلم ولم يحرفوا الكلم عن مواضعه كما فعل الأولون؛ بل ردوا تحريف أولئك ببصائر الايمان الذي علموا به مراد الرسل من إخبارهم برسالة الله وكلامه، واتبعوا هذا القرآن والحديث واجماع السلف من الصحابة والتابعين وسائر اتباع الانبياء وعلموا ان قول هؤلاء اخبث من قول اليهود

والنصارى، حتى كان ابن المبارك[1] امام المسلمين ـ يقول: إنا لنحكي كلام اليهود والنصارى ولا نستطيع ان نحكى كلام الجهمية.

وكان قد كثر ظهور هؤلاء الذين هم فروع المشركين ومن اتبعهم من مبدلة الصابئين، ثم مبدلة اليهود والنصارى فى أوائل المائة الثانية، وأوائل الثالثة فى إمارة أبى العباس الملقب «بالمأمون»[2]، بسبب تعريب كتب الروم المشركين الصابئين؛ الذين كانوا قبل النصارى، ومن اشبههم من فارس والهند، وظهرت علوم الصابئين المنجمين ونحوهم.

وقد تقديم ان أهل الكلام المبتدع فى الإسلام هم من فروع الصابئين، كما يقال:المعتزلة مخانيث الفلاسفة. فظهرت هذه المقالة فى أهل العلم والكلام، وفى أهل السيف والامارة، وصار فى أهلها من الخلفاء والأمراء. والوزراء والقضاة، والفقهاء ما امتحنوا به المؤمنين والمؤمنات والمسلمين والمسلمات الذين اتبعوا ما انزل اليهم من ربهم، ولم يبدلوا ولم يبتدعوا، وذلك لقصور وتفريط من اكثرهم فى معرفة حقيقة ما جاء به الرسول واتباعه، والا فلو كان ذلك كثيراً فيهم لم يتمكن أولئك المبتدعة لما يخالف دين الإسلام من التمكن منهم.

١- هو عبد الله بن المبارك بن واضح الحنظلى بالولاء المروزى ابو عبد الرحمن الحافظ: شيخ الإسلام المجاهد التاجر صاحب التصانيف والرحلات. أفنى عمره فى الأسفار حاجاً ومجاهداً وتاجراً وجمع الحديث والفقه والعربية وأيام الناس والشجاعة كان من سكان خراسان ومات بهيت على الفرات عام ١٨١هـ له كتاب فى الجهاد.

راجع تذكرة الحفاظ ١:٢٥٣ ومفتاح السعادة ٢:١١٢ وشذرات الذهب ١:٢٩٥.

٢- هو عبد الله بن هارون الرشيد بن محمد المهدى بن أبى جعفر المنصور أبو العباس سابع الخلفاء ومن بنى العباس وأحد كبار الملوك فى سيرته وعلمه وسعة ملكه ـ ولى الخلافة بعد خلع أخيه الأمين سنة ١٩٨هـ وتوفى عام ٢١٨هـ

راجع تاريخ بغداد ١٠:١٨٣ والمسعودى ٢: ٢٤٧ - ٢٦٩ وابن الاثير ٦:١٤٤

فصـــــل

فى أراء متكلمى الصفاتية

فجاء قوم من متكلمي الصفاتية الذين نصروا ان الله له علم وقدرة وبصر وحياة، بالمقاييس العقلية المطابقة للنصوص النبوية، وفرقوا بين الصفات القائمة بالجواهر فجعلوها اعراضاً[1]، وبين الصفات القائمة بالرب فلم يسموها اعراضاً؛ لأن العرض مالا يدوم ولايبقى، أو ما يقوم بمتحيز أو جسم، فصفات الرب لازمة دائمة ليست من جنس الأعراض القائمة بالأجسام.

وهؤلاء أهل الكلام القياسى من الصفاتية فارقوا أولئك المبتدعة المعطلة الصابئة فى كثير من أمورهم، واثبتوا الصفات التى قد يستدل بالقياس العقلي عليها، كالصفات السبع وهى: الحياة، والعلم، والقدرة، والارادة، والسمع، والبصر، والكلام، ولهم نزاع فى السمع والبصر والكلام، هل هو من الصفات العقلية أو الصفات النبوية الخبرية السمعية، ولهم اختلاف فى البقاء والقدم، وفى الادراك الذي هو ادراك المشمومات والمذوقات والملموسات، ولهم ايضا اختلاف فى الصفات السمعية القرآنية الخبرية كالوجه واليد، فاكثر متقدميهم أو كلهم يثبتها وكثير من متأخريهم لايثبتها، وأما مالا يرد إلا فى الحديث فأكثرهم لايثبتها. ثم منهم من يصرف النصوص عن دلالتها لأجل ماعرضها من القياس العقلى عنده،ومنهم من يفوض معناها - وليس الغرض هنا تفصيل مقالات الناس فيما يتعلق بسائر الصفات.

١- راجع كتاب الصفدية لابن تيمية تحقيق الدكتور محمد رشاد سالم. ط شركة مطابع حنيفة الرياض- المملكة العربية السعودية.

انما المقصود القول فى «رسالة الله، وكلامه» الذي بلغته رسله فكان هؤلاء بينهم وبين أهل الوراثة النبوية قدر مشترك بما سلكوه من الطرق الصابئة فى أمر الخالق، واسمائه وصفاته؛ فصار فى مذهبهم فى الرسالة تركيب من الوراثتين،ليسوا حق وورثة الانبياء بباطل وورثة اتباع الصابئة كما كان فى مذهب أهل الكلام المحض المبتدع: كالمعتزلة تركيب، وليس بين الاثارة النبوية وبين الاثارة الصابئة؛ لكن أولئك اشد اتباعا للاثارة النبوية، وأقرب إلى مذهب اهل السنة من المعتزلة، ونحوهم من وجوه كثيرة.

ولهذا وافقهم فى بعض ماابتدعوه كثير من أهل الفقه، والحديث والتصوف[1]؛ لوجوه:

«أحدها» كثرة الحلق الذي يقولونه، وظهور الاثارة النبوية عندهم

«الثاني» لبسهم ذلك بمقاييس عقليه بعضها مورث عن الصابئة وبعضها مما ابتدع فى الإسلام، واستيلاء مافي ذلك من الشبهات عليهم، وظنهم انه لم يمكن التمسك بالاثارة النبوية من اهل العقل والعلم، الا على هذا الوجه.

«الثالث» ضعف الأثارة النبوية الدافعة لهذه الشبهات، والموضحة لسبيل الهدى عندهم.

«الرابع» العجز والتفريط الواقع في المنتسبين إلى السنة والحديث: تارة

---

١ ـ التصوف:نمط من الحياة الروحية التى يخضع لها الإنسان فيها لضروب من الرياضات والمجاهدات التى تؤدى إلى الكشف والمشاهدة، وقيل فى أصل اشتقاقه: أنه من الصوف نظرا لميل أصحابه إلى لبسه، لما فيه من التقشف والخشونة ومن أجمعه التعاريف التى وضعها الصوفية له قول الجنيد: التصوف تصفيه القلب عن موافقة البرية، ومفارقة الأخلاق الطبيعية، واخماد الصفات البشرية، ومجانبة الدواعى النفسانية، ومنازلة الصفات الروحانية، والتعلق بالعلوم الحقيقة، واستعمال ماهو أولى على الأبدية، والنصح لجميع الأمة، والوفاء لله على الحقيقة، واتباع الرسول صلى الله عليه وسلم ـ فى الشريعة.

يرون مالا يعلمون صحته، وتارة يكونون كالأميين الذين لايعلمون الكتاب إلا أماني، ويعرضون عن بيان دلالة الكتاب والسنة على حقائق الأمور.

فلما كان هذا «منهاجهم وقالوا: إن القرآن غير مخلوق لما دل على ذلك من النصوص واجماع السلف، ولما رأوا أنه مستقيم على الأصل الذي قرروه فى الصفات، ورأوا ان التوفيق بين النصوص النبوية السمعية، وبين القياس العقلى لايستقيم إلا ان يجعلوا القرآن معنى قائماً بنفس الله تعالى - كسائر الصفات، كما جعله الأولون من باب المصنوعات المخلوقات، لا قديماً كسائر الصفات، ورأوا انه ليس إلا مخلوق أو قديم، فان إثبات قسم ثالث قائم بالله يقتضي حلول الحوادث بذاته، وهو دليل على حدوث الموصوف، ومبطل لدلالة حدوث العالم.

ثم رأوا أنه لايجوز ان يكون معانى كثيرة؛ بل إما معنى واحد عند طائفة، أو معاني أربعة عند طائفة، والتزموا على هذا أن حقيقة الكلام هي المعنى القائم بالنفس، وأن الحروف والاصوات ليست من حقيقة الكلام؛ بل دالة عليه فتسمى باسمه؛ اما مجاز عند طائفة، أو حقيقة بطريق الاشتراك عند طائفة، وإما مجاز في كلام الله حقيقة في غيره عند طائفة.

وخالفهم الأولون وبعض من يتسنن ايضاً، وقالوا: لاحقيقة للكلام إلا الحروف والاصوات، وليس وراء ذلك معنى إلا العلم ونوعه، أو الارادة ونوعها، فصار النزاع بين الطائفتين.

وأورد على هؤلاء أن الأمر والنهي والخبر صفات للكلام اضافية ليست أنواعاً له وأقساماً، وأن كلام الله معنى واحد: إن عبر عنه بالعربية فهو

قرآن، وبالعبرية فهو توراة، وبالسريانية فهو الجيل. وقال لهم أكثر الناس هذا معلوم الفساد بالضرورة، كما قال الأولون انه خلق الكلام فى الهواء فصار متكلماً به، وإن المتكلم من أحدث الكلام ولو فى ذات غير ذاته؛ وقال لهم أكثر الناس: إن هذا معلوم الفساد بالضرورة.

وقال الجمهور من جميع الطوائف: إن الكلام إسم للفظ والمعنى جميعاً، كما أن الإنسان المتكلم إسم للروح والجسم جميعاً، وأنه إذا أطلق على أحداهما فبقرينة، وأن معانى الكلام متنوعة ليست منحصرة فى العلم والارادة، كتنوع ألفاظه، وإن كانت المعانى أقرب إلى الاتحاد والاجتماع، والألفاظ أقرب إلى التعدد والتفرق.

والتزم هؤلاء أن حروف القرآن مخلوقة، وإن لم يكن عندهم الذي هو كلام الله مخلوقاً، وفرقوا بين كتاب الله وكلامه. فقالوا كتاب الله هو الحروف وهو مخلوق، وكلام الله هو معناها غير مخلوق. وهؤلاء الأولون متفقون على خلق القرآن الذي قال الأولون انه مخلوق، واختلف هؤلاء أين خلقت هذه الحروف؟ هل خلقت في الهواء؟ أو فى نفس جبرائيل؟ أو أن جبرائيل هو الذي أحدثها أو محمد؟

وأما جمهور الأمة وأهل الحديث والفقه والتصوف فعلى ما جاءت به الرسل، وما جاء عنهم من الكتب والأثارة من العلم، وهم المتبعون للرسالة اتباعاً محضاً، لم يشوبوه بما يخالفه من مقالة الصابئين، وهو أن القرآن كلام الله، لايجعلون بعضه كلام الله وبعضه ليس كلام الله، والقرآن هو القرآن ـ الذي يعلم المسلمون أنه القرآن ـ حروفه ومعانيه، والأمر والنهي هو اللفظ والمعنى جميعاً.

لهذا كان الفقهاء المصنفون فى أصول الفقه[1] من جميع الطوائف: الحنفية والمالكية، والشافعية والحنبلية - إذا لم يخرجوا عن مذاهب الأئمة، والفقهاء - إذا تكلموا فى الأمر والنهي ذكروا ذلك، وخالفوا من قال إن الأمر هو المعنى المجرد، ويعلم أهل الاثارة النبوية - أهل السنّة والحديث، عامة المسلمين الذين هم جماهير أهل القبلة - أن قوله تعالى: (ألم ذلك الكتاب لاريب فيه)[1] ونحو ذلك هو كلام الله لا كلام غيره، وكلام الله هُو ما تكلم به لا ماخلقه فى غيره، ولم يتكلم به.

١- هو علم يتعرف منه استنباط الاحكام الشرعية الفرعية عن أدلتها الاجمالية اليقينية، وموضوعه: الأدلة الشرعية الكلية من حيث انها كيف يستنبط عنها الاحكام الشرعية.

ومبادئه: مأخوذة من العربية وبعض من العلوم الشرعية والعقلية والغرض منه: تحصيل ملكة استنباط الأحكام الشرعية الفرعية من أدلتها الأربعة التفصيلية، أعنى الكتاب والسنة والاجماع والقياس، وفائدته: استنباط تلك الأحكام على وجه الصحة، ومن المصنفين فى هذا العلم الامام أحمد بن على، أبو بكر الرازى المعروف بالجصاص، وأيضاً عبيد الله بن عمر بن عيسى أبو زيد الدبوس، ومحمد بن أحمد بن أبى سهل أبو بكر السرخسى، وغير ذلك كثير.

٢ - سورة البقرة آية رقم ١ - ٢

وسئل شيخ الإسلام
قدس الله روحه[1]

عن رجلين تجادلا في «الأحرف التي أنزلها الله على آدم» فقال أحداهما إنها قديمة ليس لها مبتدأ، وشكلها ونقطها محدث. فقال الآخر ليست بكلام الله وهي مخلوقة بشكلها ونقطها، والقديم هو الله، وكلامه منه بدأ وإليه يعود، منزل غير مخلوق، ولكنه كُتِبَت بها.وسألا أيهما أصوب قولاً وأصح اعتقاداً؟

فأجاب:الحمد لله رب العالمين.أصل هذه المسألة هو معرفة «كلام الله تعالى».ومذهب سلف الأمة وأئمتها من الصحابة والتابعين لهم باحسان، وسائر أئمة المسلمين كالأئمة الأربعة وغيرهم مادل عليه الكتاب والسنة، وهو الذي يوافق الأدلة العقلية الصريحة أن القرآن كلام الله منزل غير مخلوق، منه بدأ وإليه يعود، فهو المتكلم بالقرآن والتوراة والانجيل وغير ذلك من كلامه، ليس ذلك مخلوقاً منفصلاً عنه، وهو سبحانه يتكلم بمشيئته وقدرته، فكلامه قائم بذاته، ليس مخلوقاً بائناً عنه، وهو يتكلم بمشيئته وقدرته، لم يقل أحد من سلف الأمة إن كلام الله مخلوق بائن عنه، ولا قال أحد منهم ان القرآن أو التوراة أو الانجيل لازمة لذاته أزلا وأبداً، وهو لايقدر أن يتكلم بمشيئته وقدرته، ولا قالوا إن نفس ندائه لموسى أو نفس الكلمة المعينة قديمة أزلية، بل قالوا لم يزل الله متكلماً إذا شاء، فكلامه قديم بمعنى أنه لم يزل متكلماً إذا شاء.

---

١ - تسمى: «مسألة الأحرف التي أنزلها الله على آدم».

وكلمات الله لا نهاية لها، كما قال تعالى: (قل لو كان البحر مداداً كلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربي ولو جئنا بمثله مدداً)[1]، والله سبحانه تكلم بالقرآن العربي، وبالتوراة العبرية فالقرآن العربي كلام الله، كما قال تعالى: (فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم) إلى قوله: (لسان عربي مبين)[2] فقد بين سبحانه أن القرآن الذي يبدل من آية مكان آية نزله روح القدس وهو جبريل - وهو الروح الأمين كما ذكر ذلك في موضع آخر - من الله بالحق، وبين بعد ذلك أن من الكفار من قال: (إنما يعلمه بشر)[3] كما قال بعض المشركين يعلمه رجل بمكة أعجمي، فقال تعالى: (لسان الذي يلحدون إليه أعجمي)[4] أي الذي يضيفون إليه هذا التعليم أعجمي (وهذا لسان عربي مبين)[5].

ففي هذا ما يدل على أن الآيات التى هى لسان عربى مبين، نزلها روح القدس من الله بالحق، كما قال فى الآية الأخرى: (أفغير الله أبتغي حكماً وهو الذي أنزل إليكم الكتاب مفصلا؟ والذين آتيناهم الكتاب يعلمون أنه منزل من ربك بالحق فلا تكونن من الممترين)[6] والكتاب الذي أنزل مفصلا هو القرآن العربى باتفاق الناس، وقد أخبر أن الذين أتاهم الكتاب يعلمون أنه منزل من الله بالحق، ولاعلم لايكون إلا حقاً فقال: (يعلمون) ولم يقل يقولون، فان العلم لايكون إلا حقاً بخلاف القول. وذكر علمهم ذكر مستشهد به.

---

١ - سورة الكهف آية رقم ١٠٩

٢ - سورة النحل آية رقم ٩٨ - ١٠٣

٣ - ٤ - ٥ - سورة النحل آية رقم ١٠٣

٦ - سورة الانعام آية رقم ١١٤

وقد فرق سبحانه بين ايحائه إلى غير موسى وبين تكليمه لموسى فى قوله تعالى: (إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح) إلى قوله: (حجة بعد الرسل)[1] فرق سبحانه بين تكليمه لموسى وبين ايحائه لغيره، ووكد تكليمه لموسى بالمصدر، وقال تعالى: (تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض) إلى قوله: (روح القدس)[2] وقال تعالى: (وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً)[3] إلى آخر السورة. فقد بين سبحانه أنه لم يكن لبشر أن يكلمه الله إلا على أحد الأوجه الثلاثة: إما وحياً، وإما من وراء حجاب، وإما أن يرسل رسولا فيوحي باذنه مايشاء؛ فجعل الوحي غير التكليم، والتكليم من وراء حجاب كان لموسى.

وقد أخبر فى غير موضع أنه ناداه كما قال: (وناديناه من جانب الطور)[4] الآية. وقال: (فلما أتاها نودي من شاطىء الواد الأيمن)[5] الآية. و«النداء» باتفاق أهل اللغة لايكون إلا صوتاً مسموعا، فهذا مما اتفق عليه سلف المسلمين وجمهورهم. وأهل الكتاب يقولون: إن موسى ناداه ربه نداء سمعه باذنه، وناداه بصوت سمعه موسى، والصوت لايكون إلا كلاما، والكلام لايكون إلا حروفا منظومة، وقد قال تعالى: (تنزيل الكتاب من الله

---

١ ـ سورة النساء آية رقم ١٦٣ ـ ١٦٥

٢ ـ سورة البقرة آية رقم ٢٥٣

٣ ـ سورة الشورى آية رقم ٥١

٤ ـ سورة مريم آية رقم ٥٢

٥ ـ سورة القصص آية رقم ٣٠

العزيز الحكيم)[1] وقال:(حم تنزيل من الرحمن الرحيم)[2] وقال:(حم تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم)[3] فقد بين في غير موضع ان الكتاب والقرآن العربي منزل من الله.

وهذا معنى قول السلف:منه بدأ، قال أحمد بن حنبل رحمه الله:منه بدأ أي هو المتكلم به، فإن الذين قالوا انه مخلوق قالوا خلقه في غيره فبدا من ذلك المخلوق، فقال السلف: منه بدا أي هو المتكلم به لم يخلقه في غيره فيكون كلاما لذلك المحل الذي خلقه فيه، فان الله تعالى إذا خلق صفة من الصفات في محل كانت الصفة صفة لذلك المحل ولم تكن صفة لرب العالمين، فإذا خلق طعاما أو لوناً في محل كان ذلك المحل هو المتحرك المتلون به، وكذلك إذا خلق حياة أو إرادة أو قدرة أو علماً أو كلاماً في محل كان ذلك المحل هو المريد، القادر، العالم، المتكلم بذلك الكلام، ولم يكن ذلك المعنى المخلوق في ذلك المحل صفة لرب العالمين، وإنما يتصف الرب تعالى بما يقوم به من الصفات، لابما يخلقه في غيره من المخلوقات، فهو الحي، العليم، القدير، السميع، البصير، الرحيم، المتكلم بالقرآن وغيره من الكلام، بحياته وعلمه وقدرته وكلامه القائم به لابما يخلقه في غيره من هذه المعاني.

ومن جعل كلامه مخلوقا لزمه أن يقول المخلوق هو القائل لموسى:(إنني أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدني،وأقم الصلاة لذكري)[4] وهذا ممتنع لايجوز أن يكون هذا كلاماً إلا لرب العالمين، وإذا كان الله قد تكلم بالقرآن والتوراة

---

١ ـ سورة الزمر آية رقم ١

٢ ـ سورة فصلت آية رقم ١ - ٢

٣ ـ سورة الجاثية آية رقم ١ -٢

٤ ـ سورة طه آية رقم ١٤

وغير ذلك من الكتب بمعانيها وألفاظها المنتظمة من حروفها لم يكن شيء من ذلك مخلوقا؛ بل كان ذلك كلاماً لرب العالمين.

وقد قيل للامام احمد بن حنبل:إن فلاناً يقول لما خلق الله الأحرف سجدت له إلا الألف،فقالت:لا أسجد حتى أؤمر،فقال:هذا كفر، فأنكر على من قال ان الحروف مخلوقة؛لأنه إذا كان جنس الحروف مخلوقا لزم أن يكون القرآن العربي والتوراة العبرية وغير ذلك مخلوقا، وهذا باطل مخالف لقول السلف والأئمة، مخالف للادلة العقلية والسمعية، كما قد بسط فى غير هذا الموضوع.

والناس قد تنازعوا فى كلام الله نزاعا كثيراً؛ والطوائف الكبار نحو ست فرق، فابعدها عن الإسلام قول من يقول من المتفلسفة والصابئة إن كلام الله انما هو مايفيض على النفوس:اما من العقل الفعال، واما من غيره،وهؤلاء يقولون:انما كلم الله موسى من سماء عقله اي بكلام حدث فى نفسه لم يسمعه من خارج.

واصل قول هؤلاء أن الأفلاك قديمة أزلية، وان الله لم يخلقها بمشيئته وقدرته فى ستة أيام كما أخبرت به الأنبياء، بل يقولون: ان الله لايعلم الجزئيات، فلما جاءت الأنبياء بما جاءوا به من الأمور الباهرة جعلوا يتأولون ذلك تأويلات يحرفون فيها الكلم عن مواضعه، ويريدون ان يجمعوا بينها وبين اقوال سلفهم الملاحدة، فقالوا مثل ذلك.وهؤلاء اكفر من اليهود والنصارى، وهم كثيروا التناقض، كقولهم ان الصفة هي الموصوف، وهذه الصفة هي الأخرى فيقولون:هو عقل وعاقل ومعقول،ولذيذ وملتذ ولذة، وعاشق ومعشوق وعشق.وقد يعبرون عن ذلك بانه حي عالم معلوم،محب

محبوب،ويقولون نفس العلم هو نفس المحبة،وهو نفس القدرة.ونفس العلم هو نفس العالم، ونفس المحبة هى نفس المحبوب.

ويقولون انه علة تامة فى الأزل؛ فيجب أن يقارنها معلولها فى الأزل فى الزمن وإن كان متقدماً عليها بالعلة لا بالزمان.ويقولون إن العلة التامة ومعلولها يقترنان فى الزمان ويتلازمان،فلا يوجد معلول إلا بعلة تامة، ولاتكون علة تامة إلا مع معلولها فى الزمان.ثم يعترفون بان حوادث العالم حدثت شيئاً بعد شيء من غير أن يتجدد من المبدع الأول مايوجب أن يصير علة للحوادث المتعاقبة؛ بل حقيقة قولهم أن الحوادث حدثت بلا محدث،وكذلك عدمت بعد حدوثها من غير سبب يوجب عدمها على أصلهم.

وهؤلاء قابلهم طوائف من أهل الكلام ظنوا أن المؤثر التام يتراخى عنه أثره،وأن القادر المختار يرجح أحد مقدوريه على الآخر بلا مرجح،والحوادث لها ابتداء،وقد حدثت بعد أن لم تكن بدون سبب حادث.ولم يهتد الفريقان للقول الوسط،وهو أن المؤثر التام مستلزم أن يكون أثره عقب تأثيره التام لامع التأثير ولا متراخياً عنه، كما قال تعالى:(إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون)[1] فهو سبحانه يكون كل شيء فيكون عقب تكوينه لامع تكوينه فى الزمان،ولا متراخياً عن تكوينه،كما يكون الانكسار عقب الكسر والانقطاع عقب القطع،ووقوع الطلاق عقب التطليق لامتراخياً عنه ولامقارناً له فى الزمان.

والقائلو ن بالتراخى ظنوا امتناع حوادث لا تتناهى، فلزمهم أن الرب لا

١- سورة يس آية رقم ٨٢

يمكنه فعل ذلك، فالتزموا أن الرب يمتنع أن يكون لم يزل متكلما بمشيئته، ويمتنع أن يكون لم يزل قادراً على الفعل والكلام بمشيئته.فافترقوا بعد ذلك منهم من قال :كلامه لا يكون إلا حادثاً؛ لأن الكلام لايكون إلا مقدوراً مراداً، وماكان كذلك لايكون إلا حادثاً، وما كان حادثاً كان مخلوقاً منفصلاً عنه؛ لامتناع قيام الحوادث به،وتسلسلها فى ظنهم.

ومنهم من قال:بل كلامه لايكون إلا قائماً به، وما كان قائماً به لم يكن متعلقاً بمشيئته وإرادته،بل لايكون لا قديم العين؛لأنه لو كان مقدوراً مراداً لكان حادثاً فكانت الحوادث تقوم به، ولو قامت به لم يسبقها ولم يخل منها، ومالم يخل من الحوادث فهو حادث؛ لامتناع حوادث لا أول لها.

ومنهم من قال:بل هو متكلم بمشيئته وقدرته،لكنه يمتنع أن يكون متكلماً فى الأزل،أو أنه لم يزل متكلماً بمشيئته وقدرته؛لأن ذلك يستلزم وجود حوادث لا أول لها،وذلك ممتنع.

قالت «هذه الطوائف»:ونحن بهذا الطريق علمنا حدوث العالم؛فاستدللنا على حدوث الأجسام بأنها لاتخلوا من الحوادث ولا تسبقها،ومالم يسبق الحوادث فهو حادث.ثم من هؤلاء من ظن أن هذه قضية ضرورية ولم يتفطن لاجمالها.ومنهم من تفطن للفرق بين مالم يسبق الحوادث المحصورة المحدودة ومايسبق جنس الحوادث المتعاقبة شيأ بعد شيء.أما الأول فهو حادث بالضرورة؛ لأن تلك الحوادث لها مبدأ معين، فما لم يسبقها يكون معها أو بعدها وكلاهما حادث.

وأما جنس الحوادث شيئاً بعد شيء فهذا شيء تنازع فيه الناس، فقيل

إن ذلك ممتنع فى الماضي والمستقبل، كقول الجهم وأبي الهذيل[1]. فقال الجهم: بفناء الجنة والنار. وقال أبو الهذيل: بفناء حركات أهلهما وقيل: بل هو جائز فى المستقبل دون الماضي؛ لأن الماضي دخل فى الوجود دون المستقبل. وهو قول كثير من طوائف النظار. وقيل: بل هو جائز فى الماضي والمستقبل. وهذا قول أئمة أهل الملل وأئمة السنة كعبد الله بن المبارك وأحمد بن حنبل،[2] وغيرهما ممن يقول بأنه الله لم يزل متكلماً إذا شاء، وأن كلمات الله لانهاية لها وهى قائمة بذاته وهو متكلم بمشيئته وقدرته. وهو أيضاً قول أئمة الفلاسفة.

لكن أرسطو[3] وأتباعه مدعون ذلك فى حركات الفلك، ويقولون إنه قديم آزلي. وخالفوا فى ذلك جمهور الفلاسفة، مع مخالفة الأنبياء والمرسلين وجماهير العقلاء. فانهم متفقون على أن الله خلق السموات والأرض، بل هو خالق كل شيئ، وكل ما سوى الله مخلوق حادث كائن بعد أن لم يكن. وإن القديم الأزلي هو الله تعالى بما هو متصف به من صفات الكمال وليست صفاته خارجة عن مسمى اسمه؛ بل من قال عبدت الله ودعوت الله فانما عبد ذاته المتصفة بصفات الكمال التى تستحقها، ويمتنع وجود ذاته بدون صفاتها اللازمة لها.

١- هو محمد بن الهزيل بن عبد الله بن مكحول أبو الهزيل العلاف من أئمة المعتزلة ولد فى البصرة عام ١٣٥هـ واشتهر بعلم الكلام وكان حسن الجدل قوى الحجة سريع الخاطر كف بصره فى آخر عمره وتوفى بسامرا عام ٢٣٥ له كتب كثيرة منها (ميلاس) على اسم مجوس اسلم على يده.

راجع وفيات الأعيان ١:٤٨٠ ولسان الميزان ٥:٤١٣ ومروج الذهب ٢:٢٩٨ وتاريخ بغداد ٣:٣٦٦

٢ - هو أحمد بن محمد بن حنبل أبو عبد الله الشيبانى الوائلى إمام المذهب الحنبلى، وأحد الأئمة الأربعة ولد عام ١٦٤هـ وتوفي عام ٢٤١.

راجع ترجمة وافيه له فى ابن عساكر ٢:٢٨ والحلية ٩:١٦١ وصفة الصفوة ٢:١٩٠

٣- ارسطوا طاليس: ابن نيقوماخس الفيثاغورى وتفسير ارسطو طاليس تام الفضيلة ===

ثم لما تكلم فى «النبوات» من اتبع أرسطو ـ كابن سينا وأمثاله ـ ورأوا ماجاءت به الأنبياء من إخبارهم بأن الله يتكلم،وانه كلم موسى تكليماً،وانه خالق كل شيء،أخذوا يحرفون كلام الأنبياء عن مواضعه،فيقولون:الحدوث نوعان،ذاتى وزماني،ونحن نقول إن الفلك محدث الحدوث الزماني؛بمعنى أنه معلول وإن كان أزلياً لم يزل مع الله،وقالوا إنه مخلوق بهذا الاعتبار،والكتب الالهية أخبرت بأن الله خلق السموات والأرض فى ستة أيام،والقديم الأزلي لا يكون فى أيام.

وقد علم بالاضطرار أن ماأخبرت به الرسل من أن الله خلق كل شيء، وأنه خلق كذا إنما أرادوا بذلك أنه خلق المخلوق،وأحدثه بعد أن لم يكن، كما قال:(وقد خلقتك من قبل ولم تك شيئاً)[1] والعقول الصريحة توافق ذلك، وتعلم أن المفعول المخلوق المصنوع لايكون مقارناً للفاعل فى الزمان ولايكون إلا بعده، وأن الفعل لايكون إلا باحداث المفعول.

وقالوا لهؤلاء قولكم:«إنه مؤثر تام فى الازل» لفظ مجمل يراد به التأثير العام فى كل شيء،ويراد به التأثير المطلق فى شيء بعد شيء ويراد به التأثير فى شيء معين دون غيره؛فان أردتم «الأول» لزم أن لايحدث فى العالم حادث،وهذا خلاف المشاهدة،وإن أردتم «الثاني» لزم أن يكون كل ماسوى الله مخلوقا حادثا كائنا بعد أن لم يكن، وكان الرب لم يزل متكلماً بمشيئته فعالاً لما يشاء،وهذا يناقض قولكم ويستلزم أن كل ماسواه مخلوق

=== وهو تلميذ أفلاطون وقد لازمه مدة عشرين سنة وكان افلاطون يؤثره على سائر تلاميذه ويسميه العقل والى ارسطو طاليس انتهت فلسفة اليونان وهو خاتمة حكمائهم.

راجع أخبار العلماء بأخبار الحكماء ٢١ - ٢٢

١ ـ سورة مريم آية رقم ٩

ويوافق ما أخبرت به الرسل،وعلى هذا يدل العقل الصريح.فتبين أن العقل الصريح يوافق ماأخبرت به الأنبياء،وإن أردتم «الثالث» فسد قولكم؛لانه يستلزم انه يشاء [حدوثها] بعد أن لم يكن فاعلاً لها من غير تجدد سبب يوجب الاحداث،وهذا يناقض قولكم.فان صح هذا جاز أن يحدث كل شيء بعد أن لم يكن محدثاً لشيء،وإن لم يصح هذا بطل، فقولكم باطل على التقديرين.

وحقيقة قولكم أن المؤثر التام لايكون إلا مع أثره، ولايكون الاثر إلا مع المؤثر التام فى الزمن؛ وحينئذ فيلزمكم أن لايحدث شيء، ويلزمكم أن كل ماحدث حدث بدون مؤثر، ويلزمكم بطلان الفرق بين أثر وأثر، وليس لكم أن تقولوا بعض الآثار يقارن المؤثر التام وبعضها يتراخى عنه.

وأيضاً فكونه فاعلا لمفعول معين مقارن له أزلا وأبداً باطل فى صريح العقل،وأيضا فأنتم وسائر العقلاء موافقون على ان الممكن الذي لايكون [الا] ممكناً يقبل الوجود والعدم، وهو الذي جعلتموه الممكن الخاص الذي قسيمه الضروري الواجب،والضروري الممتنع لايكون إلا موجوداً تارة ومعدوماً أخرى،وأن القديم الازلي لايكون إلا ضروريا واجباً يمتنع عدمه. وهذا مما اتفق عليه ارسطو واتباعه حتى ابن سينا،وذكره فى كتبه المشهورة، «كالشفا»[1] وغيره.ثم تناقض فزعم أن الفلك ممكن مع كونه قديماً ازلياً لم يزل ولايزال، وزعم ان الواجب بغيره القديم الازلي الذي يمتنع عدمه يكون

---

١ ـ يسمى كتاب الشفاء فى المنطق لابى على حسين بن عبد الله المعروف بابن سينا المتوفى سنة ٤٢٨ وهو فى ثمانية عشر مجلداً وشرحه أبو عبد الله محمد بن أحمد الأديب التجانى صاحب تحفة العروس،واختصره شمس الدين عبد الحميد بن عيسى (الخسروشاهى) التبريزى المتوفى سنة ٦٥٢هـ.

ممكناً يقبل الوجود والعدم، وزعم ان له ماهية غير وجوده. وقد بسط الكلام على فساد قول هؤلاء وتناقضه فى غير هذا الموضوع.

و «القول الثاني» للناس فى كلام الله تعالى قول من يقول:ان الله لم يقم به صفة من الصفات،لاحياة ولاعلم،ولاقدرة ولا كلام،ولا إرادة ولا رحمة، ولاغضب ولا غير ذلك،بل خلق كلاماً فى غيره فذلك المخلوق هو كلامه، وهذا قول الجهمية والمعتزلة،وهذا القول ايضاً مخالف للكتاب والسنة واجماع السلف،وهو مناقض لاقوال الانبياء ونصوصهم؛وليس مع هؤلاء عن الأنبياء قول يوافق قولهم؛بل لهم شبه عقليه فاسدة،قد بينا فسادها فى غير هذا الموضوع.وهؤلاء زعموا أنهم يقيمون الدليل على حدوث العالم بتلك الحجج، وهم لا للإسلام نصروا، ولا لأعدائه كسروا.

و «القول الثالث» قول من يقول:انه يتكلم بغير مشيئته وقدرته بكلام قائم بذاته أزلا وابداً،وهؤلاء موافقون لمن قبلهم فى اصل قولهم،لكن قالوا الرب تقوم به الصفات،ولا يقوم به مايتعلق بمشيئته وقدرته من الصفات الاختيارية.

وأول من اشتهر عنه انه قال هذا القول فى الإسلام «عبد الله بن سعيد بن كلاب»[1] ثم افترق موافقوه،فمنهم من قال:ذلك الكلام معنى واحد هو الامر بكل مأمور،والنهى عن كل محظور،والخبر عن كل مخبر عنه،إن عبر عنه

---

١ ـ هو عبد الله بن سعيد أبو غانم المتسمى بنصر من زعماء القرامطة كان أول أمره يعلم الصبيان فى قرية تدعى (زابوقة من عمل الفلوجة فى العراق. تسمى بنصر وأغوى بعض القبائل من بطون كلب وقصد بهم إلى الشام واحتل مدينة بصرى وقتل رجالها. قتله بعض رجال قبيلة كلب عام ٢٩٣

بالعربية كان قرآنا ،وان عبر عنه بالعبرية كان توراة.وقالوا معنى القرآن والتوراة والانجيل واحد،ومعنى آية الكرسى هو معنى آية الدين.وقالوا: الأمر والنهى والخبر صفات للكلام لا أنواع له.ومن محققيهم من جعل المعنى يعود إلى الخبر،والخبر يعود إلى العلم.

وجمهور العقلاء يقولون:قول هؤلاء معلوم الفساد بالضرورة،وهؤلاء يقولون تكليمه لموسى ليس إلا خلق ادراك يفهم به موسى ذلك المعنى.فقيل لهم: أفهم كل الكلام ام بعضه؟ان كان فهمه كله فقد علم علم الله،وان كان فهم بعضه فقد تبعض،وعندهم كلام الله لايتبعض ولايتعدد.

وقيل لهم:قد فرق الله بين تكليمه لموسى وايحائه لغيره.وعلى اصلكم لافرق.

وقيل لهم:قد كفر الله من جعل القرآن العربي قول البشر،وقد جعله تارة قول رسول من البشر،وتارة قول رسول من الملائكة،فقال فى موضوع:(انه لقول رسول كريم.وماهو بقول شاعر قليلا ماتؤمنون.ولا بقول كاهن قليلا ماتذكرون)[1] فهذا الرسول محمد صلى الله عليه وسلم وقال فى الآية الأخرى:(انه لقول رسول كريم.ذي قوة عند ذي العرش مكين. مطاع ثم امين)[2] فهذا جبريل، فاضافة تارة إلى الرسول الملكي،وتارة إلى الرسول البشري. والله يصطفي من الملائكة رسلا ومن الناس.

وكان بعض هؤلاء ادعى ان القرآن العربي احدثه جبريل أو محمد فقيل لهم:لو أحدثه احدهما لم يجز إضافته إلى الآخر.وهو سبحانه اضافه إلى كل منهما باسم الرسول الدال على مرسله باسم الملك والنبى فدل ذلك على انه قول

---

١ ـ سورة الحاقة آية رقم ٤٠ ٢ ـ سورة التكوير آية رقم ١٩

رسول بلغه عن مرسله لا قول ملك أو نبى احدثة من تلقاء نفسه،بل قد كفر من قال انه قول البشر.

والطائفة الأخرى التى وافقت ابن كلاب على ان الله لايتكلم بمشيئته وقدرته قالت:بل الكلام القديم هو حروف،أو حروف وأصوات لازمة لذات الرب أزلا وأبداً لايتكلم بها بمشيئته وقدرته، ولايتكلم بها شيئاً بعد شيء. ولم يفرق هؤلاء بين جنس الحروف وجنس الكلام.وبين عين حروف قديمة أزلية،وهذا ايضاً مما يقول جمهور العقلاء انه معلوم الفساد بالضرورة؛فان الحروف المتعاقبة شيئاً بعد شيء يمتنع ان يكون كل منها قديماً أزلياً،وان كان جنسها قديماً؛لامكان وجود كلمات لانهاية لها ،وحروف متعاقبة لانهاية لها ، وامتناع كون كل منها قديماً أزلياً، فان المسبوق بغيره لايكون أزلياً.

وقد فرق بعضهم بين وجودها وماهيتها فقال:الترتيب فى ماهيتها لافى وجودها ،وبطلان هذا القول معلوم بالاضطرار لمن تدبره،فان ماهية الكلام[1] الذي هو حروف لايكون شيئاً بعد شيء،والصوت لايكون إلا شيئاً بعد شيء،فامتنع أن يكون وجود الماهية المعينة أزلياً متقدماً عليها به،مع ان الفرق بينهما بين لو قدر الفرق بينهما ويلزم من هذين الوجهين ان يكون وجودها أيضاً مترتباً ترتيباً متعاقباً.

١- الكلام يقع على الألفاظ المنظومة،وعلى المعانى التى تحتها مجموعة،وعند النحاة يقع على الجزء منه ـ أسماً كان أو فعلاً أو أداة،وعند كثير من المتكلمين لايقع إلا على الجملة المركبة المفيدة، وهو أخص من القول،فإن القول عندهم يقع على المفردات،والكلمة تقع على كل واحد من الأنواع الثلاثة وقوله تعالى:(فتلقى آدم من ربه كلمات) سورة البقرة آية ٣٧ قيل هو قوله:(ربنا ظلمنا أنفسنا) سورة الأعراف آية ٢٣ وقال الحسن:هو قوله:ألم تخلقنى بيدك،ألم تسكنى جنتك،ألم تسجد لى ملائكتك،ألم تسبق رحمتك غضبك أرأيت إن تبت كنت معيدى إلى الجنة..؟قال:نعم.

ثم من هؤلاء من يزعم ان ذلك القديم هو مايسمع من العباد من الاصوات بالقرآن والتوراة والانجيل أو بعض ذلك، وكان أظهر فساداً مما قبله، فانه يعلم بالضرورة حدوث أصوات العباد.

و «طائفة خامسة» قالت:بل الله يتكلم بمشيئته وقدرته بالقران العربي وغيره؛لكن لم يكن يمكنه أن يتكلم بمشيئته فى الأزل لامتناع حوادث لا أول لها،وهؤلاء جعلوا الرب فى الأزل غير قادر على الكلام بمشيئته،ولا على الفعل كما فعله أولئك ثم جعلوا الفعل والكلام ممكنا مقدوراً من غير تجدد شيء أوجب القدرة والامكان،كما قال أولئك فى المفعولات المنفصلة.

واما السلف فقالوا:لم يزل الله متكلما إذا شاء،وان الكلام صفة كمال، ومن يتكلم أكمل ممن لايتكلم،كما ان من يعلم ويقدر أكمل ممن لايعلم ولا يقدر،ومن يتكلم بمشيئته وقدرته اكمل ممن يكون الكلام لازما لذاته،ليس له عليه قدرة ولا له فيه مشيئة،والكمال انما يكون بالصفات القائمة بالموصوف لا بالأمور المباينة له،ولا يكون الموصوف متكلما عالماً قادراً إلا بما يقوم به من الكلام والعلم والقدرة.إذا كان كذلك فمن لم يزل موصوفا بصفات الكمال اكمل ممن حدثت له بعد أن لم يكن متصفاً بها لو كان حدوثها ممكناً،فكيف إذا كان ممتنعاً؟فتبين ان الرب لم يزل ولا يزال موصوفا بصفات الكمال، منعوتاً بنعوت الجلال؛ومن أجلها الكلام.فلم يزل متكلما إذا شاء ولا يزال كذلك،وهو يتكلم إذا شاء بالعربية كما تكلم بالقرآن العربي،وماتكلم الله به فهو قائم به ليس مخلوقاً منفصلا عنه، فلاتكون الحروف التى هي مباني أسماء الله الحسنى وكتبه المنزلة مخلوقة، لان الله تكلم بها.

فصـــل

الخلاف فى الحروف الموجودة فى كلام الناس

ثم تنازع بعض المتأخرين فى الحروف الموجودة فى كلام الآدميين.وسبب نزاعهم أمران.

«احدهما» أنهم لم يفرقوا بين الكلام الذي يتكلم الله به فيسمع منه،وبين ما إذا بلغه عنه مبلغ فسمع من ذلك المبلغ،فان القرآن كلام الله،تكلم به بلفظه ومعناه بصوت نفسه؛فإذا قرأه القراء قرأوه بأصوات أنفسهم.فإذا قال القاريء:(الحمد لله رب العالمين،الرحمن الرحيم)كان هذا الكلام المسموع منه كلام الله لا كلام نفسه،وكان هو قرأه بصوت نفسه لابصوت الله،فالكلام كلام الباري،والصوت صوت القارىء،كما قال النبى صلى الله عليه وسلم «زينوا القرآن بأصواتكم»[1] وكان يقول:«ألا رجل يحملني إلى قومه لأبلغ كلام ربي؟فان قريشا قد منعونى أن أبلغ كلام ربي»[2] وكلا الحديثين ثابت،فبين ان الكلام الذى يبلغه كلام ربه، وبين ان القارىء يقرأه بصوت

---

١ ـ الحديث أخرجه الامام البخارى فى كتاب التوحيد ٥٢ باب قول النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ الماهر بالقرآن مع السفرة الكرام البررة وذكره.وابن ماجة فى الاقامة ١٧٦ والدارمى فى فضائل القرآن ٣٤ واحمد بن حنبل فى المسند ٤:٢٨٣ ـ ٢٨٥ ـ ٢٩٦ (حلبى)

٢- الحديث أخرجه الترمذى فى فضائل القرآن ٢٩٢٥ ـ حدثنا محمد بن كثير اخبرنا اسرائيل، حدثنا عثمان بن المغيرة عن سالم بن ابى الجعد عن جابر قال:وذكره وقال الترمذى:هذا حديث حسن غريب صحيح واخرجه أبو داود فى السنة ٢٠ وابن ماجة فى المقدمة ١٣ والدرامى فى فضائل القرآن ٥ واحمد بن حنبل فى المسند ٣:٣٢٢ (حلبى).

يقرأه بصوت نفسه،وقال صلى الله عليه وسلم: «ليس منا من لم يتغن بالقرآن»[1] قال أحمد والشافعي وغيرهما:هو تحسينه بالصوت.قال احمد بن حنبل:يحسنه بصوته، فبين أحمد أن القارىء يحسن القرآن بصوت نفسه.

و «السبب الثانى» أن السلف قالوا:القرآن كلام الله منزل غير مخلوق، وقالوا لم يزل متكلما إذا شاء. فبينوا أن كلام الله قديم أي جنسه قديم لم يزل، ولم يقل أحد منهم إن نفس الكلام المعين قديم، ولا قال أحد منهم القرآن قديم؛ بل قالوا:ان كلام الله منزل غير مخلوق،وإذا كان الله قد تكلم بالقرآن بمشيئته كان القرآن كلامه،وكان منزلا منه غير مخلوق،ولم يكن مع ذلك أزلياً قديما بقدم الله وإن كان الله لم يزل متكلما إذا شاء،فجنس كلامه قديم،فمن فهم قول السلف وفرق بين هذه الأقوال زالت عنه الشبهات في هذه المسائل المعضلة التى اضطرب فيها أهل الأرض.

فمن قال ان حروف المعجم كلها مخلوقة وان كلام الله تعالى [مخلوق فقد قال قولا] مخالفاً للمعقول الصريح،والمنقول الصحيح،ومن قال نفس أصوات العباد أو مدادهم أو شيئاً من ذلك قديم فقد خالف ايضا أقوال السلف،وكان فساد قوله ظاهراً لكل أحد،وكان مبتدعا قولا لم يقله أحد من أئمة المسلمين،ولا قالته طائفة كبيرة من طوائف المسلمين،بل الأئمة الأربعة وجمهور أصحابهم بريئون من ذلك. ومن قال إن الحرف المعين أو الكلمة المعينة قديمة العين،فقد ابتدع قولا باطلا فى الشرع والعقل.

ومن قال:ان جنس الحروف التى تكلم الله بها بالقرآن وغيره ليست

---

١ - الحديث أخرجه البخارى فى كتاب التوحيد ٧٥٢٧ حدثنا أبو عاصم أخبرنا ابن جريج أخبرنا ابن شهاب عن ابى سلمة، عن ابى هريرة قال:قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وذكره.وأخرجه أبو داود فى الوتر ٢٠ والدرامى فى الصلاة ١٧١ وفضائل القرآن ٣٤ واحمد بن حنبل فى المسند ١:١٧٢-١٧٥ (حلبى).

مخلوقة،وان الكلام العربى الذي تكلم به ليس مخلوقا، والحروف المنتظمة منه جزء منه ولازمة له وقد تكلم الله بها فلا تكون مخلوقة فقد أصاب.

وإذا قال ان الله هدى عباده وعلمهم البيان، فانطقهم بها باللغات المختلفة،وأنعم عليهم بان جعلهم ينطقون بالحروف التى هي مبانى كتبه وكلامه وأسمائه فهذا قد أصاب،فالإنسان وجميع مايقوم به من الاصوات والحركات وغيرها مخلوق كائن بعد ان لم يكن، والرب تعالى بما يقوم به من صفاته وكلماته وأفعاله غير مخلوق،والعباد إذا قرأوا كلامه فان كلامه الذي يقرؤنه هو كلامه لا كلام غيره، وكلامه الذي تكلم به لا يكون مخلوقا، وكان مايقرؤن به كلامه من حركاتهم وأصواتهم مخلوقا ،وكذلك مايكتب فى المصاحف من كلامه فهو كلامه مكتوبا فى المصاحف وكلامه غير مخلوق، والمداد الذي يكتب به كلامه وغير كلامه مخلوق.

وقد فرق سبحانه وتعالى بين كلامه وبين مداد كلماته بقوله تعالى:(قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربى لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربى ولو جئنا بمثله مدداً)[1] وكلمات الله غير مخلوقة، والمداد الذي يكتب به كلمات الله مخلوق، والقرآن المكتوب فى المصاحف غير مخلوق، وكذلك المكتوب فى اللوح المحفوظ وغيره، قال تعالى:(بل هو قرآن مجيد فى لوح محفوظ)[2] وقال:(كلا إنها تذكرة،فمن شاء ذكره. في صحف مكرمة.مرفوعة مطهرة)[3] وقال تعالى:(يتلو صحفا مطهرة.فيها كتب قيمة)[4] وقال:(انه لقرآن كريم.فى كتاب مكنون.لايمسه إلا المطهرون)[5].

---

١ ـ سورة الكهف آية رقم ١٠٩
٢ ـ سورة البروج آية رقم ٢٢
٣ ـ سورة عبس آية رقم ١١ - ١٤
٤ ـ سورة البينة آية رقم ٢ ـ ٣
٥ ـ سورة الواقعة آية رقم ٧٧ - ٧٩.

فصــل

فــى التنــازع فــى الاحــرف
التى أنزلها الله على آدم

فهذان المتنازعان اللذان تنازعا فى «الاحرف التى أنزلها الله على آدم» فقال أحدهما: انها قديمة وليس لها مبتدأ، وشكلها ونقطها محدث. وقال الآخر: انها ليست بكلام الله، وانها مخلوقة بشكلها ونقطها، وان القديم هو الله، وكلامه منه بدأ واليه يعود منزل غير مخلوق، ولكنه كتب بها. وسؤالهما ان نبين لهما الصواب وأيهما أصح اعتقاداً، يقال لهما: يحتاج بيان الصواب إلى بيان مافى السؤال من الكلام المجمل، فإن كثيراً من نزاع العقلاء لكونهم لايتصورون مورد النزاع تصوراً بينا، وكثيراً من النزاع قد يكون الصواب فيه فى قول آخر غير القولين الذين قالاهما، وكثير من النزاع قد يكون مبنياً على أصل ضعيف إذا بين فساده ارتفع النزاع.

فأول مافى هذا السؤال قولهما: الأحرف التى انزلها الله على آدم، فانه قد ذكر بعضهم ان الله انزل عليه حروف المعجم مفرقة مكتوبة، وهذا ذكره ابن قتيبة فى المعارف[1]، وهو ومثله يوجد فى التواريخ كتاريخ ابن جرير الطبري ونحوه[2]، وهذا ونحوه منقول عمن ينقل الاحاديث الاسرائيلية

١- يسمى كتاب المعارف فى التاريخ لابن قتيبة أبى محمد عبد الله ابن مسلم الدينورى المتوفى سنة ٢٦٧ هـ.

٢ - يسمى تاريخ الرسل والملوك لأبى جعفر محمد بن جرير الطبرى قام بتحقيقه الاستاذ محمد أبو الفضل ابراهيم وقامت بطبعه ونشره دار المعارف بمصر.

ونحوها من أحاديث الأنبياء المتقدمين،مثل وهب بن منبه وكعب الاحبار، ومالك بن دينار،ومحمد بن اسحاق وغيرهم.

وقد أجمع المسلمون على أن ماينقله هؤلاء عن الأنبياء المتقدمين لايجوز أن يجعل عمدة فى دين المسلمين إلا إذا ثبت ذلك بنقل متواتر،أو ان يكون منقولا عن خاتم المرسلين،وأيضا فهذا النقل قد عارضه نقل آخر وهو:«ان أول من خط وخاط ادريس». ،فهذا منقول عن بعض السلف وهو مثل ذلك وأقوى،فقد ذكروا فيه ان ادريس أول من خاط الثياب وخط بالقلم: وعلى هذا فبنوا آدم من قبل ادريس لم يكونوا يكتبون بالقلم ولايقرؤن كتباً.والذي فى حديث أبي ذر المعروف عن ابى ذر عن النبى صلى الله عليه وسلم:«ان آدم كان نبياً مكلما كلمة الله قبلا» وليس فيه أنه أنزل عليه شيئاً مكتوباً،فليس فيه ان الله أنزل على آدم صحيفة ولا كتابا،ولا هذا معروف عند أهل الكتاب،فهذا يدل على أن هذا لا أصل له،ولو كان هذا معروفا عند اهل الكتاب لكان هذا النقل ليس هو فى القرآن،ولا فى الأحاديث الصحيحة عن النبى صلى الله عليه وسلم وانما هو من جنس الاحاديث الاسرائيلية التى لايجب الايمان بها؛بل ولا يجوز التصديق بصحتها إلا بحجة،كما قال النى صلى الله عليه وسلم في الحديث الصحيح «إذا حدثكم أهل الكتاب فلا تصدقوهم ولا تكذبوهم؛فاما أن يحدثوكم بحق فتكذبوه واما أن يحدثوكم بباطل فتصدقوه».[1]

١- الحديث أخرجه الامام البخاري فى كتابه الاعتصام ٧٣٦٢ عن يحيى بن أبى كثير عن أبى سلمة، عن أبى هريرة - رضى الله عنه - قال: وذكره، واخرجه أيضاً فى كتاب الشهادات ٣٩ والتفسير ١١:٢ والتوحيد ٥١ واحمد بن حنبل فى المسند ١٣٦:٤ (حلبى).

والله سبحانه علم آدم الاسماء كلها ،وانطقه بالكلام المنظوم.وأما تعليم حروف مقطعة لاسيما إذا كانت مكتوبة فهو تعليم لاينفع،ولكن لما أرادوا تعليم المبتدىء بالخط صاروا يعلمونه الحروف المفردة حروف الهجاء،ثم يعلمونه تركيب بعضها إلى بعض،فيعلم أبجد هوز،وليس هذا وحده كلاماً.

فهذا المنقول عن آدم من نزول حروف الهجاء عليه لم يثبت به نقل،ولم يدل عليه عقل؛بل الأظهر فى كليهما نفيه،وهو من جنس مايروونه عن النبى صلى الله عليه وسلم من تفسير أ،ب،ت،ث، وتفسير أبجد،هوز،حطي، ويروونه عن المسيح أنه قاله لمعلمه في الكتاب،وهذا كله من الأحاديث الواهية بل المكذوبة. ولايجوز باتفاق أهل العلم بالنقل أن يحتج بشيء من هذه،وإن كان قد ذكرها طائفة من المصنفين فى هذا الباب،كالشريف المزيدي، والشيخ أبى الفرج،وابنه عبد الوهاب وغيرهم.وقد يذكر ذلك طائفة من المفسرين والمؤرخين،فهذا كله عند أهل العلم بهذا الباب باطل لايعتمد عليه فى شيء من الدين.

وهذا وإن كان قد ذكره أبو بكر النقاش وغيره من المفسرين وعن النقاش ونحوه نقله الشريف المزيديى الحرانى وغيره[1] فأجل من ذكر ذلك من المفسرين أبو جعفر محمد بن جرير الطبري،وقد بين في تفسيره ان كل مانقل فى ذلك عن النبى صلى الله عليه وسلم فهو باطل.فذكر فى آخر تفسيره اختلاف الناس فى تفسير أبجد،هوز،حطي،وذكر حديثاً رواه من طريق محمد بن زياد الجزري،عن فرات بن أبى الفرات،عن معاوية بن قرة

١- فى هذا التركيب نظر، والمعنى:أن هذا ان كان النقاش والمزيدى وابو الفرج وابنه قد ذكروه وسكتوا عليه فابن جرير قد ذكره وصرح ببطلانه وهو اجل منهم.

عن أبيه قال:قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «تعلموا أباجاد وتفسيرها، ويل لعالم جهل تفسير أبي جاد » قال:قالوا يارسول الله وما تفسيرها؟قال؟ « أما الألف فآلاء الله وحرف من اسمائه.وأما الباء فبهاء الله،وأما الجيم فجلال الله،وأما الدال فدين الله،وأما الهاء فالهاوية،وأما الواو فويل لمن سها،وأما الزاي فالزاوية وأما الحاء فحطوط الخطايا،عن المستغفرين بالاسحار» وذكر تمام الحديث من هذا الجنس.

وذكر حديثاً ثانياً من حديث عبد الرحيم بن واقد حدثني الفرات ابن السائب عن ميمون بن مهران عن ابن عباس قال:«ليس شيء إلا وله سبب، وليس كل أحد يفطن له ولا بلغه ذلك، ان لأبي جاد حديثا عجيباً،أما «أبو جاد» فأبى آدم الطاعة وجد فى اكل الشجرة،وأما «هوز» فزل آدم فهوى من السماء إلى الأرض، وأما «حطي» فحطت عنه خطيئته،وأما «فأكله من الشجرة ومن عليه بالتوبة» وساق تمام الحديث من هذا الجنس.

وذكر حديثاً ثالثا من حديث اسماعيل بن عياش عن اسماعيل بن يحيى عن ابن أبى مليكة عمن حدثه عن ابن مسعود ومسعر بن كدام عن أبى سعيد قال:قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:«ان عيسى بن مريم أسلمته أمه إلى الكتاب ليعلمه، فقال له المعلم:اكتب بسم الله،فقال له عيسى، ومابسم الله؟فقال له المعلم ومادري.فقال له عيسى الباء بهاء الله،والسين سناؤه،والميم ملكه،والله إله الآلهة،والرحمن رحمن الدنيا والآخرة،والرحيم رحيم الآخرة.ابو جاد:الف آلاء الله،وباء بهاء الله،وجيم جمال الله،ودال الله الدائم،وهوز هاء الهاوية» وذكر حديثا من هذا الجنس،وذكره عن الربيع بن أنس موقوفا عليه.وروى أبو الفرج المقدسيى عن الشريف المزيدي حديثا عن عمر عن النبى صلى الله عليه وسلم فى تفسير: ا،ب،ت،ث من هذا الجنس.

ثم قال ابن جرير:ولو كانت الأخبار التى رويت عن النبى صلى الله عليه وسلم فى ذلك صحاح الأسانيد لم يعد عن القول بها إلى غيرها ولكنها واهية الأسانيد غير جائز الاحتياج بمثلها؟[1] وذلك أن محمد بن زياد الجزري الذي حدث حديث معاوية بن قرة عن فرات عنه غير موثوق بنقله، وإن عبد الرحمن بن واقد الذي خالفه فى رواية ذلك عن الفرات مجهول غير معروف عند أهل النقل،وإن اسماعيل بن يحيى الذي حدث عن ابن أبى مُليكة غير موثوق بروايته ولا جائز عند أهل النقل الاختجاج بأخباره.

قلت:اسماعيل بن يحيى هذا يقال له التيمي كوفي معروف بالكذب، ورواية اسماعيل بن عياش فى غير الشاميين لايحتج بها،بل هو ضعيف فيما ينقله عن أهل الحجاز وأهل العراق،بخلاف ماينقله عن شيوخه الشاميين؛فانه حافظ لحديث أهل العلم بالرجال،وعبد الرحمن بن واقد لايحتج به باتفاق أهل العلم،وفرات بن السائب ضعيف أيضاً لا يحتج به فهو فرات بن أبى الفرات،ومحمد بن زياد الجزري ضعيف أيضاً.

وقد تنازع الناس فى أبجد،هوز،حطي،فقال طائفة هي أسماء قوم،قيل أسماء ملوك مدين،أو أسماء قوم كانوا ملوكا جبابرة.وقيل:هي أسماء الستة الايام التى خلق فيها الدنيا. الأول اختيار الطبري. وزعم هؤلاء أن أصلها أو جاد مثل أبى عاد، وهواز مثل رواد وجواب. وانها لم تعرب لعدم العقد والتركيب.

---

١ - راجع ماكتبه الامام الطبرى عن هذا الموضوع فى مقدمة كتابه النفيس «التفسير» ط دار المعارف بمصر تحقيق الشيخ أحمد شاكر وأخيه محمود شاكر.

والصواب: أن هذه ليست أسماء لمسميات، وإنما ألفت ليعرف تأليف الأسماء من حروف المعجم بعد معرفة حروف المعجم، ولفظها: أبجد، هوز، حطي، ليس لفظها ابو جاد، هواز، ثم كثير من أهل الحساب صاروا يجعلونها علامات على مراتب العدد، فيجعلون الألف واحداً، والباء اثنين، والجيم ثلاثة، إلى الياء ثم يقولون الكاف عشرون... وآخرون من أهل الهندسة والمنطق يجعلونها علامات على الخطوط المكتوبة، أو على ألفاظ الأقيسة المؤلفة كما يقولون: كل ألف ب، وكل ب ج، فكل ألف ج. ومثلوا بهذه لكونها ألفاظاً تدل على صورة الشكل، والقياس لا يختص بمادة دون مادة.

كما جعل أهل التصريف لفظ «فعل» تقابل الحروف الأصلية، والزائدة ينطقون بها. ويقولون: وزن استخراج «استفعل» وأهل العروض يزنون بألفاظ مؤلفة من ذلك؛ لكن يراعون الوزن من غير اعتبار بالأصل، والزائد؛ ولهذا سئل بعض هؤلاء عن وزن نكتل فقال نفقل، وضحك منه أهل التصريف. ووزنه عندهم نفتل فان أصله نكتال، وأصل نكتال نكتيل: تحركت الياء وانفتح ماقبلها فقلبت الفا، ثم لما جزم الفعل سقطت، كما نقول مثل ذلك فى نعتد ونقتد من اعتاد يعتاد واقتاد البعير يقتاده. ونحو ذلك فى نقتيل، فلما حذفوا الألف التى تسمى لام الكلمة صار وزنها.

وجعلت «ثمانية» تكون متحركة: وهي الهمزة، وتكون ساكنة وهي حرفان على الاصطلاح الأول، وحرف واحد على الثاني، والألف تقرن بالواو والياء لأنهن حروف العلة، ولهذا ذكرت فى آخر حروف المعجم، ونطقوا بأول لفظ كل حرف منها إلا الألف فلم يمكنهم أن ينطقوا بها ابتداء، فجعلوا اللام قبلها فقالوا: «لآ» والتى فى الأول هي الهمزة المتحركة، فإن الهمزة فى أولها.

وبعض الناس ينطق بها «لام ألف» والصواب أن ينطق بها «لا» وبسط هذا له موضع آخر.

والمقصود هنا: أن العلم لابد فيه من نقل مصدق ونظر محقق. وأما النقول الضعيفة لاسيما المكذوبة فلا يعتمد عليها. وكذلك النظريات الفاسدة، والعقليات الجهلية الباطلة لايحتج بها.

(الثانى) أن يقال: هذه الحروف الموجودة فى القرآن العربي قد تكلم الله بها بأسماء حروف، مثل قوله: (الم وقوله المص وقوله الم طس - حم - كهيعص - حم عسق - ن - ق) فهذا كله كلام الله غير مخلوق.

(الثالث) أن هذه الحروف إذا وجدت فى كلام العباد، وكذلك الاسماء الموجودة في القرآن إذا وجدت فى كلام العباد مثل آدم، ونوح، ومحمد، وابراهيم وغير ذلك، فيقال: هذه الاسماء وهذه الحروف قد تكلم الله بها؛ لكن لم يتكلم بها مفردة، فان الاسم وحده ليس بكلام؛ ولكن تكلم بها فى كلامه الذي أنزله فى مثل قوله (محمد رسول الله)[1] وقوله: (وإذ قال إبراهيم رب اجعل هذا البلد آمنا)[2] إلى قوله: (رب اجعلنى مقيم الصلاة ومن ذريتى)[3] وقوله: (ان الله اصطفى آدم ونوحا وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين)[4] ونحو ذلك، ونحن إذا تكلمنا بكلام ذكرنا فيه هذه الاسماء، فكلامنا مخلوق وحروف كلامنا مخلوقة، كما قال احمد بن حنبل لرجل: ألست مخلوقا؟ قال: بلى، قال: أليس كلامك منك؟ قال: بلى، قال: أليس

---

١ - سورة الفتح آية رقم ٢٩

٢ - سورة إبراهيم آية رقم ٣٥

٣ - سورة إبراهيم آية رقم ٤٠

٤ - سورة آل عمران آية رقم ٣٣

كلامك مخلوقا ؟قال:بلى،قال:فالله تعالى غير مخلوق،وكلامه منه ليس بمخلوق.

فقد نص احمد وغيره على ان الكلام مخلوق،وهم إنما يتكلمون بالأسماء والحروف التى يوجد نظيرها فى كلام الله تعالى،لكن الله تعالى تكلم بها بصوت نفسه وحروف نفسه وذلك غير مخلوق،وصفات الله تعالى لا تماثل صفات العباد؛فان الله تعالى ليس كمثله شيء لا فى ذاته، ولا صفاته،ولا أفعاله،والصوت الذي ينادي به عباده يوم القيامة والصوت الذي سمعه منه موسى ليس كاصوات شيء من المخلوقات،والصوت المسموع هو حروف مؤلفة وتلك لا يماثلها شيء من صفات المخلوقين،كما أن علم الله القائم بذاته ليس مثل علم عباده،فان الله لايماثل المخلوقين فى شيء من الصفات،وهو سبحانه قد علم العباد من علمه ماشاء،كما قال تعالى:(ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء)[1] وهم إذا علمهم الله ماعلمهم من علمه،فنفس علمه الذي اتصف به ليس مخلوقا،ونفس العباد وصفاتهم مخلوقة،لكن قد ينظر الناظر إلى مسمى العلم مطلقاً،فلا يقال:ان ذلك العلم مخلوق لاتصاف الرب به،وان كان مايتصف به العبد مخلوقا.

واصل هذا ان مايوصف الله به ويوصف به العباد يوصف الله به على ما يليق به،ويوصف به العباد بما يليق بهم من ذلك؛مثل الحياة والعلم والقدرة، والسمع والبصر والكلام،فان الله له حياة وعلم وقدرة،وسمع وبصر وكلام. فكلامه يشتمل على حروف وهو يتكلم بصوت نفسه،والعبد له حياة وعلم

---

١ ـ سورة البقرة آية رقم ٢٥٥

وقدرة،وسمع وبصر وكلام،وكلام العبد يشتمل على حروف وهو يتكلم بصوت نفسه.

فهذه الصفات لها ثلاث اعتبارات:تارة تعتبر مضافة إلى الرب.وتارة تعتبر مضافة إلى العبد،وتارة تعتبر مطلقة لاتختص بالرب ولا بالعبد.فإذا قال العبد:حياة الله وعلم الله وقدرة الله وكلام الله ونحو ذلك،فهذا كله غير مخلوق ولا يماثل صفات المخلوقين،وإذا قال علم العبد وقدرة العبد وكلام العبد،فهذا كله مخلوق ولا يماثل صفات الرب.وإذا قال العلم والقدرة والكلام،.فهذا مجمل مطلق لايقال عليه كله انه مخلوق،ولا انه غير مخلوق، بل ماااتصف به الرب من ذلك فهو غير مخلوق وما اتصف به العبد من ذلك فهو مخلوق فالصفة تتبع الموصوف.فإن كان الموصوف هو الخالق فصفاته غير مخلوقة وان كان الموصوف هو العبد المخلوق فصفاته مخلوقة.

ثم إذا قرأ بام القرآن وغيرها من كلام الله فالقرآن فى نفسه كلام الله غير مخلوق،وإن كان حركات العباد واصواتهم مخلوقة.ولو قال الجنب: (الحمد لله رب العالمين) ينوي به القرآن منع من ذلك وكان قرآنا،ولو قاله ينوي به حمد الله لا يقصد به القراءة لم يكن قارئاً وجاز له ذلك.

ومنه قول النبى صلى الله عليه وسلم:«افضل الكلام بعد القرآن اربع وهن من القرآن:سبحان الله،والحمد لله،ولا إله إلا الله،والله اكبر» رواه مسلم فى صحيحه[1].فاخبر انها أفضل الكلام بعد القرآن وقال هي من

١- الحديث ذكره البخارى فى كتاب الايمان والنذور ١٩ قال النبى- صلى الله عليه وسلم - وذكره،وأخرجه ابن ماجة فى كتاب الآداب ٣٨١١ بسنده عن هلال بن يساف عن سمرة بن جندب عن النبى - صلى الله عليه وسلم - وذكره.وأحمد بن حنبل فى المسند ٥:١٠.١١.٢٠.٢١ (حلبى)

القرآن،فهي من القرآن باعتبار،وليست من القرآن باعتبار،ولو قال القائل:(يايحيى خذ الكتاب) ومقصوده القرآن كان قد تكلم بكلام الله ولم تبطل صلاته باتفاق العلماء، وان قصد مع ذلك تنبيه غيره لم تبطل صلاته عند جمهور العلماء. ولو قال لرجل اسمه يحيى وبحضرته كتاب: يايحيى خذ الكتاب لكان هذا مخلوقا؛ لأن لفظ يحيى هنا مراد به ذلك الشخص، وبالكتاب ذلك الكتاب ليس مراداً به ما اراده الله بقوله:(يايحيى خذ الكتاب)[1] والكلام كلام [المخلوق] بلفظه ومعناه.

وقد تنازع الناس في مسمى «الكلام» في الأصل، فقيل:هو اسم اللفظ الدال على المعنى،وقيل:المعنى المدلول عليه باللفظ،وقيل:لكل منهما بطريق الاشتراك اللفظي،وقيل:بل هو اسم عام لهما جميعاً يتناولهما عند الاطلاق، وان كان مع التقييد يراد به هذا تارة وهذا تارة.هذا قول السلف وأئمة الفقهاء وان كان هذا القول لايعرف في كثير من الكتب.

وهذا كما تنازع الناس في مسمى «الانسان» هل هو الروح فقط أو الجسد فقط؟والصحيح انه اسم للروح والجسد جميعاً،وان كان مع القرينة قد يراد به هذا تارة وهذا تارة،فتنازعهم في مسمى النطق كتنازعهم في مسمى الناطق.فمن سمى شخصاً محمداً وابراهيم،وقال:جاء محمد وجاء إبراهيم لم يكن هذا محمد وابراهيم المذكورين في القرآن.ولو قال:محمد رسول الله، وابراهيم خليل الله.يعني به خاتم الرسل وخليل الرحمن لكان قد تكلم بمحمد وابراهيم الذي في القرآن،لكن قد تكلم بالاسم والفه كلاما فهو كلامه لم يتكلم به في القرآن،العربي الذي تكلم الله به

---

١ - سورة مريم آية رقم ١٢

ومما يوضح ذلك ان الفقهاء قالوا في «آداب الخلاء» انه لايستصحب مافيه ذكر الله،واحتجوا بالحديث الذي في السنن «ان النبى صلى الله عليه وسلم كان إذا دخل الخلاء نزع خاتمه.وكان خاتمه مكتوبا عليه «محمد رسول الله»[1] محمد سطر،رسول سطر،الله سطر.ولم يمنع أحد من العلماء ان يستصحب مايكون فيه كلام العباد وحروف الهجاء مثل ورق الحساب الذي يكتب فيه أهل الديوان الحساب،ومثل الأوراق التى يكتب فيها الباعة مايبيعونه ونحو ذلك.

وفى السيرة «ان النبى صلى الله عليه وسلم لما صالح غطفان على نصف تمر المدينة أتاه سعد فقال له:أهذا شيء أمر الله به فسمعا وطاعة،أم شيء تفعله لمصلحتنا؟فبين له النبى صلى الله عليه وسلم انه لم يفعل ذلك بوحي بل فعله باجتهاده فقال:لقد كنا فى الجاهلية وما كانوا يأكلون منها تمرة إلا بقرى أو بشراء،فلما اعزنا الله بالإسلام يريدون ان يأكلوا تمرنا لا يأكلون تمرة واحدة، وبصق سعد فى الصحيفة وقطعها» فاقره النبى صلى الله عليه وسلم على ذلك ولم يقل هذه حروف فلا يجوز اهانتها والبصاق فيها.وأيضاً فقد كره السلف محو القرآن بالرجل ولم يكرهوا محو مافيه كلام الآدميين.

وأما قول القائل:ان الحروف قديمة أو حروف المعجم قديمة فإن أراد جنسها فهذا صحيح،وإن أراد الحرف المعين فقد اخطأ،فان له مبدأ ومنتهى،وهو مسبوق بغيره،وما كان كذلك لم يكن إلا محدثاً.

١- الحديث أخرجه الترمذى فى كتاب اللباس ١٧٤٦ بسنده عن الزهرى عن أنس قال:كان رسول الله صلى الله عليه وسلم - وذكره قال الترمذى:هذا حديث حسن غريب وأخرجه أبو داود فى الطهارة ١٠ والنسائى فى الزينة ٥٣ وابن ماجة فى كتاب الطهارة ٣٠٣ - عن ابن جريج عن الزهرى عن أنس بن مالك وأحمد بن حنبل فى المسند ٢:٣١١، ٤٥٤، ٣:٩٩، ١٠١، ٢٨٢ (حلبى).

وأيضا فلفظ الحروف مجمل،يراد بالحروف الحروف المنطوقة المسموعة التى هي مبانى الكلام،ويراد بها الحروف المكتوبة،ويراد بها الحروف المتخيلة فى النفس،والصوت لا يكون كلاما إلا بالحروف باتفاق الناس.وأما الحروف فهل تكون كلاما بدون الصوت؟فيه نزاع.والحرف قد يراد به الصوت المقطع، وقد يراد به نهاية الصوت وحده،وقد يراد بالحروف المداد،وقد يراد بالحروف شكل المداد،فالحروف التى تكلم الله بها غير مخلوقة،وإذا كتبت فى المصحف قيل كلام الله المكتوب فى المصحف غير مخلوق،وأما نفس أصوات العباد فمخلوقة والمداد مخلوق وشكل المداد مخلوق،فالمداد مخلوق بمادته وصورته، وكلام الله المكتوب بالمداد غير مخلوق.ومن كلام الله الحروف التى تكلم الله بها،فإذا كتبت بالمداد لم تكن مخلوقة وكان المداد مخلوقا.وأشكال الحروف المكتوبة مما يختلف فيها اصطلاح الامم.

والخط العربى قد قيل ان مبدأه كان من الانبار،ومنها انتقل إلى مكة وغيرها، والخط العربي تختلف صورته:العربى القديم فيه تكوف،وقد اصطلح المتأخرون على تغيير بعض صوره،وأهل المغرب لهم اصطلاح ثالث حتى فى نقط الحروف وترتيبها،وكلام الله المكتوب بهذه الخطوط كالقرآن العربى هو فى نفسه لايختلف باختلاف الخطوط التى يكتب بها.

فان قيل:فالحرف من حيث هو مخلوق أو غير مخلوق مع قطع النظر عن كونه فى كلام الخالق أو كلام المخلوق؟فان قلتم هو من حيث هو غير مخلوق لزم أن يكون غير مخلوق فى كلام العباد،وان قلتم مخلوق لزم ان يكون مخلوقا فى كلام الله؟قيل:قول القائل الحرف من حيث هو هو كقوله الكلام من حيث هو هو،والعلم من حيث هو هو، والقدرة من حيث هي هي،والوجود من حيث هو هو، ونحو ذلك.

والجواب عن ذلك ان هذه الأمور وغيرها إذا أخذت مجردة مطلقة غير مقيدة ولا مشخصة لم يكن لها حقيقة فى الخارج عن الاذهان إلا شيء معين.فليس ثم وجود إلا وجود الخالق او وجود المخلوق،ووجود كل مخلوق مختص به وان كان اسم الوجود عاما يتناول ذلك كله،وكذلك العلم والقدرة اسم عام يتناول افراد ذلك، وليس فى الخارج الا علم الخالق وعلم المخلوق، وعلم كل مخلوق مختص به قائم به،واسم الكلام والحروف يعم كل مايتناوله لفظ الكلام والحروف وليس فى الخارج إلا كلام الخالق وكلام المخلوقين.وكلام كل مخلوق مختص به واسم الكلام يعم كل مايتناوله هذا اللفظ.وليس فى الخارج إلا الحروف التى تكلم الله بها الموجودة فى كلام الخالق،والحروف الموجودة فى كلام المخلوقين.فإذا قيل:ان علم الرب وقدرته وكلامه غير مخلوق وحروف كلامه غير مخلوقة.

وأيضا فلفظ الحرف يتناول الحرف المنطوق والحرف المكتوب، وإذا قيل:ان الله تكلم بالحروف المنطوقة كما تكلم بالقرآن العربي وبقوله: (الم - وحم - وطسم - وطس - ويس - وق - ون) ونحو ذلك فهذا كلامه وكلامه غير مخلوق، وإذا كتب فى المصاحف كان ما كتب من كلام الرب غير مخلوق وان كان المداد وشكله مخلوقا.

و«أيضا» فإذا قرأ الناس كلام الله فالكلام في نفسه غير مخلوق إذا كان الله قد تكلم به،وإذا قرأه المبلغ لم يخرج عن أن يكون كلام الله؛فإن الكلام كلام من قاله مبتدئا امراً يأمر به،أو خبراً يخبره،ليس هو كلام المبلغ له عن غيره؛إذ ليس على الرسول إلا البلاغ المبين.وإذا قرأه المبلغ فقد يشار إليه من حيث هو كلام الله فيقال هذا كلام الله مع قطع النظر عما بلغه به العباد من صفاتهم، وقد يشار إلى نفس صفة العبد كحركته وحياته، وقد يشار

إليهما ،فالمشار إليه الأول غير مخلوق،والمشار إليه الثاني مخلوق،والمشار إليه الثالث فمنه مخلوق ومنه غير مخلوق،وما يوجد فى كلام الآدميين من نظير هذا هو نظير صفة العبد لا نظير صفة الرب أبداً.

وإذا قال القائل القاف فى قوله (أقم الصلاة لذكري)[1] كالقاف فى قوله:

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل[2]

قيل:ماتكلم الله به وسمع منه لا يماثل صفة المخلوقين، ولكن إذا بلغنا كلام الله فانما بلغناه بصفاتنا وصفاتنا مخلوقة،والمخلوق يماثل المخلوق.

وفى هذا جواب للطائفتين لمن قاس صفة المخلوق بصفة الخالق فجعلها غير مخلوقة،فان الجهمية المعطلة أشباه اليهود ،والحلولية الممثلة أشباه النصارى دخلوا فى هذا وهذا،أولئك مثلوا الخالق بالمخلوق فوصفوه بالنقائص التى تختص بالمخلوق:كالفقر والبخل، وهؤلاء مثلوا المخلوق بالخالق فوصفوه بخصائص الربوبية التى لاتصلح إلا لله،والمسلمون يصفون الله بما وصف به نفسه،وبما وصفته به رسله،من غير تحريف ولاتعطيل،ومن غير تكييف ولاتمثيل،بل يثبتون له مايستحقه من صفات الكمال،وينزهونه عن الاكفاء والأمثال،فلا يعطلون الصفات ولا يمثلونها بصفات المخلوقات؛

١- سورة طه آية رقم ١٤

٢- البيت للشاعر امرىء القيس وهو من معلقته وصدر البيت هذا وعجزة:

بسقط اللوى بين الدخول فحومل

وسقط اللوى:منقطع الرمل، والدخول وحومل:قيل إنهما موضعان فى شرق اليمامة.

فان المعطل يعبد عدما،والممثل يعبد صنماً،والله تعالى:(ليس كمثله شيء وهو السميع البصير)[1].

ومما ينبغي أن يعرف أن كلام المتكلم فى نفسه واحد،وإذا بلغه المبلغون تختلف أصواتهم به، فإذا أنشد المنشد قول لبيد:

* ألا كل شيء ما خلا الله باطل *[2]

كان هذا الكلام كلام لبيد لفظه ومعناه،مع أن أصوات المنشدين له تختلف،وتلك الأصوات ليست صوت لبيد،وكذلك من روى حديث النبى صلى الله عليه وسلم بلفظه،كقوله:«إنما الأعمال بالنيات،وإنما لكل امرىء مانوى»[3] كان هذا الكلام كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم لفظه ومعناه،ويقال لمن رواه: أدى الحديث بلفظه.وإن كان صوت المبلغ ليس هو صوت الرسول،فالقرآن أولى أن يكون كلام الله لفظه ومعناه، وإذا قرأه القراء فانما يقرؤونه بأصواتهم.

ولهذا كان الامام أحمد بن حنبل وغيره من أئمة السنة يقولون:من قال اللفظ بالقرآن أو لفظى بالقرآن مخلوق فهو جهمي،ومن قال إنه غير مخلوق

---

١ ـ سورة الشورى آية رقم ١١

٢ ـ البيت قاله لبيد بن ربيعه العامري الصحابي: وعجزه

وكل نعيم لا محالة زائل

والبيت من شواهد النحاة والشاهد فيه قوله (ماخلا الله) حيث ورد بنصب لفظ الجلالة بعد (ماخلا) فدل ذلك عن أن الاسم الواقع بعد ماخلا يكون منصوباً وذلك لأن «ما» هذه مصدرية.

٣ ـ سبق تخريج الحديث قريباً من هذا

فهو مبتدع،وفي بعض الروايات عنه:من قال لفظي بالقرآن مخلوق يعني به القران فهو جهمي؛لأن اللفظ يراد به مصدر لفظ يلفظ لفظاً،ومسمى هذا فعل العبد وفعل العبد مخلوق،ويراد باللفظ القول الذي يلفظ به اللافظ، وذلك كلام الله لا كلام القارىء،فمن قال إنه مخلوق فقد قال إن الله لم يتكلم بهذا القرآن،وان هذا الذي يقرؤه المسلمون ليس هو كلام الله،ومعلوم أن هذا مخالف لما علم بالاضطرار من دين الرسول.

وأما صوت العبد فهو مخلوق،وقد صرح أحمد وغيره بأن الصوت المسموع صوت العبد،ولم يقل أحمد قط:من قال إن صوتي بالقرآن مخلوق فهو جهمي،وإنما قال من قال لفظي بالقرآن،والفرق بين لفظ الكلام وصوت المبلغ له فرق واضح،فكل من بلغ كلام غيره بلفظ ذلك الرجل فانما بلغ لفظ ذلك الغير لا لفظ نفسه،وهو إنما بلغه بصوت نفسه لا بصوت ذلك الغير، ونفس اللفظ والتلاوة والقراءة والكتابة ونحو ذلك لما كان يراد به المصدر الذي هو حركات العباد،ومايحدث عنها من أصواتهم وشكل المداد،ويراد به نفس الكلام الذي يقرأه التالي ويتلوه ويلفظ به ويكتبه،منع أحمد وغيره من اطلاق النفي والاثبات،الذي يقتضي جعل صفات الله مخلوقة،أو جعل صفات العباد ومدادهم غير مخلوق.

وقال أحمد:نقول القرآن كلام الله غير مخلوق حيث تصرف:أي حيث تلي وكتب وقرىء مما هو فى نفس الأمر كلام الله،فهو كلامه،وكلامه غير مخلوق،وما كان من صفات العباد وأفعالهم التى يقرؤون ويكتبون بها كلامه كأصواتهم ومدادهم فهو مخلوق،ولهذا من لم يهتد إلى هذا الفرق يحار،فانه معلوم أن القرآن واحد ويقرأه خلق كثير،والقرآن لايكثر فى نفسه بكثرة قراءة القراء،وانما يكثر مايقرؤن به القرآن،فما يكثر ويحدث فى العباد فهو

مخلوق،والقرآن نفسه لفظه ومعناه الذي تكلم الله به،وسمعه جبريل من الله،وسمعه محمد من جبريل،وبلغه محمد إلى الناس،وأنذر به الأمم؛لقوله تعالى:(لانذركم به ومن بلغ)[1] قرآن واحد،وهو كلام الله ليس بمخلوق.

وليس هذا من باب ماهو واحد بالنوع متعدد الأعيان،كالإنسانية الموجودة فى زيد وعمرو،ولا من باب مايقول الإنسان مثل قول غيره كما قال تعالى:(كذلك قال الذين من قبلهم مثل قولهم)[2] فان القرآن لايقدر احد أن يأتى بمثله،،كما قال تعالى:(قل لئن اجتمعت الانس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً)[3] فالانس والجن إذا اجتمعوا لم يقدروا أن يأتوا بمثل هذا القرآن مع قدرة كل قارىء على أن يقرأه ويبلغه.

فعلم أن ماقرأه هو القرآن ليس هو مثل القرآن،وأما الحروف الموجودة فى القرآن إذا وجد نظيرها في كلام غيره فليس هذا هو ذاك بعينه بل هو نظيره،وإذا تكلم الله باسم من الأسماء:كآدم ونوح وابراهيم،وتكلم بتلك الحروف والأسماء التى تكلم الله بها،فإذا قرنت فى كلامه فقد بلغ كلامه،فإذا أنشأ الإنسان لنفسه كلاماً لم يكن عين ماتكلم الله به من الحروف والأسماء هو عين ماتكلم به العبد حتى يقال:إن هذه الأسماء والحروف الموجودة فى كلام العباد غير مخلوقة؛فان بعض من قال إن الحروف والأسماء غير مخلوقة فى كلام العباد ادعى ان المخلوق إنما هو النظم والتأليف دون

---

١ ـ سورة الأنعام آية رقم ١٩ — ٢ ـ سورة البقرة آية رقم ١١٨

٣ ـ سورة الاسراء آية رقم ٨٨

المفردات،وقائل هذا يلزمه أن يكون أيضاً النظم والتأليف غير مخلوق إذا وجد نظيره فى القرآن كقوله: (يايحيى خذ الكتاب)[1] وإن أراد بذلك شخصاً اسمه يحيى وكتاباً بحضرته.

(فان قيل) يحيى هذا والكتاب الحاضر ليس هو يحيى والكتاب المذكور في القرآن وان كان اللفظ نظير اللفظ، (قيل) كذلك سائر الأسماء والحروف إنما يوجد نظيرها فى كلام العباد لا فى كلام الله. وقولنا يوجد نظيرها فى كلام الله تقريب أى يوجد فيما نقرأه ونتلوه،فان الصوت المسموع من لفظ محمد ويحيى وإبراهيم فى القرآن هو مثل الصوت المسموع من ذلك فى غير القرآن،وكلا الصوتين مخلوق، واما الصوت الذي يتكلم الله به فلا مثل له لا يماثل صفات المخلوقين،وكلام الله هو كلامه بنظمه ونثره ومعانيه.وذلك الكلام ليس مثل كلام المخلوقين. فإذا قلنا: (الحمد لله رب العالمين) وقصد بذلك قراءة القرآن الذي تلكم الله به فذلك القرآن تكلم الله بلفظه ومعناه لا يماثل لفظ المخلوقين ومعناهم،واما إذا قصدنا به الذكر ابتداء من غير أن نقصد قراءة كلام الله فانما نقصد ذكراً ننشئه نحن يقوم معناه بقلوبنا،وننطق بلفظه بألسنتنا، وما أنشأناه من الذكر فليس هو من القرآن وان كان نظيره فى القرآن.

ولهذا قال النبى صلى الله عليه وسلم فى الحديث الصحيح: (أفضل الكلام بعد القرآن أربع وهن من القرآن:سبحان الله، والحمد لله،ولا إله إلا الله والله أكبر)[2] فجعل النبى صلى الله عليه وسلم هذه الكلمات أفضل

---

١ - سورة مريم آية رقم ١٢

٢ سبق تخريج الحديث قريبا من هذا

الكلام بعد القرآن،فجعل درجتها دون درجة القرآن،وهذا يقتضي أنها ليست من القرآن،ثم قال:«هي من القرآن» وكلا قوليه حق وصواب؛ولهذا منع أحمد أن يقال:الايمان مخلوق وقال:لا إله إلا الله من القرآن،وهذا الكلام لايجوز أن يقال:إنه مخلوق وان لم يكن من القرآن،ولا يقال في التوراة والانجيل انهما مخلوقان،ولا يقال في الأحاديث الالهية التي يرويها عن ربه انها مخلوقة كقوله:(ياعبادي اني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا»[1] فكلام الله قد يكون قرآناً وقد لايكون قرآناً،والصلاة إنما تجوز وتصح بالقرآن.وكلام الله كله غير مخلوق.

فإذا فهم هذا في مثل هذا فليفهم في نظائره،وان ما يوجد من الحروف والأسماء في كلام الله باعتبار،ويقال ليس من كلام الله باعتبار،كما أنه يكون من القرآن باعتبار وغير القرآن باعتبار،لكن كلام الله القرآن وغير القرآن غير مخلوق،وكلام المخلوقين كله مخلوق.فما كان من كلام الله فهوغير مخلوق،وما كان من كلام غيره فهو مخلوق.

وهؤلاء الذين يحتجون على نفي الخلق أو اثبات القدم بشيء من صفات العباد واعمالهم لوجود نظير ذلك فيما يضاف إلى الله وكلامه والايمان به، شاركهم في هذا الاصل الفاسد من احتج على خلق ماهو من كلام الله وصفاته بان ذلك قد يوجد نظيره فيما يضاف إلى العبد.مثال ذلك:أن القرآن

---

١ ـ هذا جزء من حديث طويل أخرجه الامام مسلم في كتاب البر والصلة والآداب ٥٥ (٢٥٧٧) بسنده عن ربيعه بن يزيد عن ابى ادريس الخولانى عن ابى ذر ـ رضى الله عنه ـ عن النبى صلى الله عليه وسلم ـ فيما يروى عن الله تبارك وتعالى أنه قال:وذكره.

الذي يقرؤه المسلمون هو كلام الله قرؤوه بحركاتهم وأصواتهم،فقال الجهمي أصوات العباد ومدادهم مخلوقة وهذا هو المسمى بكلام الله،أو يوجد نظيره في المسمى بكلام الله،فيكون كلام الله مخلوقا.

وقال الحلولي الاتحادي الذي يجعل صفة الخالق هي عين صفة المخلوق الذي:نسمعه من القراء هو كلام الله،وانما نسمع اصوات العباد فأصوات العباد بالقرآن كلام الله وكلام الله غير مخلوق فأصوات العباد بالقرآن غير مخلوقة.وكلام الله غير مخلوق فا، ـوات العبادة بالقرآن غير مخلوقة، والحروف المسموعة منهم غير مخلوقة،ثم قالوا:الحروف الموجودة فى كلامهم هى هذه او مثل هذه فتكون غير مخلوقة.وزاد بعض غلاتهم فجعل أصوات كلامهم غير مخلوقة،كما زعم بعضهم ان الاعمال من الايمان وهو غير مخلوق والاعمال غير مخلوقة.وزاد بعضهم أعمال الخير والشر،وقال:هي القدر والشرع المشروع،وقال عمر:مامرادنا بالأعمال الحركات بل الثواب الذي يأتى يوم القيامة،كما ورد فى الحديث الصحيح:«انه تأتى البقرة وآل عمران كأنهما غمامتان أو غيايتان، أو فرقان من طير صواف»[1] فيقال له: وهذا الثواب مخلوق.وقد نص احمدوغيره من الأئمة على أنه غير مخلوق،وبذلك أجابوا من احتج على خلق القرآن بمثل هذا الحديث فقالوا له: الذي يجيء يوم

١- الحديث أخرجه الامام مسلم ـ فى كتاب صلاة المسافرين وقصرها ٢٥٢ (٨٠٤) حدثنا معاوية (يعنى ابن سلام) عن زيد أنه سمع ابا سلام يقول: حدثنى ابو امامة الباهلى قال:سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم- يقول: اقرأوا الزهراوين وذكره وفيه زيادة «تحاجان عن أصحابهما اقرأوا سورة البقرة فإن أخذها بركة وتركها حسرة ولا يستطيعها البطلة».

ورواه الدرامى فى فضائل القرآن ١٥ واحمد بن حنبل فى المسند ٤:١٨٣- ٥:٢٤٩. ٢٥١، ٢٥٧. ٣٤٨. ٣٥٢. ٣٦١،(حلبى).

القيامة هو ثواب القرآن لانفس القرآن وثواب القرآن مخلوق،إلى أمثال هذه الأقوال التى ابتدعها طوائف، والبدع تنشأ شيئاً فشيئاً،وقد بسط الكلام فى هذا الباب فى مواضع أخر.

وقد بينا أن الصواب فى هذا الباب هو الذي دل عليه الكتاب والسنة واجماع السابقين الأولين والتابعين لهم باحسان،وهو ما كان عليه الامام احمد بن حنبل ومن قبله من أئمة الاسلام ومن وافق هؤلاء،فان قول الامام احمد وقول الأئمة قبله هو القول الذي جاء به الرسول،ودل عليه الكتاب والسنة، ولكن لما امتحن الناس بمحنة الجهمية،وطلب منهم تعطيل الصفات،وان يقولوا بان القرآن مخلوق،وان الله لا يرى فى الآخرة ونحو ذلك،ثبت الله الامام احمد فى تلك المحنة؛ فدفع حجج المعارضين النفاة،وأظهر دلالة الكتاب والسنة،وان السلف كانوا على الاثبات فآتاه الله من الصبر واليقين ماصار به إماما للمتقين كما قال تعالى: (وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون)[1].

ولهذا قيل فيه رحمه الله:عن الدنيا ما كان أصبره،وبالماضين ما كان أشبهه.أتته البدع فنفاها، والدنيا فأباها، فلما ظهر به من السنة ماظهر كان له من الكلام فى بيانها،وإظهارها أكثر وأعظم مما لغيره،فصار أهل السنة من عامة الطوائف يعظمونه وينتسبون إليه.

وقد ذكرت كلامه وكلام غيره من الأئمة ونصوص الكتاب والسنة فى هذه الأبواب فى غير هذا الموضع، وبينا أن كل مايدل عليه الكتاب والسنة فانه

---

١ - سورة الانبياء آية رقم ٧٣.

موافق لصريح المعقول،وان العقل الصريح لايخالف النقل الصحيح،ولكن كثيراً من الناس يغلطون إما فى هذا وإما فى هذا،فمن عرف قول الرسول ومراده به كان عارفا بالأدلة الشرعية،وليس فى المعقول مايخالف المنقول؛ ولهذا كان أئمة السنة على ماقاله أحمد بن حنبل، قال: معرفة الحديث والفقه فيه أحب إلي من حفظه أي «معرفته» بالتمييز بين صحيحه وسقيمه. «والفقه فيه» معرفة مراد الرسول وتنزيله على المسائل الاصولية والفرعية أحب إلي من أن يحفظ من غير معرفة وفقه.وهكذا قال علي بن المدينى[1] وغيره من العلماء، فانه من احتج بلفظ ليس بثابت عن الرسول [أو بلفظ ثابت عن الرسول] وحمله على مالم يدل عليه فانما أتي من نفسه.

وكذلك «العقليات الصريحة» إذا كانت مقدماتها وترتيبها صحيحاً لم تكن إلا حقاً، لاتناقض شيئاً مما قاله الرسول، والقرآن قد دل على الأدلة العقلية التى بها يعرف الصانع وتوحيده، وصفاته وصدق رسله، وبها يعرف امكان المعاد.ففى القرآن من بيان أصول الدين التى تعلم مقدماتها بالعقل الصريح مالا يوجد مثله فى كلام أحد من الناس،بل عامة مايأتى به حذاق النظار من الأدلة العقلية يأتى القرآن بخلاصتها وبما هو أحسن منها،قال

١- هو على بن محمد بن عبد الله أبو الحسن المدائنى: راوية مؤرخ كثير التصانيف من أهل البصرة سكن المدائن ثم انتقل إلى بغداد فلم يزل بها إلى أن توفى عام ٢٢٥هـ من مصنفاته: السيرة النبوية. وأخبار النسا، وتاريخ الخلفاء، وتاريخ الوقائع وغير ذلك كثير.

راجع ابن النديم ١:١٠٠ - ١٠٤ وتاريخ بغداد ١٢:٥٤ وإرشاد الاريب ٥:٣٠٩.

تعالى: (ولا يأتونك بمثل إلا جئناك بالحق وأحسن تفسيراً)[1] وقال: (ولقد ضربنا للناس فى هذا القرآن من كل مثل)[2] وقال: (وتلك الامثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون)[3].

وأما الحجج الداحضة التى يحتج بها الملاحدة،وحجج الجهمية معطلة الصفات.وحجج الدهرية وأمثالها،كما يوجد مثل ذلك فى كلام المتأخرين الذين يصنفون فى الكلام المبتدع وأقوال المتفلسفة ويدعون انها عقليات ففيها من الجهل والتناقض والفساد،مالا يحصيه إلا رب العباد.وقد بسط الكلام على هؤلاء فى مواضع أخر.

وكان من أسباب ضلال هؤلاء تقصير الطائفتين أو قصورهم عن معرفة ما جاء به الرسول،وما كان عليه السلف،ومعرفة المعقول الصريح؛فإن هذا هو الكتاب،وهذا هو الميزان،وقد قال تعالى: (لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط،وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس،وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب إن الله قوي عزيز)[4].

وهذه المسألة لاتحتمل البسط على هذه الأمور؛إذ كان المقصود هنا التنبيه على ان هؤلاء المتنازعين أجمعوا على أصل فاسد،ثم تفرقوا فأجمعوا على أن جعلوا عين صفة الرب الخالق هي عين صفة المخلوق،ثم قال هؤلاء: وصفة المخلوق مخلوقة فصفة الرب مخلوقة،فقال هؤلاء:صفة الرب قديمة فصفة المخلوق قديمة،ثم احتاج كل منهما إلى طرد أصله،فخرجوا إلى أقوال

---

١ - سورة الفرقان آية رقم ٣٣
٢ - سورة الزمر آية رقم ٢٧
٣ - سورة الحشر آية رقم ٢١
٤ - سورة الحديد آية رقم ٢٥

ظاهرة الفساد:خرج النفاة إلى أن الله لم يتكلم بالقرآن،ولا بشيء من الكتب الالهية:لا التوراة ولا الانجيل ولا غيرهما،وانه لم يناد موسى بنفسه نداء يسمعه منه موسى ولا تكلم بالقرآن العربي ولا التوراة العبرية، وخرج هؤلاء إلى أن مايقوم بالعباد ويتصفون به يكون قديماً أزلياً،وان مايقوم بهم ويتصفون به لايكون قائما بهم حالا فيهم بل يكون ظاهراً عنهم من غير قيام بهم.

ولما تكلموا فى «حروف المعجم» صاروا بين قولين:طائفة فرقت بين المتماثلين،فقالت الحرف حرفان هذا قديم وهذا مخلوق،كما قال ابن حامد والقاضي[1] أبو يعلى[2] وابن عقيل[3] وغيرهم، فانكر ذلك عليهم الأكثرون وقالوا هذا مخالفة للحس والعقل،فان حقيقة هذا الحرف هي حقيقة هذا الحرف،وقالوا الحرف حرف واحد.وصنف في ذلك القاضي يعقوب البرزيني مصنفاً خالف به شيخه القاضي ابا يعلى مع قوله فى مصنفه:

١- هو الحسن بن حامد بن على البغدادى أبو عبد الله إمام الحنابلة فى زمانه من أهل بغداد عاش طويلاً وتوفى راجعاً من الحج عام ٤٠٣هـ له مصنفات فى الفقه وغيره منها الجامع فى فقه ابن حنبل نحو اربعمائه جزء وشرح أصول الدين، وتهذيب الأجوبة.

راجع مختصر طبقات الحنابلة ٣٥٩ والنجوم الزاهرة ٤ : ٢٣٢.

٢ - هو محمد بن الحسين بن محمد بن خلف بن الفراء أبو يعلى عالم عصره فى الأصول والفروع وأنواع الفنون من أهل بغداد. ولاه القائم قضاء دار الخلافة والحريم وحلوان له تصانيف منها: الايمان، والاحكام السلطانية، والكفاية فى أصول الفقة توفى عام ٤٥٨ هـ.

راجع طبقات الحنابلة ٢ : ١٩٣ - ٢٣٠ وتاريخ بغداد ٢ : ٢٥٦.

٣ - هو على بن عقيل بن محمد البغدادى أبو الوفاء، ويعرف بابن عقيل عالم العراق وشيخ الحنابلة فى وقته، اشتغل بمذهب المعتزله فى حداثته وكان يعظم الحلاج فاراد الحنابلة قتله فاستجار بباب المراتب عدة سنين ثم أظهر التوبة. حتى تمكن من الظهور له تصانيف أعظمها (كتاب الفنون) توفى عام ٥١٣ هـ. راجع جلاء العينين ٩٩ وشذرات الذهب ٤ : ٣٥.

وينبغي ان يعلم ان ماسطرته فى هذه المسألة ان ذلك مما استفدته وتفرغ عندي من شيخنا وامامنا القاضي ابي يعلى بن الفراء،وان كان قد نصر خلاف ماذكرته فى هذا الباب،فهو العالم المقتدى به في علمه ودينه،فاني مارأيت احسن سمتا منه،ولا اكثر اجتهاداً منه، ولاتشاغلا بالعلم،مع كثرة العلم والصيانة والانقطاع عن الناس والزهادة فيما بايديهم،والقناعة في الدنيا باليسير،مع حسن التجميل،وعظم حشمته عند الخاص والعام،ولم يعدل بهذه الاخلاق شيئا من نفر من الدنيا.

وذكر القاضي يعقوب فى مصنفه ان ماقاله قول ابي بكر احمد بن المسيب الطبري،وحكاه عن جماعة من أفضل أهل طبرستان،وانه سمع الفقيه عبد الوهاب بن حلبه قاضي حران يقول:هو مذهب العلوي الحراني وجماعة من أهل حران. وذكره أبو عبد الله بن حامد عن جماعة من أهل طبرستان ممن ينتمي إلى مذهبنا:كأبي محمد الكشفل واسماعيل الكاوذرى فى خلق من اتباعهم يقولون إنها قديمة،قال القاضي ابو يعلى:وكذلك حكي لي عن طائفة بالشام انها تذهب إلى ذلك منهم النابلسي[1] وغيره، وذكر القاضي حسين أن أباه رجع فى آخر عمره إلي هذا.وذكره عن الشريف أبي على بن أبى موسى،وتبعهم فى ذلك الشيخ أبو الفرج المقدسي وابنه عبد الوهاب وسائر اتباعه، وابو الحسن بن الزاغوني[2] وأمثاله.وذكر القاضي يعقوب ان كلام أحمد يحتمل القولين.

---

١ ـ هو محمد بن عبد القادر بن عثمان بن عبد الرحمن الجعفرى النابلسى أبو عبد الله شمس الدين، فاضل من فقهاء الحنابلة من أهل نابلس (بفلسطين) يقال له «الجنة» لكثرة مافيه من الفضائل صحب ابن القيم الجوزية وتفقه عليه توفى عام ٧٩٧هـ من كتبه (طبقات الحنابلة) وغيره.
راجع طبقات الحنابلة مقدمته ثم ٤١٥ وشذرات الذهب ٦:٣٤٩.

٢ ـ هو على بن عبيد الله بن نصر بن السرى أبو الحسن ابن الزاغوني مؤرخ فقيه من أعيان الحنابلة من أهل بغداد قال ابن رجب كان متفننا فى علوم شتى من الأصول والفروع والحديث والوعظ من كتبه (الاقناع) و(الواضح) و(المفردات وغير ذلك توفى عام ٥٢٧هـ.

وهؤلاء تعلقوا بقول احمد لما قيل له ان سريا السقطي[1] قال: لما خلق الله الاحرف سجدت له إلا الألف فقالت لا أسجد حتي أومر، فقال أحمد هذا كفر، وهؤلاء تعلقوا من قول احمد بقوله: كل شيء من المخلوقين على لسان المخلوقين فهو مخلوق، وبقوله لو كان كذلك لما تمت صلاته بالقرآن كما لاتتم بغيره من كلام الناس. ويقول احمد لأحمد بن الحسن الترمذي: ألست مخلوقا؟ قال بلى، قال أليس كل شيء منك مخلوقا؟ قال بلى، قال فكلامك منك وهو مخلوق.

(قلت) الذي قاله احمد فى هذا الباب صواب يصدق بعضه بعضا وليس فى كلامه تناقض، وهو أنكره على من قال: إن الله خلق الحروف؛ فان من قال ان الحروف مخلوقة كان مضمون قوله: ان الله لم يتكلم بقرآن عربى، وان القرآن العربى مخلوق، ونص احمد ايضاً على ان كلام الآدميين مخلوق، ولم يجعل شيئاً منه غير مخلوق، وكل هذا صحيح، والسري رحمه الله إنما ذكر ذلك عن بكر بن خنيس العابد، فكان مقصودهما بذلك ان الذي لايعبد الله الا بامره، هو اكمل ممن يعبده برأيه من غير أمر من الله، واستشهدا على ذلك بما بلغهما «أنه لما خلق الله الحروف سجدت له إلا الألف فقالت لا أسجد حتى أومر» وهذا الأثر لايقوم بمثله حجة فى شيء، ولكن مقصودهما ضرب المثل أن الألف منتصبة فى الخط ليست هي مضطجعة كالباء والتاء، فمن لم يفعل حتى يؤمر أكمل ممن فعل بغير أمر.

---

١ ـ هو سرى المغلسى السقطى أبو الحسن من كبار المتصوفة بغدادى المولد والوفاة وهو أول من تكلم فى بغداد بلسان التوحيد وأحوال الصوفية، وكان إمام البغداديين وشيخهم فى وقته وهو خال الجنيد واستاذه. توفى عام ٢٥٣هـ.

راجع طبقات الصوفية ٤٨ - ٥٥ والوفيات ١: ٢٠ وتهذيب ابن عساكر ٦: ٧١-٧٩.

وأحمد أنكر قول القائل ان الله لما خلق الحروف، وروي عنه انه قال: من قال إن حرفا من حروف المعجم مخلوق فهو جهمي، لانه سلك طريقا إلى البدعة، ومن قال ان ذلك مخلوق فقد قال ان القرآن مخلوق. واحمد قد صرح هو وغيره من الأئمة ان الله لم يزل متكلما إذا شاء، وصرح أن الله يتكلم بمشيئته، ولكن أتباع ابن كلاب كالقاضي[1] وغيره تأولوا كلامه على أنه أراد بذلك إذا شاء الاسماع؛ لانه عندهم لم يتكلم بمشيئته وقدرته.

وصرح أحمد وغيره من السلف ان القرآن كلام الله غير مخلوق، ولم يقل أحد من السلف ان الله تكلم بغير مشيئته وقدرته، ولا قال أحد منهم ان نفس الكلام المعين كالقرآن أو ندائه لموسى أو غير ذلك من كلامه المعين انه قديم ازلي لم يزل ولا يزال، وان الله قامت به حروف معينة أو حروف وأصوات معينة قديمة أزلية، لم تزل ولاتزال، فان هذا لم يقله ولا دل عليه قول احمد ولا غيره من أئمة المسلمين. بل كلام أحمد وغيره من الأئمة صريح فى نقيض هذا، وأن الله يتكلم بمشيئته وقدرته، وانه لم يزل يتكلم إذا شاء، مع قولهم إن كلام الله غير مخلوق، وانه منه بدأ؛ ليس بمخلوق ابتدأ من غيره، ونصوصهم بذلك كثيرة معروفة فى الكتب الثابتة عنه، مثل ماصنف أبو بكر الخلال فى «كتاب السنة»[2] وغيره، وماصنفه عبد الرحمن بن أبي حاتم من كلام أحمد وغيره، وماصنفه أصحابه وأصحاب أصحابه: كابنيه صالح وعبد الله، وحنبل، وأبي داود السجستاني صاحب «السنن»

---

١ - سبقت ترجمة وافية عنه

من كتبه (الاقناع) و(الواضح) و المفردات وغير ذلك توفى عام ٥٢٧.

٢ - سبق الحديث عن هذا الكتاب.

والاثرم،[1] والمروذي، وأبي زرعة، وأبى حاتم، والبخاري صاحب الصحيح، وعثمان بن سعيد الدرامي،وإبراهيم الحربى،وعبد الوهاب الوراق، وعباس بن عبد العظيم العنبري،وحرب بن اسماعيل الكرمانى،ومن لايحـ ـى عدده من أكابر أهل العلم والدين،وأصحاب أصحابه ممن جمع كلامه وأخباره:كعبد الرحمن بن أبي حاتم وأبى بكر الخلال،وأبى الحسن البنانى الاصبهانى،وأمثال هؤلاء،ومن كان أيضاً يأتم به ويأمثاله من الأئمة في الأصول والفروع:كأبي عيسى الترمذي صاحب الجامع،وأبى عبد الرحمن النسائى وأمثالهما،ومثل أبى محمد بن قتيبة وأمثاله، وبسط هذا له موضع آخر.

وقد ذكرنا فى «المسائل الطبرستانية» و «الكيلانية» بسط مذاهب الناس وكيف تشعبت وتفرعت في هذا الأصل.

والمقصود هنا ان كثيرا من الناس المتأخرين لم يعرفوا حقيقة كلام السلف والأئمة،فمنهم من يعظمهم ويقول انه متبع لهم،مع انه مخالف لهم من حيث لايشعر،ومنهم من يظن أنهم كانوا لايعرفون أصول الدين ولاتقريرها بالدلائل البرهانية،وذلك لجهله بعلمهم؛بل لجهله بما جاء به الرسول من الحق الذي تدل عليه الدلائل العقلية مع السمعية؛فهذا يوجد كثير من المتأخرين يشتركون فى أصل فاسد،ثم يفرع كل قوم عليه فروعا فاسدة يلتزمونها،كما صرحوا فى تكلم الله تعالى بالقرآن العربى،وبالتوراة العبرية،ومافيهما من حروف الهجاء مؤلفاً او مفرداً لما رأوا ان ذلك بلغ بصفات المخلوقين اشتبه

---

١ ـ هو أحمد بن محمد بن هانىء الطائى أو الكلبى الاسكافى أبو بكر الاثرم من حفاظ الحديث، أخذ عن الامام أحمد وآخرين له كتاب فى علل الحديث وآخر فى السنن.

راجع تذكرة الحفاظ ٢ : ١٣٥ وتاريخ بغداد ٥:١١٠

بصفات المخلوقين،فلم يهتدوا لموضع الجمع والفرق، فقال هؤلاء:هذا الذي يقرأ ويسمع مثل كلام المخلوقين فهو مخلوق.

وقال هؤلاء:هذا الذي من كلام الآدميين هو مثل كلام الله فيكون غير مخلوق،كما ذكر ابن عقيل فى «كتاب الارشاد» عن بعض القائلين بأن القرآن مخلوق،فقال:شبه اعترض بها عليّ بعض أئمتهم فقال:أقل مافي القرآن من امارات الحدث كونه مشبهاً لكلامنا،والقديم لايشبه المحدث ومعلوم انه لايمكن دفع ذلك؛لأن قول القائل لغلامه يحيى:يايحيى خذ الكتاب بقوة،يضاهي قوله سبحانه،حتى لايميز السامع بينهما من حيث حسه،إلا أن يخبره أحدهما بقصده والآخر بقصده،فيميز بينهما بخبر القائل لا بحسه،وإذا اشتبها إلى هذا الحد فكيف يجوز دعوى قدم مايشابه المحدث ويسد مسده،مع انه إن جاز دعوى قدم الكلام مع كونه مشاهداً للمحدث جاز دعوى التشبيه بظواهر الآي والاخبار،ولامانع من ذلك،فلما فزعنا نحن وانتم إلى نفي التشبيه خوفا من جواب دخول القرآن بالحدث علينا،كذلك يجب أن تفزعوا من القول بالقدم مع وجود الشبه،حتى ان بعض أصحابكم يقول لقوة مارأى من الشبه بينهما ان الكلام واحد والحروف غير مخلوقة،فكيف يجوز ان يقال فى الشيء الواحد انه قديم محدث.

قلت:وهذا الذي حكى عنه ابن عقيل من بعض الاصحاب المذكورين منهم القاضي يعقوب البرزيني ذكره فى مصنفه فقال:(دليل عاشر) وهو ان هذه الحروف بعينها وصفتها ومعناها وفائدتها هي التى في كتاب الله تعالى وفى اسمائه وصفاته والكتاب بحروفه قديم؛وكذلك هاهنا.قال:فان قيل:لا نسلم ان تلك لها حرمة وهذه لا حرمة لها، قيل:لانسلم بل لها حرمة.

فان قيل:لو كان لها حرمة لوجب ان تمنع الحائض والنفساء من مسها وقراءتها، قيل:قد لاتمنع من قراءتها ومسها ويكون لها حرمة كبعض آية لاتمنع من قراءتها ولها حرمة وهي قديمة،وانما لم تمنع من قراءتها ومسها للحاجة إلى تعليمها،كما يقال في الصبي يجوز له مس المصحف على غير طهارة للحاجة إلى تعليمه.

فان قيل:فيجب إذا حلف بها حالف ان تنعقد يمينه وإذا خالف يمينه أن يحنث، قيل له:كما فى حروف القرآن مثله نقول هنا.

فان قيل:أليس إذا وافقها فى هذه المعانى دل على انها هي،الا ترى انه إذا تكلم متكلم بكلمة يقصد بها خطاب آدمي فوافق صفتها صفة ما فى كتاب الله تعالى،مثل قوله،ياداود! يانوح! يايحيى! وغير ذلك؛فانه موافق لهذه الاسماء التى فى كتاب الله،وان كانت فى كتاب الله قديمة وفى خطاب الآدمى محدثة؟.

قيل:كل ماكان موافقاً لكتاب الله من الكلام فى لفظه ونظمه وحروفه فهو من كتاب الله وان قصد به خطاب آدمي.

فان قيل:فيجب إذا أراد بهذه الاسماء آدمياً وهو فى الصلاة ان لاتبطل صلاته.

قيل له:كذلك نقول وقد ورد مثل ذلك عن علي وغيره؛إذ ناداه رجل من الخوارج: (لئن أشركت ليحبطن عملك ولتكونن من الخاسرين)قال:فأجابه علي وهو فى الصلاة: (فاصبر ان وعد الله حق ولا يستخفنك الذين لايوقنون)[1].وعن ابن مسعود انه استأذن عليه بعض اصحابه فقال:

---

١ ـ سورة الروم آية رقم ٦٠

(ادخلوا مصر إن شاء الله آمنين)[1].

قال:فان قيل:أليس إذا قال: (يايحيى خذ الكتاب بقوة) ونوى به خطاب غلام اسمه يحيى يكون الخطاب مخلوقا ؟وان نوى به القرآن يكون قديما ،قيل له:في كلا الحالين يكون قديماً؛لأن القديم عبارة عما كان موجوداً فيما لم يزل،والمحدث عبارة عما حدث بعد ان لم يكن، والنية لاتجعل المحدث قديماً ولا القديم محدثاً،قال:ومن قال هذا فقد بالغ فى الجهل والخطأ.

وقال ايضاً:كل شيء يشبه بشيء ما فانما يشبهه فى بعض الأشياء دون بعض،ولايشبهه من جميع أحواله؛لأنه إذا كان مثله فى جميع احواله كان هو لاغيره،وقد بينا أن هذه الحروف تشبه حروف القرآن فهي غيرها اهـ.

(قلت):هذا كلام القاضي يعقوب وامثاله، مع انه اجل من تكلم فى هذه المسألة، ولما كان جوابه مشتملا على مايخالف النص والاجماع والعقل خالفه ابن عقيل وغيره من أئمة المذهب الذين هم أعلم به.

وأجاب ابن عقيل عن سؤال الذين قالوا هذا مثل هذا ،بان قال:الاشتراك فى الحقيقة لايدل على الاشتراك فى الحدوث،كما ان كونه عالما هو تبينه للشيء على أصلكم،ومعرفته به على قولنا على الوجه الذي يتبينه الواحد منا ،وليس مماثلا لنا فى كوننا عالمين.وكذلك كونه قادراً هو صحة الفعل منه سبحانه وتعالى،وليست قدرته على الوجه الذي قدرنا عليها ،فليس الاشتراك فى الحقيقة حاصلا ،والافتراض فى القدم والحدوث حاصل.

---

١ ـ سورة يوسف آية رقم ٩٩

قال:«وجواب آخر»،لا نقول ان الله يتكلم بكلامه على الوجه الذي يتلكم به زيد،بمعني انه يقول:يايحيى! فإذا فرغ من ذلك انتقل إلى قوله خذ الكتاب بقوة،وترتب فى الوجود كذلك،بل هو سبحانه وتعالى يتكلم به على وجه تعجز عن مثله أدواتنا. فما ذكرته من الاشتباه من قول القائل يايحيى خذ الكتاب يعود إلى اشتباه التلاوة بالكلام المحدث،فأما انه يشابه الكلام القائم بذاته فلا.

قال ابن عقيل:قالوا فهذا لا يجيء على مذهبكم؛فان عندكم التلاوة هي المتلو والقراءة هي المقروء.قيل:ليس معني قولنا هي المتلو انها هذه الاصوات المقطعة،وانما نريد به مايظهر من الحروف القديمة فى الاصوات المحدثة، وظهورها فى المحدث لابد ان يكسبها صفة التقطيع لاختلاف الانفاس،وادارة اللهوات؛لأن الآلة التى تظهر عليها لاتحمل الكلام إلا على وجه التقطيع، وكلام الباري قائم بذاته على خلاف هذا التقطيع، والابتداء،والانتهاء، والتكرار،والبعدية،والقبلية،.

ومن قال ذلك لم يعرف حد القديم وادعى قدم الاعراض وتقطع القديم، عرض لايقوم بقديم،من اعتقد ان كلام الله القائم بذاته على حد تلاوة التالى من القطع والوصل،والتقريب والتبعيد والبعدية والقبلية فقد شبه الله بخلقه.ولهذا روي فى الخبر «أن موسى سأله بنو اسرائيل كيف سمعت كلام ربك؟قال كالرعد الذي لايترجع» يعنى ينقطع لعدم قطع الانفاس وعدم الأنفاس،والآلات والشفاه واللهوات،ومن قال غير ذلك وتوهم ان الله تكلم على لسان التالى،أو الكلام الذي قام بذاته على هذه الصفة من التقطيع والوصل،والتقريب والتبعيد:فقد حكم به محدثا؛لأن الدلالة على حدوث

العالم هو الاجتماع والافتراق؛ولأن هذه من صفات الأدوات اهـ.

(قلت)فهذا الذي قاله ابن عقيل أقل خطأ مما قاله البرزيني،فان ذلك مخالف للنص والاجماع والعقل مخالفة ظاهرة،فانه قد ثبت بالنص والاجماع ان من تكلم فى الصلاة بكلام الآدميين عامداً لغير مصلحتها عالما بالتحريم بطلت صلاته بالاجماع،خلاف ماذكره القاضي يعقوب،ومتى قصد به التلاوة لم تبطل بالاجماع،وان قصد به التلاوة والخطاب ففيه نزاع،وظاهر مذهب احمد لاتبطل كمذهب الشافعى وغيره وقيل تبطل كقول أبي حنيفة وغيره.

وماذكروه عن الصحابة حجة عليهم؛فان قول علي بن أبي طالب: (فاصبر إن وعد الله حق ولايستخفنك الذين لايوقنون)[1] هو كلام الله ولم يقصد علي أن يقول للخارجي:ولا يستخفنك الخوارج؛وإنما قصد أن يسمعه الآية، وانه عامل بها صابر لايستخفه الذين لايوقنون،وابن مسعود قال لهم وهو بالكوفه:(ادخلوا مصر إن شاء الله آمنين).ومعلوم أن مصر بلا تنوين هي مصر المدينة وهذه لم تكن بالكوفة.وابن مسعود إنما كان بالكوفة؛فعلم أنه قصد تلاوة الآية،وقصد مع ذلك تنبيه الحاضرين على الدخول؛فانهم سمعوا قوله ادخلوا،فعلموا انه أذن لهم فى الدخول،وان كان هو تلا الآية فهذا هذا.

وأما جواب ابن عقيل فبناه على أصل ابن كلاب الذي يعتقده هو وشيخه وغيرهما،وهو الأصل الذي وافقوا فيه ابن كلاب

---

١ ـ سورة الروم آية رقم ٦٠

ومن اتبعه كالأشعري[1] وغيره، وهو ان الله لايتكلم بمشيئته وقدرته، وانه ليس فيما يقوم به شيء يكون بمشيئته وقدرته؛ لامتناع قيام الأمور الاختيارية به عندهم؛ لأنها حادثة والله لايقوم به حادث عندهم؛ولهذا تأولوا النصوص المناقضة لهذا الأصل،كقوله تعالى: (وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون)[2] فان هذا يقتضي انه سيرى الأعمال فى المستقبل،وكذلك قوله: (ثم جعلناكم خلائف فى الأرض من بعدهم لننظر كيف تعملون)[3] وقوله: (اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله)[4] وكذلك قوله: (قل ان كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله)[5] فان هذا يقتضي أنه يحبهم بعد اتباع الرسول. وكذلك قوله تعالى: (ولقد خلقناكم ثم صورناكم،ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم)[6] فان هذا يقتضي انه قال لهم بعد خلق آدم،وكذلك قوله تعالى: (فلما أتاها نودي)[7] يقتضي أنه نودي لما أتاها، لم يناد قبل ذلك،وكذلك قوله: (إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون)[8] ومثل هذا فى القرآن كثير.

١ـ هو على بن اسماعيل بن اسحاق أبو الحسن من نسل الصحابى أبى موسى الاشعرى مؤسس مذهب الاشاعرة، كان من الأئمة المتكلمين المجتهدين، ولد فى البصرة ٢٦٠ وتلقى مذهب المعتزلة وتقدم فيهم ثم رجع وجاهر بخلافهم وتوفى فى بغداد عام ٣٢٤هـ من كتبه: مقالات الاسلاميين، والابانة عن أصول الديانة، ومقالات الملحدين وغير ذلك.

راجع طبقات الشافعية ٢:٢٤٥ وابن خلكان ١:٣٢٦

٢ ـ سورة التوبة آية رقم ١٠٥

٣ـ سورة يونس آية رقم ١٤

٤ ـ سورة التوبة آية رقم ١٠٥

٥ـ سورة آل عمران آية رقم ٣١

٦ـ سورة الأعراف آية رقم ١١

٧ ـ سورة طه آية رقم ١١

٨ ـ سورة يس آية رقم ٨٢

وهذاالاصل هو مما أنكره الامام أحمد على ابن كلاب وأصحابه، حتى على الحارث المحاسبى[1] مع جلالة قدر الحارث، وأمر أحمد بهجرة وهجر الكلابية، وقال:احذروا من حارث، الآفة كلها من حارث، فمات الحارث وما صلى عليه إلا نفر قليل بسبب تحذير الامام أحمد عنه،مع أن فيه من العلم والدين ماهو أفضل من عامة من وافق ابن كلاب على هذا الأصل،وقد قيل إن الحارث رجع عن ذلك وأقر بأن الله يتلكم بصوت،كما حكى عنه ذلك صاحب «التعرف لمذهب التصوف» أبو بكر محمد بن اسحاق الكلاباذي.

وكثير من المتأخرين من أصحاب مالك والشافعي وأحمد وأبى حنيفة وافقوا ابن كلاب على هذا الأصل،كما قد بسط الكلام على ذلك فى مواضع أخر

واختلف كلام أبن عقيل فى هذا الأصل،فتارة يقول بقول ابن كلاب،وتارة يقول بمذهب السلف وأهل الحديث أن الله تقوم به الأمور الاختيارية،ويقول انه قام به أبصار متجددة حيت تجدد المرئيات لم تكن قبل ذلك،وقام به علم بأن كل شيء وجد غير العلم الذي كان أولاً أنه سيوجد،كما دل على ذلك عدة آيات فى القرآن،كقوله تعالى:(لنعلم من يتبع الرسول)[2]وغير ذلك. وكلامه فى هذا الأصل وغيره يختلف،تارة يقول بهذا ،وتارة يقول بهذا، فان هذه المواضع مواضع مشكلة كثر فيه غلط الناس؛لما فيها من الاشتباه والالتباس.

---

١ ـ هو الحارث بن أسد المحاسبى أبو عبد من اكابر الصوفية كان عالماً بالأصول والمعاملات واعظاً مبكياً وله تصانيف فى الزهد والرد على المعتزلة وغيرهم،ولد ونشأ فى البصرة ومات ببغداد عام ٢٤٣ هـ وهو استاذ اكثر البغدادين فى عصره، من كتبه (آداب النفوس) ،وشرح المعرفة،والبعث والنشور،وغير ذلك. راجع طبقات الصوفية وتهذيب التهذيب ٢:١٣٤ وصفة الصفوة ٢:٢٠٧.

٢ـ سورة البقرة آية رقم ١٤٣

.والجواب الحق: أن كلام الله لا يماثل كلام المخلوقين، كما لا يماثل فى شيء من صفاته صفات المخلوقين، وقول القائل: إن الاشتراك فى الحقيقة لايدل على الاشتراك فى الحدوث لفظ مجمل، فانا إذا قلنا: لله علم ولنا علم، أو له قدرة ولنا قدرة، أو له كلام ولنا كلام، أو تكلم بصوت ونحن نتكلم بصوت، وقلنــا صفة الخالق وصفة المخلوق اشتركتا فى الحقيقة.- فان أريد بذلك ان حقيقتهما واحدة بالعين فهذا مخالف للحس والعقل والشرع، وان أريد بذلك أن هذه مماثلة لهذه فى احقيقة، وإنما اختلفتا فى الصفات العرضية، كما قال ذلك طائفة من أهل الكلام - وقد بين فساد ذلك فى الكلام على «الأربعين» للرازي وغير ذلك - فهذا أيضاً من أبطل الباطل، وذلك يستلزم أن تكون حقيقة ذات الباري عز وجل مماثلة لحقيقة ذوات المخلوقين.

وان أريد بذلك أنهما اشتركا في مسمى العلم والقدرة والكلام فهذا صحيح، كما انه إذا قيل: إنه موجود أو ان له ذاتا فقد اشتركا فى مسمى الوجود والذات، لكن هذا المشترك أمر كلي لايوجد كلياً إلا في الأذهان لا في الاعيان، فليس في الخارج شيء اشترك فيه مخلوقان كاشتراك الجزئيات في كلياتها بخلاف اشتراك الاجزاء فى الكل، فانه يجب الفرق بين قسمة الكلي إلى جزئياته، كقسمة الحيوان إلى ناطق وغير ناطق، وقسمة الإنسان إلى مسلم وكافر، وقسمة الاسم إلى معرب ومبني، وقسمة الكل إلى أجزائه كقسمة العقار بين الشركاء وقسمة الكلام إلى اسم وفعل وحرف، ففي الأول انما اشتركت الأقسام فى أمر كلي فضلا عن أن يكون الخالق والمخلوقون مشتركين في شيء موجود فى الخارج، وليس في الخارج صفة لله يماثل بها صفة المخلوق، بل كل مايوصف به الرب تعالى فهو مخالف بالحد والحقيقة؛ لما يوصف به المخلوق أعظم مما يخالف المخلوق المخلوق وإذا كان المخلوق

مخالفاً بذاته وصفاته لبعض المخلوقات في الحد والحقيقة، فمخالفة الخالق لكل مخلوق في الحقيقة أعظم من مخالفة أي مخلوق فرض لأي مخلوق فرض، ولكن علمه ثبت له حقيقة العلم، ولقدرته حقيقة القدرة،ولكلامه حقيقة الكلام،كما ثبت لذاته حقيقة الذاتية، ولوجوده حقيقة الوجود، وهو أحق بأن تثبت له صفات الكمال على الحقيقة من كل ما سواه.

فهذا هو المراد بقولنا :علمه يشارك علم المخلوق فى الحقيقة، فليس مايسمع من العباد من أصواتهم مشابهاً ولا مماثلا لما سمعه موسى من صوته ولا كما يشبه ويماثل غير ذلك من صفاته لصفات المخلوقين، فهذا فى نفس تكلمه سبحانه وتعالى بالقرآن،والقرآن عند الامام احمد وسائر أئمة السنة كلامه تكلم به، وتكلم بالقرآن العربي بصوت نفسه، وكلم موسى بصوت نفسه الذي لايماثل شيئاً من اصوات العباد.

ثم إذا قرأنا القرآن فانما نقرؤه باصواتنا المخلوقة التى لاتماثل صوت الرب، فالقرآن الذي نقرؤه هو كلام الله مبلغا عنه لا مسموعا منه، وانما نقرؤه بحركاتنا واصواتنا، الكلام كلام الباري، والصوت صوت القارىء، كما دل على ذلك الكتاب والسنة مع العقل، قال الله تعالى: (وان احد من المشركين استجارك فاجره حتى يسمع كلام الله ثم أبلغه مأمنه)[1] وقال النبى صلى الله عليه وسلم: «زينوا القرآن بأصواتكم»[2] وقال الامام احمد فى قول النبى صلى الله عليه وسلم:«ليس منا من لم يتغن بالقرآن»[3] قال، يزينه ويحسنه بصوته، كما قال: «زينوا القرآن بأصواتكم».

---

١ ـ سورة التوبة آية رقم ٦

٢ ـ سبق تخريج الحديث قريبا من هذا

٣ ـ سبق تخريج الحديث قريبا من هذا

فنص احمد على ماجاء به الكتاب والسنة انا نقرأ القرآن باصواتنا والقرآن كلام الله كله لفظه ومعناه،سمعه جبريل من الله وبلغه إلى محمد صلى الله عليه وسلم وسمعه محمد منه، وبلغه محمد إلى الخلق،والخلق يبلغه بعضهم إلى بعض،ويسمعه بعضهم من بعض،ومعلوم انهم إذا سمعوا كلام النبى صلى الله عليه وسلم وغيره فبلغوه عنه،كما قال:«نضر الله امرءاً سمع منا حديثاً فبلغه كما سمعه»[1] فهم سمعوا اللفظ من الرسول بصوت نفسه بالحروف التى تكلم بها،وبلغوا لفظه باصوات انفسهم، وقد علم الفرق بين من يروي الحديث بالمعني لا باللفظ، واللفظ المبلغ هو لفظ الرسول وهو كلام الرسول؛ فان كان صوت المبلغ ليس صوت الرسول، وليس ماقام بالرسول من الصفات والاعراض فارقته وما قامت بغيره؛بل ولا تقوم الصفة والعرض بغير محله،وإذا كان هذا معقولا فى صفات المخلوقين فصفات الخالق اولى بكل صفة كمال،وأبعد عن كل صفة نقص،والتباين الذي بين صفة الخالق والمخلوق اعظم من التباين الذي بين صفة مخلوق ومخلوق،وامتناع الاتحاد والحلول بالذات للخالق وصفاته فى المخلوق أعظم من الاتحاد والحلول بالذات للمخلوق وصفاته في المخلوق، وهذه جمل قد بسطت في مواضع أخر.

هذا مع ان احتجاج الجهمية والمعتزلة بان كلام المخلوق بقوله: (يايحيى خذ الكتاب بقوة)[2] مثل كلام الخالق غلط باتفاق الناس حتى عندهم،فان الذين يقولون هو مخلوق يقولون انه خلقه فى بعض الاجسام،اما الهواء أو غيره،كما يقولون:انه خلق الكلام فى نفس الشجرة فسمعه موسى.

١ـ سبق تخريج الحديث قريبا من هذا

٢ ـ سورة مريم آية رقم ١٢

ومعلوم ان تلك الحروف والاصوات التى خلقها الله ليست مماثلة لما يسمع من العبد،وتلك هي كلام الله المسموع منه عندهم؛كما ان اهل السنة يقولون الذي تكلم هو الله بمشيئته، وليس ذلك مماثلاً لصوت العبد.

واما القائلون بقدم الكلام المعين سواء كان معنى أو حروفا او اصواتا، فيقولون:خلق لموسى ادراكا ادرك به ذلك القديم،وبكل حال فكلام المتكلم إذا سمع من المبلغ عنه [غير ما قام بنفس المتكلم المنشيء] فكيف[لا] يكون ذلك في كلام الله تعالى؟.

فيجب على الإنسان فى"مسألة الكلام "ان يتحرى أصلين :(احدهما)تكلم الله بالقرآن وغيره،هل تكلم به بمشيئته وقدرته أم لا؟وهل تكلم بكلام قائم بذاته أم خلقه فى غيره؟(والثانى)تبليغ ذلك الكلام عن الله،وأنه ليس مما يتصف به الثانى،وان كان المقصود بالتبليغ الكلام المبلغ.وبسط هذا له موضع آخر.

وأيضا فهذان المتنازعان إذا قال احدهما: انها قديمة، وليس لها مبتدأ، وشكلها ونقطها محدث،وقال الآخر:انها ليست بكلام الله وانها مخلوقة بشكلها ونقطها،قد يفهم من هذا أنهما ارادا بالحروف المكتوبة دون المنطوقة، والحروف المكتوبة قد تنازع الناس فى شكلها ونقطها،فان الصحابة لما كتبوا المصاحف كتبوها غير مشكولة ولا منقوطة؛لأنهم انما كانوا يعتمدون فى القرآن على حفظه فى صدورهم لا على المصاحف، وهو منقول بالتواتر محفوظ فى الصدور،ولو عدمت المصاحف لم يكن للمسلمين بها حاجة،فان المسلمين ليسوا كاهل الكتاب الذين يعتمدون على الكتب التى تقبل التغير،والله أنزل القرآن على محمد فتلقاه تلقياً وحفظه فى قلبه،لم

ينزله مكتوبا كالتوراة،وأنزله منجما مفرقا ليحفظ فلا يحتاج إلى كتاب،كما قال تعالى: (وقالوا لولا نزل عليه القرآن جملة واحداة)[1]الآية،وقال تعالى (وقرآنا فرقناه)[2] الآية،وقال تعالى: (ولاتعجل بالقرآن)[3] الآية،وقال تعالى:ان علينا جمعه وقرآنه)[4] الآية

وفى الصحيح عن ابن عباس قال:كان النبى صلى الله عليه وسلم يعالج من التنزيل شدة،وكان يحرك شفتيه، فقال ابن عباس:أنا أحركهما لك كما كان النبى صلى الله عليه وسلم يحركهما ،فحرك شفتيه فأنزل الله تعالى: (لاتحرك به لسانك لتعجل به ان علينا جمعه وقرآنه)[5] قال جمعه فى صدرك ثم تقرأه: (فإذا قرأناه فاتبع قرآنه)[6] قال: فاستمع له وانصت (ثم ان علينا بيانه)[7]أي نبينه بلسانك. فكان النبى صلى الله عليه وسلم إذا أتاه جبريل استمع،فاذا انطلق جبريل قرأه النبى صلى الله عليه وسلم كما أقرأه؛ فلهذا لم تكن الصحابة ينقطون المصاحف ويشكلونها ،وأيضا كانوا عربا لايلحنون؛ فلم يحتاجوا إلى تقييدها بالنقط،وكان فى اللفظ الواحد قراءتان يقرأ بالياء والتاء مثل:يعملون وتعملون.فلم يقيدوه باحدهما ليمنعوه من الأخرى.

١ـ سورة الفرقان آية رقم ٣٢
٢ـ سورة الاسراء آية رقم ١٠٦
٣ـ سورة طه آية رقم ١١٤
٤ ـ سورة القيامة آية رقم ١٧
٥ـ سورة القيامة آية رقم ١٧
٦ـ سورة القيامة آية رقم ١٨
٧ ـ سورة القيامة آية رقم ١٩

ثم انه فى زمن التابعين لما حدث اللحن صار بعض التابعين يشكل المصاحف وينقطها، وكانوا يعملون ذلك بالحمرة،ويعملون الفتح بنقطة حمراء فوق الحرف، والكسرة بنقطة حمراء تحته، والضمة بنقطة حمراء امامه، ثم مدوا النقط وصاروا يعملون الشدة بقولك «شد»،ويعملون المدة بقولك «مد»، وجعلوا علامة الهمزة تشبه العين؛ لأن الهمزة أخت العين، ثم خففوا ذلك حتى صارت علامة الشدة مثل رأس السين،وعلامة المدة مختصرة كما يختصر أهل الديوان الفاظ العدد وغير ذلك، وكما يختصر المحدثون أخبرنا وحدثنا، فيكتبون أول اللفظ وآخره على شكل «أنا» وعلى شكل «ثنا».

وتنازع العلماء هل يكره تشكيل المصاحف وتنقيطها؟على قولين معروفين وهما روايتان عن الامام احمد،لكن لانزاع بينهم ان المصحف إذا شكل ونقط وجب احترام الشكل والنقط،كما يجب احترام الحرف،ولا تنازع بينهم ان مداد النقطة والشكل مخلوق،كما أن مداد الحرف مخلوق، ولا نزاع بينهم ان الشكل يدل على الاعراب،والنقط يدل على الحروف، وان الاعراب من تمام الكلام العربي.

ويروى عن أبى بكر وعمر انهما قالا:حفظ إعراب القرآن أحب الينا من حفظ بعض حروفه، ولاريب ان النقطة والشكلة بمجردهما لاحكم لهما ولاحرمة ولا ينبغي أن يجرد الكلام فيهما، ولا ريب أن إعراب القرآن العربي من تمامه، ويجب الاعتناء باعرابه، والشكل يبين إعرابه كما تبين الحروف المكتوبة للحرف المنطوق، كذلك يبين الشكل المكتوب للاعراب المنطوق.

فهذه المسائل إذا تصورها الناس على وجهها تصوراً تاما ظهر لهم الصواب،وقلت الاهواء والعصبيات،وعرفوا موارد النزاع،فمن تبين له الحق

فى شيء من ذلك اتبعه ،ومن خفي عليه توقف حتى يبينه الله له وينبغي له أن يستعين على ذلك بدعاء الله، ومن أحسن ذلك مارواه مسلم فى صحيحه عن عائشة أن النبى صلى الله عليه وسلم كان إذا قام من الليل يصلي يقول: «اللهم رب جبريل وميكائيل وإسرافيل فاطر السموات والأرض عالم الغيب والشهادة أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون،اهدنى لما اختلف فيه من الحق بإذنك انك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم»[1].

وقول القائل الآخر كلامه كتب بها :يقتضى انه أراد بالحروف ما يتناول المنطوق والمكتوب، كما قال النبى صلى الله عليه وسلم: «من قرأ القرآن فله بكل حرف عشر حسنات، أما إنى لا أقول الم حرف، ولكن الف حرف ولام حرف وميم حرف» قال الترمذي:حديث صحيح[2].فهنا لم يرد النبى صلى الله عليه وسلم بالحرف نفس المداد وشكل المداد وانما اراد الحرف المنطوق. وفى مراده بالحرف قولان: قيل هذا اللفظ المفرد.وقيل أراد صلى الله عليه وسلم بالحرف الاسم، كما قال: ألف حرف، ولام حرف، وميم حرف.

١- الحديث أخرجه الامام مسلم فى كتاب صلاة المسافرين ٢٠٠ (٧٧٠) حدثنا عكرمة ابن عمار حدثنا يحيى بن ابى كثير، حدثنى أبو سلمة بن عبد الرحمن بن عوف قال: سألت عائشة ام المؤمنين - رضى الله عنها- بأى شيء كان نبى الله- صلى الله عليه وسلم- يفتتح صلاته إذا قام من الليل قالت: وذكره. واخرجه النسائى فى قيام الليل ١٢ وابن ماجة فى الاقامة ١٨٠ واحمد بن حنبل فى المسند ٦:١٥٦ (حلبى).

٢ ـ رواية الترمذى فى كتاب فضائل القرآن ٢٩١٠ بسنده عن أيوب ابن موسى قال: سمعت محمد بن كعب القرظى قال: سمعت عبد الله ابن مسعود قال:قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وذكره قال الترمذى:هذا حديث حسن صحيح.

ورواه الدارمى فى فضائل القرآن

ولفظ «الحرف والكلمة» له في لغة العرب التي كان النبي صلى الله عليه وسلم يتكلم بها معنى،وله في اصطلاح النحاة معنى،فالكلمة في لغتهم هي الجملة التامة، الجملة الاسمية أو الفعلية،كما قال النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث المتفق على صحته:«كلمتان خفيفتان على اللسان، ثقيلتان في الميزان، حبيبتان إلى الرحمن:سبحان الله وبحمده،سبحان الله العظيم»[١] وقال صلى الله عليه وسلم:«إن أصدق كلمة قالها الشاعر كلمة لبيد:ألا كل شيء ما خلا الله باطل[٢] وقال:"ان العبد ليتكلم بالكلمة من رضوان الله ما يظن ان تبلغ ما بلغت يكتب له بها رضوانه إلى يوم القيامة، وإن العبد ليتكلم بالكلمة من سخط الله ما يظن أن تبلغ ما بلغت يكتب له بها سخطه إلى يوم القيامة»[٣] وقال لأم المؤمنين «لقد قلت بعدك اربع كلمات لو وزنت بما قلت منذ اليوم لوزنتهن: سبحان الله عدد خلقه، سبحان الله رضا نفسه، سبحان الله زنة عرشه سبحان الله مداد كلماته»[٤] ومنه قوله تعالى:(كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذبا)[٥]

١- الحديث أخرجه الامام البخاري في كتاب التوحيد ٧٥٦٣ عن عمارة بن القعقاع عن ابي زرعة عن ابي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال:قال النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ و ذكره. وأخرجه مسلم في الذكر ٣٠ والترمذي في الدعوات ٥٩ وابن ماجة في الأدب ٥٦ واحمد بن حنبل في المسند ٢:٢٣٢ (حلبي).

٢- سبق تخريج هذا الحديث.

٣- الحديث أخرجه البخاري في كتاب الرقاق ٢٣ والترمذي في الزهد ١٢ وابن ماجه في كتاب الفتن ١٢ وصاحب الموطأ في الكلام ٥ واحمد بن حنبل في المسند ٢:١٣٤، ٤٦٩ (حلبي).

٤- الحديث أخرجه الترمذي في كتاب الدعوات ٣٥٥٥- عن ابن عباس عن جويرية بنت الحارث أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ مر عليها وهي في مسجد ثم مر عليها قريباً من نصف النهار فقال لها: مازلت على حالك..؟ فقالت: نعم. قال:الا اعلمك كلمات تقولينها ثم ذكره.

٥ ـ سورة الكهف آية رقم ٥

وقوله: (وألزمهم كلمة التقوى وكانوا أحق بها وأهلها)[١] وقوله تعالى: (ياأهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم أن لانعبد إلا الله)[٢] وقوله: (وجعلها كلمة باقية فى عقبه لعلهم يرجعون)[٣] وقوله: (وجعل كلمة الذين كفروا السفلى وكلمة الله هي العليا)[٤] وقول النبى صلى الله عليه وسلم: "من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو فى سبيل الله»[٥] ونظائره كثيرة .

ولايوجد قط فى الكتاب والسنة وكلام العرب لفظ الكلمة إلا والمراد به الجملة التامة. فكثير من النحاة أو أكثرهم لا يعرفون ذلك؛ بل يظنون ان اصطلاحهم فى مسمى الكلمة ينقسم إلى اسم وفعل وحرف هو لغة العرب، والفاضل منهم يقول:

وكلمة بها كلام قد يؤم[٦]

ويقولون : العرب قد تستعمل الكلمة فى الجملة التامة وتستعملها فى المفرد، وهذا غلط لايوجد قط فى كلام العرب لفظ الكلمة إلا للجملة التامة.

١ـ سورة الفتح آية رقم ٢٦

٢ ـ سورة آل عمران آية رقم ٦٤

٣ ـ سورة الزخرف آية رقم ٢٨

٤- سورة التوبة آية رقم ٤٠

٥ - الحديث أخرجه البخارى فى كتاب التوحيد ٧٤٥٨ عن الاعمش عن أبى وائل عن ابى موسى قال: جاء رجل إلى النبى- صلى الله عليه وسلم- وذكره. وأخرجه الامام مسلم فى كتاب الامارة ١٤٩-١٥١ وأبو داود فى كتاب الجهاد ٢٤ والنسائى فى الجهاد ٢١ وابن ماجة فى الجهاد ١٣ واحمد بن حنبل فى المسند ٤: ٣٩٢ (حلبى).

٦- هذه الشطرة من ألفية الامام الحجة الثبت ابى عبد الله محمد جمال الدين بن مالك ت ٦٧٢هـ وصدر البيت : « واحده كلمة والقول عم »

ومثل هذا اصطلاح المتكلمين على ان القديم هو مالا أول لوجوده أو مالم يسبقه عدم،ثم يقول بعضهم:وقد يستعمل القديم في المتقدم على غيره، سواء كان أزلياً أو لم يكن، كما قال تعالى:(حتى عاد كالعرجون القديم)[1] وقال:(وإذ لم يهتدوا به فسيقولون هذا إفك قديم)[2] وقوله تعالى:(قالوا تالله انك لفي ضلالك القديم)[3] وقال:(أفرأيتم ماكنتم تعبدون أنتم وآباؤكم الاقدمون)[4] وتخصيص القديم بالأول عرف اصطلاحي،ولا ريب انه أولى بالقدم في لغة العرب؛ولهذا كان لفظ المحدث في لغة العرب بازاء القديم، قال تعالى:(مايأتيهم من ذكر من ربهم محدث)[5] وهذا يقتضي ان الذي نزل قبله ليس بمحدث بل متقدم وهذا موافق للغة العرب التي نزل بها القرآن. ونظير هذا لفظ «القضاء» فانه في كلام الله وكلام الرسول المراد به إتمام العبادة وإن كان ذلك في وقتها، كما قال تعالى:(فإذاقضيت الصلاة فانتشروا في الأرض وابتغوا من فضل الله)[6] وقوله:(قضيتم مناسككم)[7] ثم اصطلح طائفة من الفقهاء فجعلوا لفظ «القضاء» مختصاً بفعلها في غير وقتها، ولفظ «الأداء» مختصاً بما يفعل في الوقت، وهذا التفريق لايعرف قط في كلام الرسول،ثم يقولون قد يستعمل لفظ القضاء في الأداء، فيجعلون اللغة التي نزل القرآن بها من النادر.

١- سورة يس آية رقم ٣٩
٢- سورة الأحقاف آية رقم ١١
٣ - سورة يوسف آية رقم ٩٥
٤- سورة الشعراء اية رقم ٧٦
٥ - سورة الأنبياء آية رقم ٢
٦ - سورة الجمعة آية رقم ١٠
٧ - سورة البقرة آية رقم ٢٠٠

ولهذا يتنازعون فى مراد النبى صلى الله عليه وسلم: «فما أدركتم فصلوا وما فاتكم فاقضوا»[1] وفى لفظ: «فأتموا» فيظنون ان بين اللفظين خلافا وليس الأمر كذلك؛ بل قوله: «فاقضوا» كقوله: «فأتموا» لم يرد باحدهما الفعل بعد الوقت؛ بل لايوجد فى كلام الشارع أمر بالعبادة فى غير وقتها، لكن الوقت وقتان: وقت عام ووقت خاص لأهل الأعذار: كالنائم والناسي إذا صليا بعد الاستيقاظ والذكر فانما صليا فى الوقت الذي أمر الله به، فان هذا ليس وقتا فى حق غيرهما.

ومن أعظم أسباب الغلط فى فهم كلام الله ورسوله ان ينشأ الرجل على اصطلاح حادث، فيريد أن يفسر كلام الله بذلك الاصطلاح ويجعله على تلك اللغة التى اعتادها.

وماذكر فى مسمى «الكلام» ماذكره سيبوية فى كتابه عن العرب، فقال: واعلم «ان» فى كلام العرب انما وقعت على أن تحكى وانما يحكى بعد القول ما كان كلاما قولا؛ وإلا فلا يوجد قط لفظ الكلام والكلمة إلا للجملة التامة فى كلام العرب، ولفظ الحرف يراد به الاسم والفعل وحروف المعانى واسم حروف الهجاء: ولهذا سأل الخليل اصحابه: كيف تنطقون بالزاي من زيد؟ فقالوا: زاي، فقال نطقتم بالاسم، وانما الحرف زه؛ فبين الخليل ان هذه التى تسمى حروف الهجاء هي اسماء.

١- الحديث أخرجه الامام البخارى فى كتاب الآذان ٢٠ - ٦٣٥ - حدثنا شيبان عن يحيى عن عبد الله بن أبى قتادة عن أبيه قال: وذكره بلفظ (فاتموا) واخرجه فى كتاب الجمعة ١٨ والترمذى فى الصلاة ١٢٧ والنسائى فى الامامة ٢ : ٥٧ وابن ماجة فى المساجد ١٤ وصاحب الموطأ فى النداء ٤.

وكثيراً ما يوجد فى كلام المتقدمين هذا «حرف من الغريب» يعبرون بذلك عن الاسم التام، فقوله صلى الله عليه وسلم: «فله بكل حرف» مثله بقوله: «ولكن الف حرف، ولام حرف، وميم حرف». وعلى نهج ذلك: وذلك حرف، والكتاب حرف، ونحو ذلك. وقد قيل: ان ذلك احرف والكتاب احرف، وروي ذلك مفسراً فى بعض الطرق.

والنحاة اصطلحوا اصطلاحاً خاصاً، فجعلوا لفظ «الكلمة» يراد به الاسم أو الفعل أو الحرف الذي هو من حروف المعانى؛ لأن سيبويه قال فى أول كتابه: الكلام اسم وفعل وحرف جاء لمعنى ليس باسم ولافعل. فجعل هذا حرفا خاصاً، وهو الحرف الذي جاء لمعنى ليس باسم ولا فعل؛ لأن سيبويه كان حديث العهد بلغة العرب وقد عرف انهم يسمون الاسم أو الفعل حرفا، فقيد كلامه، بان قال: وقسموا الكلام إلى اسم وفعل وحرف جاء لمعنى ليس باسم ولافعل، وقسموا الكلام إلى اسم وفعل وحرف جاء لمعنى ليس باسم ولا فعل، وأراد سيبويه أن الكلام ينقسم إلى ذلك قسمة الكل إلى اجزائه لاقسمة الكلي إلى جزئياته كما يقول الفقهاء بان القسمة كما يقسم العقار والمنقول بين الورثة، فيعطى هؤلاء قسم غير قسم هؤلاء، كذلك الكلام هو مؤلف من الأسماء والأفعال وحروف المعانى فهو مقسوم إليها، وهذا التقسيم غير تقسيم الجنس إلى أنواعه، كما يقال: الاسم ينقسم إلى معرب ومبنى.

وجاء الجزولي وغيره فاعترضوا على النحاة فى هذا ولم يفهموا كلامهم، فقالوا: كل جنس قسم إلى أنواعه او أشخاص أنواعه، فاسم المقسوم صادق على الأنواع والأشخاص والا فليست أقساماً له، وارادوا بذلك الاعتراض

على قول الزجاج: الكلام اسم وفعل وحرف. والذي ذكره الزجاج هو الذي ذكره سيبويه وسائر أئمة النحاة، وأرادوا بذلك القسمة الأولى المعروفة، وهي قسمة الأمور الموجودة إلى أجزائها كما يقسم العقار والمال، ولم يريدوا بذلك قسمة الكليات- التى لاتوجد كليات إلا فى الذهن - كقسمة الحيوان إلى ناطق وبهيم، وقسمة الاسم إلى المعرب والمبني. فان المقسم هنا هو معنى عقلي كلي لا يكون كلياً إلا فى الذهن.

فصل
فى أنواع الحروف

ولفظ « الحرف» يراد به حروف المعانى التى هي قسيمة الأسماء والأنعال:مثل حروف الجر والجزم، وحرفي التنفيس،والحروف المشبهة للأفعال مثل «إنَّ وأخواتها » وهذه الحروف لها أقسام معروفة فى كتب العربية، كما يقسمونها بحسب الاعراب إلى مايختص بالأسماء وإلى مايختص بالافعال، ويقولون:مااختص باحد النوعين ولم يكن كالجزء منه كان عاملاً كما تعمل حروف الجر وإن واخواتها فى الأسماء، وكما تعمل النواصب والجوازم فى الأفعال؛ بخلاف حرف التعريف وحرفي التنفيس:كالسين وسوف فانهما لايعملان لأنهما كالجزء من الكلمة، ويقولون: كان القياس فى «ما » انها لاتعمل لأنها تدخل فى الجمل الاسمية والفعلية، ولكن أهل الحجاز أعملوها لمشابهتها لليس وبلغتهم جاء القرآن فى قوله: (ماهذا بشراً)[1] (ماهن أمهاتهم)[2].

ويقسمون «الحروف» باعتبار معانيها إلى حروف استفهام،وحروف نفي، حروف تحضيض وغير ذلك، ويقسمونها باعتبار بنيتها كما تقسم الأفعال والأسماء إلى مفرد وثنائى، وثلاثى ورباعى وخماسي. فاسم الحرف هنا منقول عن اللغة إلى عرف النحاة بالتخصيص، والا فلفظ الحرف فى اللغة يتناول الأسماء والحروف والأفعال،وحروف الهجاء تسمى حروفاً وهي

١- سورة يوسف آية رقم ٣١

٢- سورة المجادلة آية رقم ٢

أسماء كالحروف المذكورة في أوائل السور، لأن مسماها هو الحرف الذي هو حرف الكلمة.

وتنقسم تقسيماً آخر إلى حروف حلقية وشفهية، والمذكورة في أوائل السور في القرآن هي نصف الحروف، واشتملت من كل صنف على أشرف نصفيه: على نصف الحلقية، والشفهية، والمطبقة؛ والمصمتة، وغير ذلك من أجناس الحروف.

فان لفظ «الحرف» أصله في اللغة هو الحد والطرف كما يقال: حروف الرغيف وحرف الجبل، قال الجوهري: حرف كل شيء طرفه وشفيره وحده، ومنه حرف الجبل وهو أعلاه المحدد، ومنه قوله تعالى: (ومن الناس من يعبد الله على حرف) إلى قوله: (والآخرة)[1] فان طرف الشيء إذا كان الإنسان عليه لم يكن مستقراً؛ فلهذا كان من عبد الله على السراء دون الضراء عابداً له على حرف: تارة يظهره وتارة ينقلب على وجهه،كالواقف على حرف الجبل، فسميت حروف الكلام حروفاً لأنها طرف الكلام وحده ومنتهاه، إذ كان مبدأ الكلام من نفس المتكلم، ومنتهاه حده وحرفه القائم بشفتيه ولسانه؛ ولهذا قال تعالى:(ألم نجعل له عينين ولساناً وشفتين)[2] فلفظ الحرف يراد به هذا وهذا وهذا.

ثم إذا كتب الكلام في المصحف سموا ذلك حروفاً، فيراد بالحرف الشكل المخصوص ولكل أمة شكل مخصوص هي خطوطهم التى يكتبون بها كلامه، ويراد به المادة، ويراد به مجموعهما، وهذه الحروف المكتوبة تطابق

١- سورة الحج آية رقم ١١

٢- سورة البلد آية رقم ٩

الحروف المنطوقة وتبينها وتدل عليها فسميت باسمائها؛ إذ كان الإنسان يكتب اللفظ بقلمه؛ولهذا كان أول ماأنزل الله على نبيه (اقرأ باسم ربك الذي خلق)إلى قوله: (مالم يعلم)[1] فبين سبحانه في أول ماأنزله انه سبحانه هو الخالق الهادي الذي خلق فسوى، والذي قدر فهدى، كما قال موسى: (ربنا الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى)[2] فالخلق يتناول كل ماسواه من المخلوقات ثم خص الإنسان فقال: (خلق الإنسان من علق)[3]. ثم ذكر انه علم؛ فان الهدى والتعليم هو كمال المخلوقات.

والعلم له «ثلاث مراتب» علم بالجنان، وعبارة باللسان، وخط بالبنان؛ ولهذا قيل: أن لكل شيء أربع وجودات: وجود عيني، وعلمي، ولفظي، ورسمي. وجود في الأعيان، ووجود في الأذهان، واللسان، والبنان؛ لكن الوجود العيني هو وجود الموجودات في أنفسها والله خالق كل شيء، وأما الذهني الجناني فهو العلم بها الذي في القلوب، والعبارة عن ذلك هو اللساني، وكتابة ذلك هو الرسمي البناني، وتعليم الخط يستلزم تعليم العبارة واللفظ، وذلك يستلزم تعليم العلم فقال: (علم بالقلم)لأن التعليم بالقلم يستلزم المراتب الثلاث،وأطلق التعليم، ثم خص، فقال: (علم الإنسان مالم يعلم)[4].

١- سورة العلق آية رقم ١ - ٥
٢- سورة طه آية رقم ٥٠
٣- سورة العلق آية رقم ٢
٤- سورة العلق آية رقم ٥

وقد تنازع الناس فى وجود كل شيء، هل هو عين ماهيته أم لا؟ وقد بسط الكلام على ذلك فى غير هذا الموضع، وبين أن الصواب من ذلك انه قد يراد بالوجود ماهو ثابت في الأعيان، وبالماهية مايتصور فى الأذهان، فعلى هذا فوجود الموجودات الثابت فى الأعيان ليس هو ماهيتها المتصورة في الأذهان؛ لكن الله خلق الموجود الثابت فى الأعيان وعلم الماهيات المتصورة فى الأذهان، كما أنزل بيان ذلك فى أول سورة أنزلها من القرآن، وقد يراد بالوجود والماهية كلاهما: ماهو متحقق فى الأعيان، وماهو متحقق فى الأذهان، فإذا أريد بهذا وهذا ماهو متحقق في الأعيان أو ماهو متصور في الأذهان، فليس هما في الأعيان اثنان؛ بل هذا هو هذا. وكذلك الذهن إذا تصور شيئاً فتلك الصورة هي المثال الذي تصورها، وذلك هو وجودها الذهني الذي تتصوره الأذهان؛ فهذا فصل الخطاب في هذا الباب.

ومن تدبر هذه المسائل وأمثالها تبين له أن أكثر اختلاف العقلاء من جهة اشتراك الأسماء (ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور).

وقد بسط الكلام على أصول هذه المسائل وتفاصيلها فى مواضع أخرى؛ فان الناس كثر نزاعهم فيها حتى قيل: «مسألة الكلام» حيرت عقول الانام. ولكن سؤال هذين لايحتمل البسط الكثير فانهما سألا بحسب ماسمعاه واعتقداه وتصوراه، فإذا عرف السائل أصل مسألته ولوازمها ومافيها من الألفاظ المجملة والمعانى المشتبهة، تبين له أن من الخلق من تكلم في مثل هذه الأسماء بالنفي والاثبات من غير تفصيل، فلابد له أن يقابله آخر بمثل اطلاقه.

ومن الاصول الكلية أن يعلم أن الألفاظ «نوعان»: نوع جاء به الكتاب والسنة فيجب على كل مؤمن أن يقر بموجب ذلك، فيثبت ما أثبته الله

ورسوله وينفى مانفاه الله ورسوله، فاللفظ الذي أثبته الله، أو نفاه حق؛ فان الله يقول الحق وهو يهدى السبيل، والألفاظ الشرعية لها حرمة. ومن تمام العلم أن يبحث عن مراد رسوله بها ليثبت ماأثبته وينفي مانفاه من المعاني، فانه يجب علينا أن نصدقه فى كل ماأخبر، ونطيعه فى كل ماأوجب وأمر، ثم إذا عرفنا تفصيل ذلك كان ذلك من زيادة العلم والإيمان، وقد قال تعالى: (يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات)[1].

وأما الألفاظ التى ليست فى الكتاب والسنة ولا اتفق السلف على نفيها أو إثباتها فهذه ليس على أحد أن يوافق من نفاها أو أثبتها حتى يستفسر عن مراده، فإن أراد بها معنى يوافق خبر الرسول أقر به، وان أراد بها معنى يخالف خبر الرسول أنكره.

ثم التعبير عن تلك المعاني ان كان في ألفاظه اشتباه او اجمال عبر بغيرها او بين مراده بها، بحيث يحصل تعريف الحق بالوجه الشرعي؛ فان كثيرا من نزاع الناس سببه ألفاظ مجملة مبتدعة، ومعان مشتبهة، حتى تجد الرجلين يتخاصمان ويتعاديان على اطلاق ألفاظ ونفيها، ولو سئل كل منهما عن معنى ماقاله لم يتصوره فضلاً عن أن يعرف دليله، ولو عرف دليله لم يلزم أن من خالفه يكون مخطئاً بل يكون فى قوله نوع من الصواب، وقد يكون هذا مصيباً من وجه وهذا مصيباً من وجه، وقد يكون الصواب في قول ثالث.

وكثير من الكتب المصنفة فى «أصول علوم الدين» وغيرها تجد الرجل المصنف فيها فى «المسألة العظيمة» كمسألة القرآن والرؤية، والصفات

١- سورة المجادلة آية رقم ١١

والمعاد، وحدوث العالم وغير ذلك يذكر أقوالاً متعددة. والقول الذي جاء به الرسول وكان عليه سلف الأمة ليس فى تلك الكتب؛ بل ولا عرفه مصنفوها ولا شعروا به، وهذا من أسباب توكيد التفريق والاختلاف بين الأمة، وهو مما نهيت الأمة عنه، كما فى قوله تعالى: (ولاتكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ماجاءهم البينات وأولئك لهم عذاب عظيم. يوم تبيض وجوه وتسود وجوه)[1]. قال ابن عباس: تبيض وجوه أهل السنة والجماعة وتسود وجوه أهل البدعة والفرقة.

وقد قال تعالى:(إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً لست منهم فى شيء إنما أمرهم إلى الله)[2] وقال تعالى:(وان الذين اختلفوا فى الكتاب لفي شقاق بعيد)[3]. وقد خرج النبى صلى الله عليه وسلم إلى أصحابه وهم يتنازعون فى القدر، وهذا يقول ألم يقل الله كذا؟ وهذا يقول ألم يقل الله كذا؟ فقال: «أبهذا أمرتم؟ أم إلى هذا دعيتم؟ إنما هلك من كان قبلكم بهذا: أن ضربوا كتاب الله بعضه ببعض، انظروا ما أمرتم به فافعلوه، وما نهيتم عنه فاجتنبوه»[4]. ومما أمر الناس به أن يعملوا بمحكم القرآن، ويؤمنوا بمتشابهه.

قال شيخ الاسلام ابن تيمية: وقد كتبت فى أصول هذه المسائل قواعد متعددة وأصول كثيرة، ولكن هذا الجواب كتب وصاحبه مستوفز فى قعدة واحدة، والله تعالى يهدينا وسائر اخواتنا لما يحبه ويرضاه. والحمد لله رب العالمين.

١- سورة آل عمران آية رقم ١٠٥ - ١٠٦

٢ - سورة الأنعام آية رقم ١٥٩

٣- سورة البقرة آية رقم ١٧٦

٤ - الحديث أخرجه الترمذى فى كتاب القدر ٣١٣٣ بسنده عن هشام ابن حسان عن محمد بن سيرين عن أبى هريرة قال: وذكره. قال الترمذى : وفى الباب عن عمر، وعائشة وأنس، وهذا حديث غريب لانعرفه إلا من هذا الوجه من حديث صالح المرى وصالح: له غرائب ينفرد بها.

وقال رحمه الله

فصل

القرآن العظيم كلام الله

فى بيان أن القرآن العظيم كلام الله العزيز العليم، ليس شيء منه كلاماً لغيره لا جبريل ولا محمد ولاغيرهما، قال الله تعالى: (فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم. إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون، إنما سلطانه على الذين يتولونه والذين هم به مشركون. وإذا بدلنا آية مكان آية والله أعلم بما ينزل قالوا إنما أنت مفتر بل أكثرهم لايعلمون. قل نزله روح القدس من ربك بالحق ليثبت الذين آمنوا وهدى وبشرى للمسلمين، ولقد نعلم انهم يقولون إنما يعلمه بشر، لسان الذي يلحدون إليه أعجمي، وهذا لسان عربي مبين)[1].

فأمره أن يقول: (نزله روح القدس من ربك بالحق) فان الضمير فى قوله -(قل نزله) عائد على مافى قوله: (بما ينزل) والمراد به القرآن، كما يدل عليه سياق الكلام وقوله: (والله أعلم بما ينزل) فيه إخبار الله بأنه انزله؛ لكن ليس فى هذه اللفظة بيان أن روح القدس نزل به، ولا انه منزل منه.

ولفظ « الانزال» فى القرآن قد يرد مقيداً بالانزال منه: كنزول القرآن، وقد يرد مقيداً بالانزال من السماء ويراد به العلو؛ فيتناول نزول المطر من السحاب، ونزول الملائكة من عند الله وغير ذلك، وقد يرد مطلقاً فلا

١- سورة النحل اية رقم ٩٨ - ١٠٣

يختص بنوع من الانزال؛بل ربما يتناول الانزال من رؤوس الجبال، كقوله: (وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد)[1] والانزال من ظهور الحيوان كانزال الفحل الماء وغير ذلك. فقوله:(نزله روح القدس من ربك بالحق) بيان لنزول جبريل به من الله، فان روح القدس هنا هو جبريل؛ بدليل قوله: (من كان عدواً لجبريل فانه نزله على قلبك باذن الله)[2] وهو الروح الأمين كما فى قوله: (وإنه لتنزيل رب العالمين. نزل به الروح الأمين. على قلبك لتكون من المنذرين، بلسان عربي مبين)[3] وفى قوله (الأمين) دلالة على أنه مؤتمن على ماأرسل به، لايزيد فيه ولا ينقص منه، فان الرسول الخائن قد يغير الرسالة، كما قال فى صفته فى الآية الأخرى: (إنه لقول رسول كريم، ذي قوة عند ذي العرش مكين، مطاع ثم أمين)[4].

وفى قوله : (منزل من ربك) دلالة على أمور:

«منها» بطلان قول من يقول إنه كلام مخلوق خلقه فى جسم من الأجسام المخلوقة كما هو قول الجهمية الذين يقولون بخلق القرآن من المعتزلة والنجارية[5]

١- سورة الحديد آية رقم ٢٥

٢ - سورة البقرة آية رقم ٩٧

٣- سورة الشعراء آية رقم ١٩٢ - ١٩٥

٤ - سورة التكوير آية رقم ١٩ - ٢١

٥ - أصحاب الحسين بن محمد النجار واكثر معتزلة الري وماحواليها كانوا على مذهبه،وهم اختلفوا أصنافاً إلا أنهم لم يختلفوا فى المسائل التى عددناها أصولاً وهم برغوثية وزغفرانية، ومستدركه ، وافقوا المعتزلة فى نفى الصفات من العلم والقدرة والارادة والحياة والسمع والبصر، ووافقوا الصفاتية فى خلق الأعمال.

راجع الملل والنحل ١ : ١١٦ - ١١٧.

والضرارية[1] وغيرهم؛ فان السلف كانوا يسمون كل من نفى الصفات وقال ان القرآن مخلوق وان الله لا يرى في الآخرة جهمياً؛ فان «جهما» أول من ظهرت عنه بدعة نفي الأسماء والصفات، وبالغ في نفى ذلك، فله في هذه البدعة مزية المبالغة فى النفي والابتداء بكثرة اظهار ذلك والدعوة إليه، وان كان الجعد بن درهم قد سبقه الى بعض ذلك.

فان الجعد بن درهم أول من أحدث ذلك في الإسلام؛ فضحى به خالد بن عبد الله القسري بواسط يوم النحر. وقال: يا أيها الناس! ضحوا تقبل الله ضحاياكم، فانى مضح بالجعد بن درهم، انه زعم ان الله لم يتخذ إبراهيم خليلا، ولم يكلم موسى تكليماً، تعالى الله عما يقول الجعد بن درهم علواً كبيراً. ثم نزل فذبحه؛ ولكن المعتزلة وان وافقوا جهما في بعض ذلك فهم يخالفونه في مسائل غير ذلك: كمسائل القدر والايمان، وبعض مسائل الصفات أيضاً، ولا يبالغون في النفي مبالغته.

وجهم يقول: ان الله تعالى لايتكلم. أو يقول: انه يتكلم بطريق المجاز، وأما «المعتزلة» فيقولون انه يتكلم حقيقة؛ لكن قولهم في المعنى هو قول جهم،وجهم ينفي الأسماء أيضاً، كما نفتها الباطنية ومن وافقهم من الفلاسفة، وأما جمهور المعتزلة فلا ينفون الأسماء.

١- أصحاب ضرار بن عمرو، وحفص الفرد واتفاقهما فى التعطيل أنهما قالا البارى تعالى عالم قادر على معنى أنه ليس بجاهل ولا عاجز واثبتا لله تعالى ماهية لايعلمها إلا هو وقالا إن هذه المقالة محكية عن أبى حنيفة رحمه الله، واثبتا حاسة سادسة للإنسان يرى بها البارى تعالى يوم الثواب فى الجنة.

راجع الملل والنحل ١ : ١٢٠ - ١٢١

و (المقصود) ان قوله: (منزل من ربك) فيه بيان انه منزل من الله لا من مخلوق من المخلوقات؛ ولهذا قال السلف: منه بدأ، أي: هو الذي تكلم به لم يبتدأ من غيره، كما قالت الخلقية.

و«منها» ان قوله: (منزل من ربك) فيه بطلان قول من يجعله فاض على نفس النبى صلى الله عليه وسلم من العقل الفعال أو غيره، كما يقول ذلك طوائف من الفلاسفة والصابئة، وهذا القول أعظم كفراً وضلالا من الذي قبله.

و«منها» ان هذه الآية- ايضاً - تبطل قول من يقول ان القرآن العربى ليس منزل من الله بل مخلوق: اما فى جبريل او محمد او جسم آخر غيرهما، كما يقول ذلك الكلابية[1] والأشعرية[2] الذي يقولون ان القرآن العربى ليس هو كلام الله، وانما كلامه المعنى القائم بذاته، والقرآن العربى خلق ليدل على ذلك المعنى، ثم اما ان يكون خلق فى بعض الأجسام: الهواء أو غيره، أو الهمه جبريل فعبر عنه بالقرآن العربي، أو ألهمه محمد فعبر عنه بالقرآن العربى، أو يكون اخذه جبريل من اللوح المحفوظ أو غيره: فهذه الأقوال التى تقدمت هي تفريع على هذا القول، فإن هذا القرآن العربى لابد له من متكلم تكلم به أولا قبل ان يصل إلينا.

وهذا القول يوافق قول المعتزلة ونحوهم فى اثبات خلق القرآن العربى، وكذلك التوراة العبرية، ويفارقه من وجهين.

١- أصحاب بن كلاب وسيأتى الحديث عنهم مفصلاً بعد ذلك.

٢ - الأشعرية : أصحاب أبى الحسن الأشعرى على بن اسماعيل الأشعرى المنتسب إلى أبى موسى الأشعرى. قال أبو الحسن: البارى تعالى: عالم بعلم قادر بقدرة، حى بحياة مريد بارادة متكلم بكلام- قال وهذه صفات أزلية قائمة بذاته. راجع الملل والنحل ١ : ١٢٧ - ١٣٠

«أحدهما»« ان اولئك يقولون ان المخلوق كلام الله، وهؤلاء يقولون انه ليس كلام الله: لكن يسمى كلام الله مجازاً وهذا قول أئمتهم وجمهورهم وقالت طائفة من متأخريهم: بل لفظ الكلام يقال على هذا وهذا بالاشتراك اللفظي، لكن هذا ينقض أصلهم فى ابطال قيام الكلام بغير المتكلم به، وهم مع هذا لايقولون ان المخلوق كلام الله حقيقة، كما تقوله المعتزلة مع قولهم انه كلامه حقيقة، بل يجعلون القرآن العربى كلاما لغير الله وهو كلام حقيقة، وهذا شر من قول المعتزلة، وهذا حقيقة قول الجهمية، ومن هذا الوجه: فقول المعتزلة أقرب وقول الآخرين هو قول الجهمية المحضة، لكن المعتزلة فى المعنى موافقون لهؤلاء، وانما ينازعونهم فى اللفظ.

«الثانى» ان هؤلاء يقولون: لله كلام هو معنى قديم قائم بذاته، والخلقية يقولون: لايقوم بذاته كلام. ومن هذا الوجه فالكلابية خير من الخلقية فى الظاهر؛ لكن جمهور الناس يقولون: ان اصحاب هذا القول عند التحقيق لم يثبتوا له كلاما حقيقة غير المخلوق؛ فانهم يقولون: انه معنى واحد هو الأمر والنهى والخبر: فان عبر عنه بالعربية كان قرآناً، وان عبر عنه بالعبرية كان توراة، وان عبر عنه بالسريانية كان انجيلا. ومنهم من قال: هو خمس معان.

وجمهور العقلاء يقولون: ان فساد هذا معلوم بالضرورة بعد التصور التام، والعقلاء الكثيرون لايتفقون على الكذب وجحد الضرورات من غير تواطؤ واتفاق؛ كما فى الأخبار المتواترة. واما مع التواطؤ فقد يتفقون على الكذب عمدا، وقد يتفقون على جحد الضرورات وان لم يعلم كل منهم انه جاحد للضرورة، ولو لم يفهم حقيقة القول الذي يعتقده لحسن ظنه فيمن

يقلد قوله ولمحبته لنصر ذلك القول كما اتفقت النصارى والرافضة وغيرهم من الطوائف على مقالات يعلم فسادها بالضرورة.

وقال جمهور العقلاء: نحن إذا عربنا التوراة والانجيل لم يكن معنى ذلك معنى القرآن؛ بل معاني هذا ليست معاني هذا، ومعانى هذا ليست معاني هذا. وكذلك معنى: (قل هو الله أحد)[1] ليس هو معنى (تبت يدا أبى لهب)[2] ولا معنى آية الكرسي هو معنى آية الدين. وقالوا: واذا جوز تم أن تكون الحقائق المتنوعة شيئاً واحداً فجوزوا أن يكون العلم والقدرة والكلام والسمع والبصر صفة واحدة، فاعترف أئمة هذا القول بان هذا الالزام ليس لهم عنه جواب عقلي.

ثم منهم من قال: الناس في الصفات إما مثبت لها وقائل بالتعدد، وإما ناف لها؛ واما اثباتها واتحادها فخلاف الاجماع. وهذه طريقة القاضى أبى بكر وأبي المعالى وغيرهما. ومنهم من اعترف بأنه ليس له عنه جواب، كأبى الحسن الآمدي[3] وغيره.

« والمقصود هنا » أن هذه الآية تبين بطلان هذا القول، كما تبين بطلان

١- سورة الصمد آية رقم ١

٢ - سورة المسد آية رقم ١

٣ - هو علي بن أبي علي بن محمد بن سالم الثعلبي، الامام أبو الحسن السيف الآمدي المشهور صاحب (أبكار الأفكار) في علم الكلام، وصاحب أحكام الأحكام في أصول الفقه ولد بآمد بعد سنة خمسة وخمسمائة قرأ على مشايخ بلدة الفقة على مذهب الشافعي وقرأ بها القراءات، وحفظ كتاباً في مذهب أحمد بن حنبل، ورحل إلى العراق. ودخل مصر سنة اثنين وتسعين وخمسمائة واستوطن دمشق وتولى بها التدريس. مات في سنة احدى وثلاثين وستمائة.

غيره فان قوله: (قل نزله روح القدس من ربك بالحق)[1] يقتضى نزول القرآن من ربه، والقرآن اسم للقرآن العربي لفظه ومعناه بدليل قوله: (فإذا قرأت القرآن)[2] وإنما يقرأ القرآن العربي لايقرأ معانيه المجردة وأيضاً فضمير المفعول في قوله نزله عائد على مافي قوله: (والله أعلم بما ينزل)[3] فالذي أنزله الله هو الذي نزله روح القدس، فإذا كان روح القدس نزل بالقرآن العربى لزم أن يكون نزله من الله، فلا يكون شيء منه نزله من عين من الأعيان المخلوقة، ولا نزله من نفسه.

وأيضاً فانه قال عقيب هذه الآية : (ولقد نعلم أنهم يقولون إنما يعلمه بشر لسان الذي يلحدون إليه أعجمي، وهذا لسان عربى مبين)[4] وهم كانوا يقولون: إنما يعلمه هذا القرآن العربي بشر، لم يكونوا يقولون إنما يعلمه بشر معانيه فقط؛ بدليل قوله: (لسان الذي يلحدون إليه أعجمي، وهذا لسان عربي مبين)[5] فانه تعالى أبطل قول الكفار بأن لسان الذي ألحدوا إليه، بأن اضافوا إليه هذا القرآن، فجعلوه هو الذي يعلم محمداً القرآن لسان أعجمي، والقرآن لسان عربي مبين، وعبر عن هذا المعنى بلفظ (يلحدون) لما تضمن من معنى ميلهم عن الحق وميلهم إلى هذا الذي أضافوا إليه هذا القرآن، فان لفظ «الالحاد» يقتضي ميلاً عن شيء إلى شيء بباطل، فلو

١- سورة النحل آية رقم ١٠٢

٢- سورة النحل آية رقم ٩٨

٣- سورة النحل اية رقم ١٠١

٤ - ٥ سورة النحل آية رقم ١٠٣

كان الكفار قالوا يعلمه معانيه فقط لم يكن هذا رداً لقولهم؛ فان الإنسان قد يتعلم من الأعجمي شيئاً بلغة ذلك الأعجمي، ويعبر عنه هو بعبارته.

وقد اشتهر في التفسير أن بعض الكفار كانوا يقولون: هو تعلمه من شخص كان بمكة أعجمي. قيل: انه كان مولى لاب الحضرمي، وإذا كان الكفار جعلوا الذي يعلمه مانزل به روح القدس بشراً، والله أبطل ذلك بأن لسان ذلك أعجمي وهذا لسان عربي مبين: علم ان روح القدس نزل باللسان العربي المبين، وان محمداً لم يؤلف نظم القرآن بل سمعه من روح القدس، وإذا كان روح القدس نزل به من الله علم انه سمعه منه ولم يؤلفه هو، وهذا بيان من الله ان القرآن الذي هو اللسان العربي المبين سمعه روح القدس من الله ونزل به منه.

ونظير هذه الآية قوله تعالى : (وكذلك جعلنا لكل نبى عدواً شياطين الانس والجن) إلى قوله: (فذرهم ومايفترون؛)[1] وكذلك قوله: (وهو الذي انزل إليكم الكتاب مفصلا، والذين آتيناهم الكتاب يعلمون أنه منزل من ربك بالحق، فلا تكونن من الممترين)[2] و«الكتاب» اسم للقرآن العربي بالضرورة والاتفاق، فان الكلابية أو بعضهم يفرق بين كلام الله وكتاب الله، فيقول: كلامه هو المعنى القائم بالذات وهو غير مخلوق، وكتابه هو المنظوم المؤلف العربي، وهو مخلوق.

١- سورة الأنعام آية رقم ١١٢

٢- سورة الأنعام آية رقم ١١٤

و« القرآن » يراد به هذا تارة وهذا تارة، والله تعالى قد سمى نفسه مجموع اللفظ والمعنى قرآناً وكتابا وكلاما، فقال تعالى (الر تلك آيات الكتاب وقرآن مبين)[1] وقال: (طس تلك آيات القرآن وكتاب مبين)[2] وقال: (وإذ صرفنا إليك نفراً من الجن يستمعون القرآن)إلى قوله تعالى: (قالوا ياقومنا انا سمعنا كتابا أنزل من بعد موسى مصدقا لما بين يديه)[3] فبين ان الذي سمعوه هو القرآن وهو الكتاب. وقال: (بل هو قرآن مجيد فى لوح محفوظ)[4] وقال: (انه لقرآن كريم. فى كتاب مكنون)[5] وقال: (يتلو صحفاً مطهرة. فيها كتب قيمة)[6] وقال: (والطور، وكتاب مسطور، فى رق منشور)[7] وقال: (ولو نزلنا عليك كتابا فى قرطاس فلمسوه بأيديهم)[8]. ولكن لفظ الكتاب قد يراد به المكتوب فيكون هو الكلام، وقد يراد به مايكتب فيه كما قال تعالى: (إنه لقرآن كريم فى كتاب مكنون)[9] وقال: (ونخرج له يوم القيامة كتابا يلقاه منشوراً)[10].

١- سورة الحجر آية رقم ١

٢- سورة النحل آية رقم ١

٣- سورة الأحقاف آية رقم ٢٩ - ٣

٤- سورة البروج آية رقم ٢١ - ٢٢

٥- سورة الواقعة آية رقم ٧٧ - ٧٨

٦ - سورة البنية آية رقم ٢ - ٣

٧ - سورة الطور آية رقم ١ - ٢ - ٣

٨- سورة الأنعام آية رقم ٧

٩ - سورة الواقعة آية رقم ٧٧ ،٧٨

١٠ - سورة الاسراء آية رقم ١٣

و « المقصود هنا » ان قوله (وهو الذي انزل اليكم الكتاب مفصلاً)[١] يتناول نزول القرآن العربى على كل قول. وقد اخبر: (والذين آتيناهم الكتاب يعلمون انه منزل من ربك بالحق)[٢] اخبار مستشهد بهم لامكذب لهم. وقال انهم يعلمون ذلك ولم يقل انهم يظنونه أو يقولونه والعلم لايكون إلا حقاً مطابقاً للمعلوم، بخلاف القول والظن الذي ينقسم إلى حق وباطل: فعلم ان القرآن العربى منزل من الله لا من الهواء، ولا من اللوح، ولا من جسم آخر، ولا من جبريل، ولا من محمد ولا غيرهما، وإذا كان أهل الكتاب يعلمون ذلك فمن لم يقر بذلك من هذه الأمة كان أهل الكتاب المقرون بذلك خيراً منه من هذا الوجه.

وهذا لا ينافى ما جاء عن ابن عباس وغيره من السلف فى تفسير قوله: (إنا أنزلناه فى ليلة القدر)[٣] انه انزله إلى بيت العزة فى السماء الدنيا، ثم انزله بعد ذلك منجما مفرقا بحسب الحوادث، ولا ينافى انه مكتوب فى اللوح المحفوظ قبل نزوله، كما قال تعالى: (بل هو قرآن مجيد فى لوح محفوظ)[٤] وقال تعالى: (إنه لقرآن كريم. فى كتاب مكنون. لايمسه إلا المطهرون)[٥]. وقال تعالى: (كلا إنها تذكرة، فمن شاء ذكره، فى صحف

١- سورة الأنعام آية رقم ١١٤

٢- سورة الأنعام آية رقم ١١٤ وقد جاءت الآية محرفة فى المطبوعة حيث قال: ان الذين بدلاً من قوله (والذين)

٣- سورة القدر اية رقم ١

٤ - سورة البروج آية رقم ٢١ - ٢٢

٥- سورة الواقعة آية رقم ٧٧ - ٧٨ - ٧٩

مكرمة، مرفوعة مطهرة، بأيدي سفرة كرام بررة)[1] وقال تعالى: (وإنه في أم الكتاب لدينا لعلي حكيم)[2] فإن كونه مكتوباًفي اللوح المحفوظ. وفي صحف مطهرة بأيدي الملائكة لاينافي أن يكون جبريل نزل به من الله، سواء كتبه الله قبل ان يرسل به جبريل أو بعد ذلك،واذا كان قد انزله مكتوباً إلى بيت العزة جملة واحدة في ليلة القدر فقد كتبه كله قبل ان ينزله .

والله تعالى يعلم ما كان وما يكون وما لا يكون أن لو كان كيف كان يكون، وهو سبحانه قد قدر مقادير الخلائق، وكتب أعمال العباد قبل ان يعلموها ، كما ثبت ذلك فى صريح الكتاب والسنة وآثار السلف، ثم انه يأمر الملائكة بكتابتها بعد ما يعلمونها؛ فيقابل بين الكتابة المتقدمة على الوجود والكتابة المتأخرة عنه، فلا يكون بينهما تفاوت هكذا قال ابن عباس وغيره من السلف ـ وهو حق ـ فاذا كان ما يخلقه بائنا عنه قد كتبه قبل ان يخلقه، فكيف يستبعد ان يكتب كلامه الذي يرسل به ملائكته قبل ان يرسلهم به .

ومن قال ان جبريل اخذ القرآن من الكتاب لم يسمعه من الله كان هذا باطلا من وجوه :

«منها» ان يقال إن الله سبحانه وتعالى قد كتب التوراة لموسى بيده، فبنوا اسرائيل اخذوا كلام الله من الكتاب الذي كتبه هو سبحانه وتعالى فيه، فان كان محمد أخذه عن جبريل، وجبريل عن الكتاب كان بنوا اسرائيل اعلا من محمد بدرجة .

١- سورة عبس آية رقم ١١ - ١٦

٢ - سورة الزخرف آية رقم ٤

وكذلك من قال إنه القى إلى جبريل المعانى وان جبريل عبر عنها بالكلام العربى فقوله يستلزم ان يكون جبريل الهمه الهاماً، وهذا الالهام يكون لآحاد المؤمنين. كما قال تعالى: (وإذ أوحيت إلى الحواريين أن آمنوا بى وبرسولي)[1] وقال: (وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه)[2] وقد أوحى إلى سائر النبيين فيكون هذا الوحي الذي يكون لآحاد الانبياء والمؤمنين أعلى من أخذ محمد القرآن عن جبريل؛ لأن جبريل الذي علمه لمحمد هو بمنزلة الواحد من هؤلاء؛ ولهذا زعم ابن عربى ان خاتم الأولياء أفضل من خاتم الأنبياء، وقال: لأنه يأخذ من المعدن الذي يأخذ منه الملك الذي يوحى به الى الرسول. فجعل اخذه واخذ الملك الذي جاء إلى الرسول من معدن واحد، وادعى ان اخذه عن الله أعلى من اخذ الرسول للقرآن، ومعلوم ان هذا من أعظم الكفر، وان هذا القول من جنسه.

وايضاً فالله تعالى يقول: (إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده، وأوحينا إلى ابراهيم واسماعيل واسحاق ويعقوب والأسباط) إلى قوله: (وكلم الله موسى تكليما)[3] ففضل موسى بالتكليم على غيره ممن اوحى اليهم، وهذا يدل على أمور: على ان الله يكلم عبده تكليما زائداً عن الوحي الذي هو قسيم التكليم الخاص، فان لفظ التكليم والوحي كل منهما ينقسم إلى عام وخاص، فالتكليم هو المقسوم فى قوله: (وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً، أو من وراء حجاب، أو يرسل رسولاً)[4] والتكليم

---

١ ـ سورة المائدة آية رقم ١١١

٢ ـ سورة القصص آية رقم ٧

٣ ـ سورة النساء آية رقم ١٦٤

٤ ـ سورة الشورى آية رقم ٥١

المطلق هو قسيم الوحي الخاص ليس هو قسما منه، وكذلك لفظ الوحي قد يكون عاما فيدخل فيه التكليم الخاص، كما في قوله لموسى: (فاستمع لما يوحى)[1] وقد يكون قسيم التكليم الخاص، كما في سورة الشورى، وهذا يبطل قول من يقول الكلام معنى واحد قائم بالذات، فانه حينئذ لا فرق بين التكليم الذي خص به موسى والوحي العام الذي يكون لآحاد العباد.

ومثل هذا قوله الآية في الأخرى: (وما كان لبشر أن يكلمه الله الا وحيا، أو من وراء حجاب، أو يرسل رسولا فيوحي باذنه ما يشاء)[2] فانه فرق بين الايحاء، وبين التكليم من وراء الحجاب، وبين ارسال رسول يوحي باذنه ما يشاء، فدل على ان التكليم من وراء حجاب ـ كما كلم موسى ـ أمر غير الايحاء.

وأيضاً فقوله: (تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم)[3] وقوله: (حم تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم)[4] وقوله: (حم تنزيل من الرحمن الرحيم)[5] وأمثال ذلك يدل على انه منزل من الله لا من غيره. وكذلك قوله (بلغ ما أنزل اليك من ربك)[6] فانه يدل على اثبات أن ما أنزل اليه من ربه، وانه مبلغ مأمور بتبليغ ذلك.

وأيضاً فهم يقولون: انه معنى واحد فان كان موسى سمع جميع المعنى

---

١ ـ سورة طه آية رقم ١٣
٢ـ سورة الشورى آية رقم ٥١
٣ ـ سورة الزمر آية رقم ١
٤ ـ سورة غافر آية رقم ١ ـ ٢
٥ ـ سورة فصلت آية رقم ١
٦ ـ سورة المائدة آية رقم ٦٧

فقد سمع جميع كلام الله، وان سمع بعضه فقد تبعض، وكلاهما ينقض قولهم؛ فانهم يقولون: انه معنى واحد لا يتعدد ولا يتبعض، فان كان ما يسمعه موسى والملائكة هو ذلك المعنى كله كان كل منهم علم جميع كلام الله، وكلامه متضمن لجميع خبره وجميع أمره، فيلزم أن يكون كل واحد ممن كلمه الله أو أنزل عليه شيئاً من كلامه عالما بجميع أخبار الله وأوامره، وهذا معلوم الفساد بالضرورة. وان كان الواحد من هؤلاء انما يسمع بعضه، فقد تبعض كلامه وذلك يناقض قولهم .

وايضا فقوله:(وكلم الله موسى تكليما)[1] وقوله:(ولما جاء موسى لميقاتنا وكلمه ربه)[2] وقوله: (وناديناه من جانب الطور الأيمن وقربناه نجياً)[3] وقوله:(فلما أتاها نودي يا موسى انى انا ربك فاخلع نعليك انك بالواد المقدس طوى. وأنا اخترتك فاستمع لما يوحى)[4] الآيات. دليل على تكليم سمعه موسى. والمعنى المجرد لا يسمع بالضرورة، ومن قال انه يسمع فهو مكابر، ودليل على انه ناداه، والنداء لا يكون الا صوتاً مسموعا، ولا يعقل في لغة العرب لفظ النداء بغير صوت مسموع، لا حقيقة ولا مجازاً.

وأيضا فقد قال تعالى: (فلما جاءها نودي أن بورك من فى النار ومن حولها وسبحان الله رب العالمين)[5] وقوله:(فلما أتاها نودي من شاطىء الواد الأيمن فى البقعة المباركة من الشجرة أن يا موسى انى انا الله رب

---

١ ـ سورة النساء آية رقم ١٦٤

٢ ـ سورة الأعراف آية رقم ١٤٣

٣ ـ سورة مريم آية رقم ٥٢

٤ ـ سورة طه آية رقم ١١-١٣

٥ ـ سورة النمل آية رقم ٨

العالمين)[1] وقال:(هــل أتاك حديث موسى اذ نــاداه ربه بالواد المقدس طوى)[2] وقال:(فلما أتاها نودي يا موسى انى أنا ربك)[3] وفى هذا دليل على انه حينئذ نودى ولم يناد قبل ذلك؛ ولما فيها من معنى الظرف. كما فى قوله: (وأنه لما قام عبد الله يدعوه كادوا يكونون عليه لبدا)[4]

ومثل هذا قوله:(ويوم يناديهم فيقول ماذا أجبتم المرسلين)[5](ويوم يناديهم فيقول أين شركائي الذين كنتم تزعمون)[6] فانه وقت النداء بظرف محدود، فدل على ان النداء يقع فى ذلك الحين دون غيره من الظروف، وجعل الظرف للنداء لا يسمع النداء إلا فيه.

ومثل هذا قوله تعالى(وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل فى الأرض خليفة)[7] وقوله (وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم)[8] وأمثال ذلك مما فيه توقيت بعض أقوال الرب بوقت معين، فان الكلابية ومن وافقهم من أصحاب الأئمة الاربعة يقولون: انه لا يتكلم بمشيئته وقدرته: بل الكلام المعين لازم لذاته كلزوم الحياة لذاته.

١- سورة القصص آية رقم ٣٠

٢ - سورة النازعات آية رقم ١٥ - ١٦ وقد جاءت الآية محرفة فى المطبوعة حيث قال (وهل) بزيادة الواو بدلاً من (هل)

٣ - سورة طه آية رقم ١١

٤ - سورة الجن آية رقم ١٩

٥ - سورة القصص آية رقم ٦٥

٦ - سورة القصص آية رقم ٦٢ ، ٧٤

٧ - سورة البقرة آية رقم ٣٠

٨ - سورة البقرة آية رقم ٣٤

ثم من هؤلاء من قال انه معنى واحد؛ لأن الحروف والأصوات متعاقبة، يمتنع أن تكون قديمة. ومنهم من قال: بل الحروف والأصوات قديمة الأعيان، وأنها مترتبة فى ذاتها متعاقبة فى وجودها، لم تزل ولا تزال قائمة بذاته، والنداء الذي سمعه موسى قديم أزلى، لم يزل ولا يزال. ومنهم من قال: بل الحروف قديمة الأعيان، بخلاف الأصوات، وكل هؤلاء يقولون : ان التكليم والنداء ليس الا مجرد خلق ادراك المخلوق،بحيث يسمع ما لم يزل ولا يزال لا أنه يكون هناك كلام يتكلم الله به بمشيئته وقدرته، ولا تكليم؛ بل تكليمه عندهم جعل العبد سامعاً لما كان موجوداً قبل سمعه، بمنزلة جعل الأعمى بصيراً لما كان موجوداً قبل رؤيته من غير احداث شيء منفصل عن الأعمى. فعندهم لما جاء موسى لميقات ربه سمع النداء القديم لا انه حينئذ نودي.

ولهذا يقولون: انه يسمع كلامه لخلقه يدل عن قول الناس إنه يكلم خلقه، وهؤلاء يردون على الخلقية الذين يقولون القرآن مخلوق، ويقولون عن أنفسهم إنهم أهل السنة الموافقون للسلف، الذين قالوا : ان القرآن كلام الله غير مخلوق، وليس قولهم قول السلف؛ لكن قولهم أقرب إلى قول السلف من وجه، وقول الخلقية أقرب إلى قول السلف من وجه .

أما كون قولهم أقرب فلأنهم يثبتون لله كلاما قائما بنفس الله، وهذا قول السلف؛ بخلاف الخلقية الذين يقولون : ليس كلامه إلا ما خلقه فى غيره، فان قول هؤلاء مخالف لقول السلف . واما كون قول الخلقية أقرب فلأنهم يقولون ان الله يتكلم بمشيئته وقدرته وهذا قول السلف، وهؤلاء عندهم لا يقدر الله على شيء من كلامه، وليس كلامه بمشيئته واختياره، بل كلامه عندهم كحياته، وهم يقولون: الكلام عندنا صفة ذات لا صفة فعل .

والخلقية يقولون صفة فعل لا صفة ذات، ومذهب السلف انه صفة ذات وصفة فعل معاً، فكل منهما موافق للسلف من وجه دون وجه.

واختلافهم فى كلام الله تعالى شبيه اختلافهم فى أفعاله تعالى ورضاه وغضبه، وارادته وكراهته، وحبه وبغضه، وفرحه وسخطه ونحو ذلك. فان هؤلاء يقولون هذه كلها أمور مخلوقة بائنة عنه ترجع إلى الثواب والعقاب. والآخرون يقولون بل هذه كلها أمور قديمة الأعيان قائمة بذاته. ثم منهم من يجعلها كلها تعود الى ارادة واحدة بالعين متعلقة بجميع المخلوقات. ومنهم من يقول: بل هي صفات متعددة الأعيان، لكن يقول: كل واحدة واحدة العين، قديمة قبل وجود مقتضياتها، كما قالوا مثل ذلك فى الكلام، والله تعالى يقول:(ذلك بأنهم اتبعوا ما أسخط الله وكرهوا رضوانه)[1] فأخبر أن أفعالهم أسخطته، قال تعالى:(فلما آسفونا انتقمنا منهم)[2]أي أغضبونا وقال تعالى:(ادعونى أستجب لكم)[3] الى أمثال ذلك مما يبين أنه سخط على الكفار لما كفروا، ورضي عن المؤمنين لما آمنوا.

ونظير هذا اختلافهم فى أفعاله تعالى ومسائل القدر؛ فان المعتزلة يقولون: انه يفعل لحكمة مقصودة، وارادة الاحسان الى العباد؛ لكن لا يثبتون لفعله حكمة تعود إليه. وأولئك يقولون لا يفعل لحكمة ولا لمقصود أصلاً . فأولئك أثبتوا حكمة لكن لا تقوم به، وهؤلاء لا يثبتون له حكمة ولا قصداً يتصف به، والفريقان لا يثبتون له حكمة ولا مقصوداً يعود اليه.

---

١ ـ سورة محمد آية رقم ٢٨

٢ ـ سورة الزخرف آية رقم ٥٥

٣ ـ سورة غافر آية رقم ٦٠

وكذلك في «الكلام»: أولئك أثبتوا كلاما هو فعله لا يقوم به.وهؤلاء يقولون مالا يقوم به لا يعود حكمه إليه والفريقان يمنعون ان يقوم به حكمة مرادة له، كما يمنع الفريقان ان يقوم به كلام وفعل يريده وقول أولئك أقرب الى قول السلف والفقهاء اذ أثبتوا الحكمة والمصلحة في احكامه وأفعاله واثبتوا كلاما يتكلم به بقدرته ومشيئته، وقول هؤلاء أقرب الى قول السلف اذ اثبتوا الصفات، وقالوا: لا يوصف بمجرد المخلوق المنفصل عنه الذي لم يقم به اصلاً، ولا يعود اليه حكم من شيء لم يقم به، فلا يكون متكلما بكلام لم يقم به، ولا يكون حكيما كريما ورحيما بحكمة ورحمة لم تقم به، كما لا يكون عليما بعلم لم يقم به، وقديرا بقدرة لم تقم به، ولا يكون محباً راضياً غضباناً يحب ورضى وغضب لم يقم به.

فكل المعتزلة والأشعرية في مسائل كلام الله وأفعال الله؛ بل وسائر صفاته وافقوا السلف والأئمة من وجه، وخالفوا من وجه وليس قول أحدهما هو قول السلف دون الآخر؛ لكن الأشعرية فى جنس مسائل الصفات، بل وسائر الصفات والقدر أقرب إلى قول السلف والأئمة من المعتزلة .

فان قيل: فقد قال تعالى(إنه لقول رسول كريم)[1] وهذا يدل على أن الرسول أحدث الكلام العربي. قيل:هذا باطل؛ وذلك لأن الله ذكر هذا فى القرآن فى موضعين؛ والرسول فى أحد الموضعين محمد، والرسول فى الآية

---

١ - سورة الحاقة آية رقم ٤ وسورة التكوير آية رقم ١٩

الأخرى جبريل. قال تعالى فى سورة الحاقة:(إنه لقول رسول كريم،وما هو بقول شاعر قليلا ما تؤمنون، ولا بقول كاهن قليلا ما تذكرون، تنزيل من رب العالمين)[1] فالرسول هنا محمد صلى الله عليه وسلم، وقال فى سورة التكوير:(إنه لقول رسول كريم، ذى قوة عند ذي العرش مكين مطاع ثم أمين)[2] فالرسول هنا جبريل. فلو كان أضافه الى الرسول لكونه أحدث حروفه أو أحدث منه شيئاً لكان الخبران متناقضين، فانه ان كان أحدهما هو الذى أحدثها امتنع أن يكون الآخر هو الذي أحدثها.

وأيضاً فانه قال:(لقول رسول كريم) ولم يقل: لقول ملك ولا نبى، ولفظ «الرسول» يستلزم مرسلا له، فدل ذلك على أن الرسول مبلغ له عن مرسله؛ لا أنه أنشأ منه شيئاً من جهة نفسه. وهذا يدل على أنه أضافه الى الرسول؛ لأنه بلغه وأداه، لا لأنه أنشأ منه شيئاً وابتداء.

وأيضاً فان الله قد كفر من جعله قول البشر بقوله:(انه فكر وقدر، فقتل كيف قدر، ثم قتل كيف قدر،ثم نظر، ثم عبس وبسر،ثم أدبر واستكبر، فقال : ان هذا الا سحر يؤثر، ان هذا الا قول البشر)[3] ومحمد بشر، فمن قال: انه قول محمد فقد كفر، ولا فرق بين ان يقول: هو قول بشر أو جني أو ملك، فمن جعله قولاً لأحد من هؤلاء فقد كفر؛ ومع هذا فقد قال تعالى:(انه لقول رسول كريم، وما هو بقول شاعر)[4] فجعله قول الرسول البشري مع تكفيره من يقول انه قول البشر، فعلم ان المراد بذلك ان الرسول بلغه عن

١ـ سورة الحاقة آية رقم ٤٠ـ٤١
٢ ـ سورة التكوير آية رقم ١٩ ـ ٢١
٣ ـ سورة المدثر الآيات من ١٨ ـ ٢٥
٤ ـ سورة الحاقة آية رقم ٤١

مرسله،لا انه قول له من تلقاء نفسه، وهو كلام الله الذي أرسله، كما قال تعالى:(وان أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله)[1] فالذى بلغه الرسول هو كلام الله لا كلام الرسول.

ولهذا كان النبى صلى الله عليه وسلم يعرض نفسه على الناس بالمواسم ويقول : «الا رجل يحملني الى قومه لأبلغ كلام ربي فان قريشا قد منعونى ان ابلغ كلام ربى»[2] رواه أبو داود وغيره، والكلام كلام من قاله مبتدئاً لا كلام من قاله مبلغاً مؤدياً، وموسى سمع كلام الله من الله بلا واسطة، والمؤمنون يسمعه بعضهم من بعض، فسماع موسى سماع مطلق بلا واسطة، وسماع الناس سماع مقيد بواسطة . كما قال تعالى : (وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً، أو من وراء حجاب، أو يرسل رسولا فيوحى باذنه ما يشاء)[3] .

ففرق بين التكليم من وراء حجاب ـ كما كلم موسى ـ وبين التكليم بواسطة الرسول ـ كما كلم الأنبياء بارسال رسول اليهم ـ والناس يعلمون أن النبى صلى الله عليه وسلم إذا تكلم بكلام تكلم به بحروفه ومعانيه بصوته صلى الله عليه وسلم، ثم المبلغون عنه يبلغون كلامه بحركاتهم وأصواتهم،

---

١ ـ سورة التوبة آية رقم ٦

٢ ـ الحديث أخرجه الترمذى فى كتاب فضائل القرآن ٢٩٢٥ ـ حدثنا محمد بن كثير أخبرنا اسرائيل ، حدثنا عثمان بن المغيرة عن سالم بن أبى الجعد عن جابر قال : كان النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ يعرض نفسه بالموقف وذكره وابن ماجة فى المقدمة ١٣ واحمد بن حنبل فى المسند ٣ : ٣٢٢ ، ٣٣٩ (حلبى)

٣ ـ سورة الشورى آية رقم ٥١

كما قال صلى الله عليه وسلم : «نضر الله امرأ سمع منا حديثاً فبلغه كما سمعه»[1] فالمستمع منه يبلغ حديثه كما سمعه؛ لكن بصوت نفسه لا بصوت الرسول.فالكلام هو كلام الرسول تكلم به بصوته، والمبلغ يبلغ كلام الرسول، لكن بصوت نفسه، واذا كان هذا معلوماً فيمن يبلغ كلام المخلوق فكلام الخالق أولى بذلك.

ولهذا قال تعالى:(وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله)[2] وقال النبى صلى الله عليه وسلم «زينوا القرآن بأصواتكم» فجعل الكلام كلام الباري وجعل الصوت الذي يقرأ به العبد صوت القارىء وأصوات العباد ليست هي عين الصوت الذي ينادي الله به ويتكلم به، كما نطقت النصوص بذلك، بل ولا مثله، فان الله ليس كمثله شيء لا فى ذاته ولا فى صفاته ولا فى أفعاله، فليس علمه مثل علم المخلوقين، ولا قدرته مثل قدرتهم، ولا كلامه مثل كلامهم، ولا نداؤه مثل ندائهم، ولا صوته مثل أصواتهم.

فمن قال عن القرآن الذي يقرؤه المسلمون : ليس هو كلام الله، أو هو كلام غيره فهو ملحد مبتدع ضال . ومن قال : ان أصوات العباد أو المداد الذي يكتب به القرآن قديم أزلي فهو ملحد مبتدع ضال؛ بل هذا القرآن هو كلام الله، وهو مثبت فى المصاحف، وهو كلام الله مبلغاً عنه مسموعا من القراء، ليس هو مسموعا منه، والانسان يرى الشمس والقمر والكواكب

١ـ أخرجه ابن ماجة فى المقدمة بسنده عن عبد السلام عن الزهرى عن محمد بن جبر بن مطعم عن أبيه قال قام رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم بالخيف من منى فقال:وذكره. وأخرجه أبو داود فى العلم ١٠ والترمذى فى العلم ٧ واحمد بن حنبل فى المسند١:٤٣٧. ٣:٢٢٥ . ٤:٨٠. ٨٢ (حلبى)

٢ـ سورة التوبة آية رقم ٦

بطريق المباشرة، ويراها فى ماء أو مرآة، فهذه رؤية مقيدة بالواسطة، وتلك رؤية مطلقة بطريق المباشرة، وكذلك الكلام يسمع من المتكلم به بطريق المباشرة، ويسمع من المبلغ عنه بواسطة، والمقصود بالسماع هو كلامه فى الموضعين، كما ان المقصود بالرؤية هو المرئى فى الموضعين.

فمن عرف ما بين الحالين من الاجتماع والافتراق، والاختلاف والاتفاق، زالت عنه الشبهة التى تصيب كثيراً من الناس فى هذا الباب،فان طائفة قالت: هذا المسموع كلام الله، والمسموع صوت العبد وصوته مخلوق؛ فكلام الله مخلوق. وهذا جهل، فانه مسموع من المبلغ، ولا يلزم إذا كان صوت المبلغ مخلوقاً ان يكون نفس الكلام مخلوقاً.

وقالت «طائفة»: هذا المسموع صوت العبد وهو مخلوق، والقرآن ليس بمخلوق، فلا يكون هذا المسموع كلام الله، وهذا جهل؛ فان المخلوق هو الصوت لا نفس الكلام الذي يسمع من المتكلم به ومن المبلغ عنه.

و «طائفة» قالت: هذا كلام الله وكلام الله غير مخلوق، فيكون هذا الصوت غير مخلوق وهذا جهل؛ فانه إذا قيل: هذا كلام الله فالمشار إليه هو الكلام من حيث هو هو ، وهو الثابت إذا سمع من الله وإذا سمع من المبلغ عنه، وإذا قيل للمسموع انه كلام الله فهو كلام الله مسموعا من المبلغ عنه لا مسموعا منه ، فهو مسموع بواسطة صوت العبد، وصوت العبد مخلوق. وأما كلام الله نفسه فهو غير مخلوق حيث ما تصرف. وهذه نكت قد بسط الكلام فيها في غير هذا الموضع.

فصـــل

منشأ النزاع فى علم الكلام

فان قيل: ما منشأ هذا النزاع والأشتباه والتفرق والاختلاف؟ قيل منشأه هو الكلام الذي ذمه السلف وعابوه، وهو الكلام المشتبه المشتمل على حق وباطل: فيه ما يوافق العقل والسمع، وفيه ما يخالف العقل والسمع، فيأخذ هؤلاء جانب النفى المشتمل على نفي الحق والباطل، وهؤلاء جانب الاثبات المشتمل على إثبات حق و باطل، وجماعه هو الكلام المخالف للكتاب والسنة وإجماع السلف، فكل كلام خالف ذلك فهو باطل، ولا يخالف ذلك الإكلام مخالف للعقل والسمع، وذلك أنه لما تناظروا في مسألة حدوث العالم وإثبات الصانع استدلت الجهمية والمعتزلة ومن وافقهم من طوائف أهل الكلام على ذلك بأن ما لا يخلو عن الحوادث فهو حادث.

ثم ان المستدلين بذلك على حدوث الأجسام، قالوا: ان الأجسام لا تخلو عن الحوادث، وما لا يخلو عن الحوادث فهو حادث، ثم تنوعت طرقهم في المقدمة الأولى. فتارة يثبتونها بأن الأجسام لا تخلو عن الحركة والسكون وهما حادثان، وتارة يثبتونها بأن الأجسام لا تخلو عن الاجتماع والافتراق وهما حادثان، وتارة يثبتونها بأن الأجسام لا تخلو عن الاكوان الأربعة: الاجتماع والافتراق، والحركة والسكون، وهى حادثة.

وهذه طرق المعتزلة ومن وافقهم على ان الأجسام لا تخلو عن بعض أنواع الأعراض.

وتارة يثبتونها بأن الجسم لا يخلو من كل جنس من الاعراض عن عرض

منه. ويقولون: القابل للشيء لا يخلو منه وعن ضده ويقولون: ان الاعراض يمتنع بقاؤها لان العرض لا يبقى زمانين، وهذه الطريقة هي التى اختارها الآمدي، وزيف ما سواها، وذكر ان جمهور اصحابه اعتمدوا عليها، وقد وافقهم عليها طائفة من الفقهاء من أصحاب الأئمة الأربعة: كالقاضى أبى يعلى وأبى المعالى الجوينى،[1] وأبى الوليد الباجى[2] وأمثالهم.

وأما الهشامية[3] والكرامية[4] وغيرهم من الطوائف الذين يقولون بحدوث كل جسم، ويقولون: ان القديم تقوم به الحوادث، فهؤلاء إذا قالوا بأن ما لا يخلو عن الحوادث فهو حادث، كما هو قول الكرامية وغيرهم موافقة للمعتزلة فى هذا الاصل؛ فانهم يقولون إن الجسم القديم يخلو عن الحوادث بخلاف الأجسام المحدثة، فانها لا تخلوا عن الحوادث.

والناس متنازعون فى «السكون» هل هو أمر وجودي او عدمي؟

---

١ ـ هو عبد الملك بن عبد الله بن يوسف بن محمد الجوينى أبو المعالى ركن الدين الملقب بأمام الحرمين أعلم المتأخرين من أصحاب الشافعى ولد فى جوين عام ٤١٩ هـ ورحل الى بغداد فمكة حيث جاور أربع سنين وذهب الى المدينة فأفتى ودرس جامعاً طرق المذاهب له مصنفات كثيرة منها غياث الأمم والنيات الظلم، والعقيدة النظامية وغير ذلك توفى عام ٤٧٨ هـ

راجع وفيات الأعيان ١ : ٢٨٧ والسبكى ٣ : ٢٤٩

٢ ـ هو أبو الوليد : سليمان بن خلف القرطبى الباجي فقيه مالكى من رجال الحديث أصله من بطليموس ومولده فى باجة عام ٤٠٣ هـ رحل الى الحجاز عام ٤٢٦ هـ فمكث ثلاثة أعوام وأقام ببغداد وبالموصل عاماً وفى دمشق وحلب مدة من كتبه السراج فى علم الحجاج توفى عام ٤٧٤ هـ

راجع الديباج المذهب ١٢٠ والوفيات ١ : ٢١٥ ونفع الطيب ١ : ٣٦١

٣ ـ الهشامية : أصحاب هشام بن عمرو الفوطى ومبالغته فى القدر أشد واكثر من مبالغة أصحابه وكان يمتنع من اطلاق اضافات أفعال العباد الى البارى تعالى، وان ورد بها التنزيل . ومن بدعه فى الدلالة على البارى تعالى قوله : إن الأعراض لا تدل على كونه خالقاً ولا تصلح ===

فمن قال انه وجودي قال إن الجسم الذي لا يخلو عن الحركة والسكون إذا انتفت عنه الحركة قام به السكون الوجودي، وهذا قول من يحتج بتعاقب الحركة والسكون على حدوث المتصف بذلك. ومن قال انه عدمي: لم يلزم من عدم الحركة عن المحل ثبوت سكون وجودي، فمن قال انه تقوم به الحركة او الحوادث بعد ان لم تكن مع قوله بامتناع تعاقب الحوادث، كما هو قول الكرامية وغيرهم ـ يقولون: إذا قامت به الحركة لم يعدم بقيامها سكون وجودي؛ بل ذلك عندهم بمنزلة قولهم مع المعتزلة والاشعرية وغيرهم انه يفعل بعد ان لم يكن فاعلا، ولا يقولون: ان عدم الفعل أمر وجودي ـ كذلك الحركة عند هؤلاء، وكان كثير من أهل الكلام يقولون: ما لا يخلو من الحوادث فهو حادث، أو ما لا يسبق الحوادث فهو حادث، بناء على أن هذه مقدمة ظاهرة، فان ما لا يسبق الحادث فلا بد ان يقارنه او يكون بعده، وما قارن الحادث فهو حادث وما كان بعده فهو حادث.

وهذا الكلام مجمل فانه إذا أريد به ما لا يخلو عن الحادث المعين او ما لا يسبق الحادث المعين فهو حق بلا ريب، ولا نزاع فيه، وكذلك إذا أريد بالحادث جملة ما له أول او ما كان بعد العدم ونحو ذلك، وأما إذا أريد بالحوادث الامور التى تكون شيئاً بعد شيء لا الى أول. وقيل: انه ما لا يخلو عنها وما لم يخل عنها فهو حادث لم يكن ذلك ظاهراً ولا بينا بل هذا

=== الأعراض دلالات بل الأجسام تدل على كونه خالقاً وهذا أيضاً عجب

راجع الملل والنحل ١ : ٩٧ ـ ٩٩

٤ ـ الكرامية : أصحاب أبى عبد الله محمد بن كرام من كلامه (قاتله الله) أن معبوده على العرش استقراراً وعلى أنه بجهة فوق ذاتاً واطلق عليه اسم الجوهر . وجوز الانتقال والتحول والنزول، ومنهم من قال انه على بعض اجزاء العرش وقال بعضهم امتلأ العرش به ـ وهذا من الكفر البواح قاتلهم الله .

راجع الملل والنحل ١ : ١٥٩

المقام حار فيه كثير من الافهام، وكثر فيه النزاع والخصام؛ ولهذا صار المستدلون بقولهم: ما لا يخلو عن الحوادث فهو حادث يعلمون ان هذا الدليل لا يتم إلا إذا اثبتوا امتناع حوادث لا أول لها، فذكروا فى ذلك طرقا قد تكلمنا عليها فى غير هذا الموضع.

وهذا الاصل تنازع الناس فيه على «ثلاثة أقوال».

فقيل: ما لا يخلو عن الحوادث فهو حادث، وبامتناع حوادث لا اول لها مطلقاً، وهذا قول المعتزلة ومن اتبعهم الكرامية والاشعرية، ومن دخل معهم من الفقهاء وغيرهم.

وقيل: بل يجوز دوام الحوادث مطلقاً وليس كل ما قارن حادثاً بعد حادث لا إلى اول يجب ان يكون حادثا؛ بل يجوز ان يكون قديماً سواء كان واجباً بنفسه او بغيره، وربما عبر عنه بالعلة والمعلول، والفاعل والمفعول ونحو ذلك وهذا قول الفلاسفة القائلين بقدم العالم والأفلاك، كارسطو[1] واتباعه مثل ثامسطيوس، والاسكندر الافريدوسي[2] ويرقلس، والفارابى[3] وابن سينا[4] وأمثالهم.

---

١ ـ سبقت الترجمة له فى كلمة وافية

٢ ـ كان فى زمن ملوك الطوائف بعد الاسكندر بن فيلبس ورأى جالينوس الطبيب وعاصره، وكان يلقب جالينوس رأس البغل لأنه اجتمع به وناظره وجرت بينهما محاورات، وكان الاسكندر فيلسوف وقته شرح من كتب ارسطو طاليس الكثير ـ وصنف كتاب النفس . وهو عدة ابحاث فى الهيولى والجنس والعين وخلافه

راجع كتاب أخبار العلماء بأخبار الحكماء ٤٠ ـ ٤١

٣ ـ سبقت الترجمة له فى كلمة وافية

٤ ـ هو الحسين بن عبد الله بن سينا أبو على شرف الملك الفيلسوف الرئيس صاحب ═

واما جمهور الفلاسفة المتقدمين على ارسطو فلم يكونوا يقولون يقدم الافلاك، ثم الفلاسفة من هؤلاء، وهؤلاء متنازعون فى قيام الصفات والحوادث بواجب الوجود على قولين معروفين لهم، واثبات ذلك قول كثير من الأساطين القدماء، وبعض المتأخرين، كابى البركات صاحب المعتبر وغيره، كما بسطت اقوالهم فى غير هذا الموضع.

وقيل: بل ان كان المستلزم للحوادث ممكناً بنفسه، وانه هو الذي يسمى مفعولا ومعلولا، ومربوبا ونحو ذلك من العبارات وجب ان يكون حادثا. وان كان واجباً بنفسه لم يجز ان يكون حادثا، وهذا قول أئمة أهل الملل واساطين الفلاسفة، وهو قول جماهير أهل الحديث. وصاحب هذا القول يقول مالا يخلو عن الحوادث وهو ممكن بنفسه فهو حادث او مالا يخلو عن الحوادث وهو معلول او مفعول او مبتدع او مصنوع فهو حادث؛ لأنه إذا كان مفعولا مستلزما للحوادث امتنع ان يكون قديما؛ فان القديم المعلول لا يكون قديما الا اذا كان له موجب قديم بذاته يستلزم معلوله بحيث يكون معه ازلياً لا يتأخر عنه، وهذا ممتنع.

فان كونه مفعولا ينافى كونه قديماً، بل قدمه ينافى كونه ممكناً، فلا يكون ممكناً إلا ما كان محدثا عند جماهير العقلاء من الأولين والآخرين،

=== التصانيف فى الطب والمنطق والطبيعات والالهيات أصله من بلخ ومولده فى احدى قرى بخارى عام ٣٧٠ هـ نشأ وتعلم فى بخارى وطاف البلاد وناظر العلماء واتسعت شهرته من مصنفاته : قانون الطب، والشفاء والسياسة، وغير ذلك كثير. توفى عام ٤٢٨ هـ

راجع وفيات الاعيان ١ : ١٥٣ وتاريخ حكماء

الاسلام ٢٧ - ٧٢ ودائرة المعارف الاسلامية ١ : ٢٠٣

وهذا قول الفلاسفة القدماء قاطبة كارسطو وأتباعه، وإنما أثبت ممكناً قديماً بعض متأخريهم كابن سينا واتباعه خالفوا فى ذلك الفلاسفة القدماء قاطبة، كما خالفوا فى ذلك جماهير العقلاء من سائر الطوائف؛ ولهذا تناقضوا فى احكام الممكن، وورد عليهم فيه من الأسئلة [مالا جواب لهم عنه كما ذكرت ذلك] فى [الرد على] الأربعين[1] وغير ذلك من المواضع.

وما يدعى من أن المعلول قد يفارق علته إنما يعقل فيما كان شرطاً لا فاعلا، كقولهم: حركت يدى فتحرك الخاتم؛ فان حركة اليد شرط فى تحريك الخاتم، والشرط والمشروط قد يتلازمان [و] ليست فاعلة مبدعة لها. وكذلك الشعاع مع النار والشمس ونحو ذلك، وأما ما يكون فاعلا فلا يتصور ان يقارنه مفعوله فى الزمان، سواء كان فاعلا بالارادة أو قدر أنه فاعل بغير إرادة، وسواء سمي فاعلا بالذات أو بالطبع، أو ما قدر، لا يتصور أن يكون المفعول مقارناً لفاعله فى الزمان، كما اعترف بذلك جماهير .

وأرسطو وأتباعه لم يقولوا إن الفلك مفعول للرب، ولا أنه معلول لعلة فاعلية أبدعت ذاته؛ بل زعموا أنه قديم واجب بنفسه، وأن له علة غائية يتشبه بها، نحو حركة المعشوق يجب أن يقتدى به، والفلك عندهم يتحرك للتشبه بتلك العلة، ولهذا قالوا: «الفلسفة» هي التشبه بالاله بحسب الطاقة، وقولهم ـ وإن كان فيه من الكفر والجهل بالله أعظم مما فى قول ابن سينا وأتباعه، وفيهم من التناقض فى الالهيات. ماليس هذا موضع بسطه ـ فلم يتناقضوا فى إثبات ممكن قديم كتناقض متأخريهم.

---

١ ـ كتاب الأربعين فى أصول الدين للامام فخر الدين الرازى قام بتحقيقه الدكتور أحمد حجازى السقا وقامت بطبعه ونشره مكتبة الكليات الأزهريه ـ القاهرة .

ولهذا لما كانت هذه القضية مستقرة فى فطر العقلاء وكان مجرد العلم والخبر بأن السموات مخلوقة أو مصنوعة أو مفعولة موجباً للعلم بأنها حادثة، لايخطر بالفطر السليمة امكان كونها مفعولة لفاعل فعلها مع كونها قديمة لم تزل معه، ولهذا لم يدع هذا إلا هذه الشرذمة القليلة من المتفلسفة.

و«أيضاً» فان ما استلزم الحوادث يمتنع أن يكون فاعله موجباً بذاته يستلزم معلوله فى الأزل، فان الحوادث المتعاقبة شيئا بعد شيء لا يكون مجموعها فى الأزل ولا يكون شيء منها أزلياً، بلا الأزلي هو دوامها واحداً بعد واحد، والموجب بذاته المستلزم لمعلوله فى الأزل لايكون معلوله شيئاً بعد شيء، سواء كان صادراً عنه بواسطة أو بغير واسطة، فان ماكان واحدا بعد واحد يكون متعاقباً حادثاً شيئاً بعد شيء، فيمتنع أن يكون معلولا مقارناً لعلته فى الأزل بخلاف ما إذا قيل ان المقارن لذلك هو الموجب بذاته الذي يفعل شيئاً بعد شيء، فانه على هذا التقدير لايكون فى الأزل موجباً بذاته، ولا علة سابقة تامة لشيء من العالم، فلا يكون معه فى الأزل من المخلوقات شيء لكن فاعليته للمفعولات تكون شيئاً بعد شيء، وكل مفعول يوجد عنده وجود كمال فاعليته، إذ الموثر التام المستلزم لجميع شروط التأثير لا يتخلف عنه اثره؛ إذ لو تخلف لم يكن موثراً تاماً، فوجود الاثر يستلزم وجود المؤثر التام، ووجود المؤثر التام يستلزم وجود الأثر فليس في الأزل مؤثر تام، فليس مع الله شيء من مخلوقاته قديم بقدمه، والأزل ليس هو حداً محدوداً ولا وقتاً؛ معيناً؛ بل كل مايقدره العقل من الغاية التى ينتهى إليها فالأزل قبل ذلك، كما هو قبل ماقدره، فالأزل لا أول له، كما ان الأبد لا آخر له.

وفى الحديث الصحيح عن النبى صلى الله عليه وسلم انه كان يقول: «انت الأول فليس قبلك شيء، وأنت الآخر فليس بعدك شيء»[1] فلو قيل انه مؤثر تام فى الأزل لشىء من الأشياء لزم ان يكون مقارنا له دائماً، وذلك ينافى كونه مفعولا له، وانما يصح مثل هذا فى الصفة اللازمة للموصوف، فانه إذا قيل: الذات مقتض تام للصفة كان المعنى أن الذات مستلزمة للصفة، ليس المراد بذلك ان الذات مبدعة للصفة، فانه اذا تصور معنى المبدع امتنع فى المقارن بصريح المعقول، سواء سمي علة فاعلة أو خالقاً أو غير ذلك، وامتنع ان يقوم بالأثر شيء من الحوادث؛ لأن كل حادث يحدث لايحدث إلا إذا وجد مؤثره التام عند حدوثه، وان كانت ذات المؤثر موجودة قبل ذلك؛ لكن لابد من كمال وجود شروط التأثير عند وجود الأثر وإلا لزم الترجيح بلا مرجح، وتخلف المعلول عن العلة التامة، ووجود الممكن بدون المرجح التام. وكل هذا ممتنع، فامتنع ان يكون مؤثراً لشيء من الحوادث في الأزل، وامتنع ان يكون مؤثراً فى الأزل فيما يستلزم الحوادث، لأن وجود الملزوم بدون اللازم محال فامتنع ان يكون المفعول المستلزم للحوادث قديماً.

وإذا قيل ذاته مقتضية للحادث الثانى بشرط انقضاء الأول. قيل: فليس هو مقتضياً لشيىء واحد دائماً، فلا يكون معه قديم من مفعولاته. وقيل أيضاً: هذا انما يكون إذا كانت لذاته احوال متعاقبة تختلف المفعولات

١- هذا جزء من حديث طويل أخرجه الترمذى فى كتاب الدعوات ٣٤٨١ بسنده عن الأعمش عن أبى صالح عن أبى هريرة قال: جاءت فاطمة إلى النبى - صلى الله عليه وسلم - تسأله خادماً فقال لها: قولى: وذكره.

قال الترمذى: هذا حديث حسن غريب، وأخرجه أبو داود فى الأدب ١٠٩ وابن ماجة فى الدعاء ٢ ، ١٠ ، ١٥ وأحمد بن حنبل فى المسند ٢ : ٣٨١ . ٤٠٤ . ٥٣٦ (حلبى)

لأجلها، فاما إذا قدر ان لايقوم بها شيء من الأحوال المتعاقبة؛ بل حالها عند وجود الحادث كحالها قبله، كان امتناع فعله للحوادث المتعاقبة البائنة أعظم من امتناع فعله لحادث معين، فإذا كان الثاني ممتنعاً عندهم فالأول أولى بالامتناع، ومتى كان للذات أحوال متعاقبة تقوم بها بطلت كل حجة لهم على قدم شيء من العالم، وامتنع أيضاً قدم شيء من العالم إذا كان المفعول لابد له من فاعل والفعل الحادث لايكون مفعوله الا حادثاً. وهذا مبسوط في غير هذا الموضع.

فصـــل

فى مسألة كلام الله

وإذا عرف الأصل الذى منه تفرع نزاع الناس فى «مسألة كلام الله» فالذين قالوا ما لايسبق الحوادث فهو حادث مطلقاً تنازعوا فى كلام الله تعالى. فقال كثير من هؤلاء: الكلام لا يكون إلا بمشيئة المتكلم وقدرته، فيكون حادثاً كغيره من الحوادث، ثم قالت طائفة:والرب لاتقوم به الحوادث، فيكون الكلام مخلوقاً فى غيره، فجعلوا كلامه مخلوقاً من المخلوقات، ولم يفرقوا بين قال وفعل. وقد علم أن المخلوقات لايتصف بها الخالق، فلا يتصف بما يخلقه فى غيره، من الألوان والأصوات، والروائح والحركة، والعلم والقدرة، والسمع والبصر، فكيف يتصف بما يخلقه فى غيره من الكلام، ولو جاز ذلك لكان مايخلقه من انطاق الجمادات كلامه، ومن علم انه خالق كلام العباد وأفعالهم يلزمه ان يقول كل كلام فى الوجود فهو كلامه، كما قال بعض الاتحادية:

وكل كلام فى الوجود كلامه ... سواء علينا نثره ونظامه

وهذا قول الجهمية والنجارية والضرارية[1] وغيرهم، فان هؤلاء يقولون: انه خالق أفعال العباد وكلامهم، مع قولهم ان كلامه مخلوق فيلزمهم هذا.

وأما «المعتزلة» فلا يقولون ان الله خالق افعال العباد، لكن الحجة توجب القول بذلك.

١- سبق الحديث عن هذه الفرقة قريباً من هذا.

وقالت طائفة: بل الكلام لابد ان يقوم بالمتكلم، ويمتنع ان يكون كلامه مخلوقاً فى غيره، وهو متكلم بمشيئته وقدرته فيكون كلامه حادثاً بعد ان لم يكن؛ لامتناع حوادث لا أول لها. وهذا قول الكرامية وغيرهم. ثم من هؤلاء من يقول: كلامه كله حادث لامحدث. ومنهم من يقول هو حادث ومحدث. وقال كثير من هؤلاء الذين يقولون بامتناع حوادث لا أول لها مطلقاً: الكلام لازم لذات الرب، كلزوم الحياة ليس هو متعلقاً بمشيئته وقدرته بل هو قديم كقدم الحياة؛ إذ لو قلنا انه بقدرته ومشيئته لزم ان يكون حادثاً، وحيئذ فيلزم ان يكون مخلوقاً أو قائماً بذات الرب، فيلزم قيام الحوادث به وذلك يستلزم تسلسل الحوادث؛ لأن القابل للشيء لايخلو عنه أو عن ضده. قالوا: وتسلسل الحوادث ممتنع؛ إذ التفريع على هذا الأصل.

ثم ان هؤلاء لما قالوا بقدم عين الكلام تنازعوا فيه فقالت طائفة: القديم لايكون حروفاً ولا أصواتاً: لأن الصوت يستحيل بقاؤه، كما يستحيل بقاء الحركة، وما امتنع بقاؤه امتنع قدم عينه بطريق الأولى والأحرى، فيمتنع قدم شيء من الأصوات المعينة، كما يمتنع قدم شيء من الحركات المعينة؛ لأن تلك لاتكون كلاماً إلا إذا كانت متعاقبة، والقديم لايكون مسبوقاً بغيره، فلو كانت الميم من (بسم الله) قديمة مع كونها مسبوقة بالسين والباء لكان القديم مسبوقاً بغيره، وهذا ممتنع فيلزم أن يكون القديم هو المعنى فقط ولايجوز تعدده؛ لأنه لو تعدد لكان اختصاصه بقدر دون قدر ترجيحاً بلا مرجح، وان كان لايتناهى لزم وجود اعداد لانهاية لها فى آن واحد. قالوا: وهذا ممتنع، فيلزم ان يكون معنى واحداً هو الأمر والخبر، وهو معنى التوراة والانجيل والزبور والقرآن، وهذا أصل قول الكلابية والأشعرية.

وقالت طائفة من أهل الكلام والحديث والفقهاء وغيرهم: بل هو حروف

قديمة الأعيان لم تزل ولاتزال، وهي مترتبة فى ذاتها لافي وجودها، كالحروف الموجودة فى المصحف وليس بأصوات قديمة.

ومنهم من قال: بل هو أيضاً أصوات قديمة ولم يفرق هؤلاء بين الحروف المنطوقة التى لاتوجد إلا متعاقبة، وبين الحروف المكتوبة التى توجد فى آن واحد، كما يفرق بين الأصوات والمداد؛ فان الأصوات لاتبقى بخلاف المداد فانه جسم يبقى، وإذا كان الصوت لايبقى امتنع ان يكون الصوت المعين قديماً؛ لأن ماوجب قدمه لزم بقاؤه وامتنع عدمه، والحروف المكتوبة قد يراد بها نفس الشكل القائم بالمداد أو مايقدر بقدر المداد: كالشكل المصنوع فى حجر وورق، فازالة بعض اجزائه تدل على حدوثه، وقد يراد بالحروف نفس المداد.

واما الحروف المنطوقة فقد يراد بها أيضاً الأصوات المقطعة المؤلفة. وقد يراد بها حدود الأصوات وأطرافها، كما يراد بالحرف فى الجسم حده ومنتهاه. فيقال: حرف الرغيف وحرف الجبل ونحو ذلك. ومنه قوله تعالى: (ومن الناس من يعبد الله على حرف)[1] وقد يراد بالحروف الحروف الخيالية الباطنة، وهي مايتشكل فى باطن الإنسان من الكلام المؤلف المنظوم قبل أن يتكلم به.

وقد تنازع الناس هل يمكن وجود حروف بدون أصوات فى الحي الناطق؟ على قولين لهم، وعلى هذا تنازعت هذه الطائفة القائلة بقدم أعيان الحروف، هل تكون قديمة بدون أصوات قديمة أم لابد من أصوات قديمة لم تزل ولا تزال؟

ثم القائلون بقدم الأصوات المعينة تنازعوا فى المسموع من القارىء. هل

١- سورة الحج آية رقم ١١

يسمع منه الصوت القديم؟ فقيل: المسموع هو الصوت القديم وقيل بل المسموع هو صوتان أحدهما القديم، والآخر المحدث، فما لابد منه فى وجود القرآن فهو القديم، وما زاد على ذلك فهو المحدث. وقيل: بل الصوت القديم غير المسموع من العبد.

وتنازعوا في «القرآن» هل يقال انه حال فى المصحف والصدور أم لايقال ذلك؟ على قولين. فقيل: هو ظاهر في المحدث ليس بحال فيه. وقيل: بل القرآن حال فى الصدور والمصاحف، فهؤلاء الخلقية والحادثية، والاتحادية والاقترانية أصل قولهم ان مالا يسبق الحوادث فهو حادث مطلقاً. ومن قال بهذا الأصل فانه يلزمه بعض هذه الأقوال أو مايشبه ذلك، فان من الناس من يجعله حادثاً، يريد انه كائن بعد ان لم يكن، ويجعل الحادثات ارادات وتصورات لاحروف وأصوات. ؟ وغيره يميلون إلى هذا القول؛ فانه اما أن يجعل كلام الله حادثاً أو قديماً، وإذا كان حادثاً فاما ان يكون حادثاً فى غيره واما ان يكون حادثاً فى ذاته، وإذا كان قديماً فاما أن يكون القديم المعنى فقط، أو اللفظ فقط، أو كلاهما، فإذا كان القديم هو المعني فقط لزم أن لايكون الكلام المقروء كلام الله تعالى ثم الكلام فى ذلك المعنى قد عرف.

وأما قدم اللفظ فقط، فهذا لم يقل به أحد؛ لكن من الناس من يقول ان الكلام القديم هو اللفظ. وأما معناه فليس هو داخلا في مسمى الكلام، بل هو العلم والارادة وهما قديمان، لكن ليس ذلك داخلا فى مسمى الكلام، فهذا يقول الكلام القديم هو اللفظ فقط إما الحروف المؤلفة واما الحروف والأصوات؛ لكنه يقول إن معناه قديم.

وأما «الفريق الثاني» الذين قالوا بجواز حوادث لا أول لها مطلقاً، وان

القديم الواجب بنفسه يجوز أن تتعقب عليه الحوادث مطلقاً، وإن كان ممكناً لا واجباً بنفسه، فهؤلاء القائلون بقدم العالم كما يقولون بقدم الأفلاك، وانها لم تزل ولاتزال معلولة لعلة قديمة أزلية، لكن المنتسبون إلى الملل كابن سينا ونحوه منهم قالوا انها صادرة عن الواجب بنفسه الموجب لها بذاته، وأما أرسطو وأتباعه فانهم قالوا: ان لها علة غائية تتحرك للتشبه بها في تحركها، كما يحرك المعشوق عاشقه، ولم يثبتوا لها مبدعا موجباً ولا موجباً قائما بذاته، ولا قالوا ان الفلك ممكن بنفسه واجب بغيره، بل الفلك عندهم واجب بنفسه، لكن قالوا، مع ذلك: إن له علة غائية يتحرك للتشبه بها لاقوام له إلا بها، فجعلوا الواجب بنفسه الذي لافاعل له مفتقرا إلى علة غائية منفصلة عنه، هذه حقيقة قول أرسطو وأتباعه؛ ولهذا لم يثبتوا الاول عالماً بغيره؛ إذ لم يكن الأول عندهم مبدعا للفلك؛ فإنه إذا كان مبدعا يجب ان يكون عالما بمفعوله، كما قال: (ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير؟)(١).

ولهذا كانت أقوالهم في الالهيات من أعظم الأقوال فساداً، بخلاف اقوالهم في الطبيعيات؛ ولهذا كان قولهم اشد فساداً في العقل والدين من قول ابن سينا وأتباعه، ولم يثبت أرسطو وأتباعه «العلة الأولى» بطريقة الوجود، ولا قسموا الوجود القديم إلى واجب وممكن، بل الممكن عندهم لايكون إلا حادثا، ولا اثبتوا للموجود الواجب الخصائص المميزة للرب عن الأفلاك، بل هذا من تصرف متأخريهم الذين خلطوا فلسفتهم بكلام المعتزلة ونحوهم، وانما أثبت واجب الوجود بطريقة الوجود ابن سينا وأتباعه.

وحقيقة قول هؤلاء وجود الحوادث بلا محدث أصلا، أما على قول من

١- سورة الملك آية رقم ١٤.

جعل الأول علة غائية للحركة فظاهر، فانه لا يلزم من ذلك أن يكون هو فاعلا لها. فقولهم في حركات الأفلاك نظير قول القدرية في حركة الحيوان، وكل من الطائفتين قد تناقض قولهم. فان هؤلاء يقولون بأن فعل الحيوان صادر عن غيره؛ لكون القدرة والداعي مستلزمين وجود الفعل، والقدرة والداعي كلاهما من غير العبد.

فيقال لهم: فقولوا هكذا فى حركة الفلك بقدرته وداعيه، فانه يجب أن يكونا صادرين عن غيره، وحينئذ فيكون الواجب بنفسه هو المحدث لتلك الحوادث شيئاً بعد شيء، وان كان ذلك بواسطة العقل، وهذا القول هو الذي يقوله ابن سينا وأتباعه، وهو باطل أيضاً؛ لأن الموجب بذاته القديم الذي يقارنه موجبه ومقتضاه يمتنع ان يصدر عنه حادث بواسطة أو بلا واسطة، فان صدور الحوادث عن العلة التامة الأزلية ممتنع لذاته.

وإذا قالوا الحركة بتوسطه أي [بتوسط] حركة الفلك، قيل لهم: فالكلام إنما هو فى حدوث الحركة الفلكية، فان الحركة الحادثة شيئ بعد شيء يمتنع أن يكون المقتضى لها علة تامة أزلية، مستلزمة لمعلولها، فان ذلك جمع بين النقيضين؛ إذ القول بمقارنة المعلول لعلته في الأزل ووجوده معها يناقض أن يتخلف المعلول أو شي من المعلول عن الأزل بل يمتنع أن يكون المقتضى لها ذاتا بسيطة لا يقوم بها شيء من الصفات والأحوال المقتضية لحدوث الحوادث المتعاقبة المختلفة؛ بل يمتنع ان يكون المقتضى لها ذاتا موصوفة لايقوم بها شيء من الأحوال الموجبة لحدوث الحوادث المذكورة؛ فان التجدد والتعدد الموجود فى المعلولات يمتنع صدوره عن علة واحدة بسيطة من كل وجه، فصار حقيقة قولهم ان الحوادث العلوية والسفلية لامحدث لها.

وهؤلاء يقولون كلام الله مايفيض على النفوس الصافية، كما ان ملائكة الله عندهم مايتشكل فيها من الصور النورانية، فلا يثبتون له كلاما خارجاً عما فى نفوس البشر، ولا ملائكة خارجة عما فى نفوسهم غير «العقول العشرة» و«النفوس الفلكية التسعة»، مع أن أكثرهم يقولون انها أعراض، وقد بين فى غير هذا الموضع ان مايثبتونه من المجردات العقلية التى هي العقول والنفوس والمواد والصور، انما وجودها فى الأذهان لا فى الأعيان.

وأما «الصنف الثالث» الذين فرقوا بين الواجب والممكن[1]، والخالق والمخلوق، والغنى الذي لايفتقر إلى غيره، والفقير الذي لاقوام له إلا بالغني، فقالوا: كل ماقارن الحوادث من الممكنات فهو محدث كائن بعد ان لم يكن، وهو مخلوق مصنوع مربوب، وانه يمتنع أن يكون فيما هو فقير ممكن مربوب شيء قديم فضلا عن ان تقارنه حوادث لا أول لها؛ ولهذا كانت حركات الفلك دليلا على حدوثه كما تقدم التنبيه على ذلك.

وأما «الرب تعالى» إذا قيل لم يزل متكلما إذا شاء أو لم يزل فاعلا لما يشاء لم يكن دوام كونه متكلما بمشيئته وقدرته، ودوام كونه فاعلا بمشيئته وقدرته ممتنعاً؛ بل هذا هو الواجب،؛ لأن الكلام صفة كمال لانقص فيه،

١- الممكن: هو الذي يتساوى فيه الوجود والعدم، وهو احدى مقولات الجهة، ويقابله الممتنع والضرورى.

قال ابن سينا: إن الواجب الوجود هو الموجود الذي متى فرض غير موجود عرض منه محال، وان الممكن الوجود هو الذي متى فرض غير موجود أو موجوداً لم يعرض منه محال، والواجب الوجود هو الضرورى الوجود، والممكن الوجود هو الذى لاضرورة فيه بوجه، أى لا فى وجوده، ولا فى عدمه، وللممكن معنيان الأول: سلب الضرورة، والثانى هو الوجود بالقوة، ويسمى بالامكان الاستعدادى.

راجع النجاة : ٣٦٦ وكشاف اصطلاحات الفنون للتهانوى

فالرب أحق أن يتصف بالكلام من كل موصوف بالكلام؛إذ كل كمال لانقص فيه ثبت للمخلوق فالخالق أولى به؛لأن القديم الواجب الخالق أحق بالكمال المطلق من المحدث الممكن المخلوق؛ولأن كمال ثبت للمخلوق فانما هو من الخالق، وما جاز اتصافه به من الكمال وجب له، فانه لو لم يجب له لكان اما ممتنعاً وهو محال بخلاف الفرض، وإما ممكناً، فيتوقف ثبوته له على غيره، والرب لايحتاج في ثبوت كماله إلى غيره، فان معطى الكمال أحق بالكمال، فيلزم أن يكون غيره أكمل منه لو كان غيره معطياً له الكمال، وهذا ممتنع؛ بل هو بنفسه المقدسة مستحق لصفات الكمال،فلا يتوقف ثبوت كونه متكلما على غيره، فيجب ثبوت كونه متكلما، وان ذلك لم يزل ولايزال، والمتكلم بمشيئته وقدرته أكمل ممن يكون الكلام لازماً له بدون قدرته ومشيئته، والذي لم يزل متكلما إذا شاء أكمل ممن صار الكلام يمكنه بعد ان لم يكن الكلام ممكناً له.

وحينئذ فكلامه قديم مع انه يتكلم بمشيئته وقدرته، وان قيل: انه ينادي ويتكلم بصوت ولايلزم من ذلك قدم صوت معين، وإذا كان قد تكلم بالتوراة والقرآن والانجيل بمشيئته وقدرته لم يمتنع ان يتكلم بالباء قبل السين، وان كان نوع الباء والسين قديماً لم يستلزم ان تكون الباء المعينة والسين المعينة قديمة؛ لما علم من الفرق بين النوع والعين، وهذا الفرق ثابت فى الارادة والكلام، والسمع والبصر وغير ذلك من الصفات، وبه تنحل الاشكالات الواردة على وحدة هذه الصفات وتعددها، وقدمها وحدوثها، وكذلك تزول به الاشكالات الواردة فى أفعال الرب، وقدمها وحدوثها، وحدوث العالم.

وإذا قيل: ان حروف المعجم قديمة بمعنى النوع كان ذلك ممكناً، بخلاف ما

إذا قيل ان عين اللفظ الذي نطق به زيد وعمرو قديم، فان هذا مكابرة للحس.والمتكلم يعلم ان حروف المعجم كانت موجودة قبل وجوده بنوعها. وأما نفس الصوت المعين الذي قام به التقطيع أو التأليف المعين لذلك الصوت؛ فيعلم ان عينه لم تكن موجودة قبله، والمنقول عن الامام أحمد وغيره من ائمة السنة مطابق لهذا القول؛ ولهذا انكروا على من زعم ان حرفا من حروف المعجم مخلوق، وانكروا على من قال: «لما خلق الله الحروف سجدت له إلا الألف، فقالت لا اسجد حتى أومر» مع ان هذه الحكاية نقلت لأحمد عن سري السقطي[1]. وهو نقلها عن بكر بن خنيس العابد، ولم يكن قصد أولئك الشيوخ بها إلا بيان ان العبد الذي يتوقف فعله على الأمر والشرع هو أكمل من العبد الذي يعبد الله بغير شرع؛ فان كثيراً من العباد يعبدون الله بما تحبه قلوبهم، وان لم يكونوا مأمورين به، فقصد أولئك الشيوخ ان من عبد الله بالأمر ولم يفعل شيئاً حتى يؤمر به فهو افضل ممن عبده بما لم يؤمر به، وذكروا هذه الحكاية الإسرائيلية شاهداً لذلك، مع ان هذه لا اسنادلها، ولايثبت بها حكم ولكن الإسرائيليات إذا ذكرت علي طريق الاستشهاد بها لما عرف صحته لم يكن بذكرها بأس، وقصدوا بذلك الحروف المكتوبة؛ لأن الألف منتصبة وغيرها ليس كذلك، مع ان هذا أمر اصطلاحى وخط غير العربي لايماثل خط العربي، ولم يكن قصد أولئك الأشياخ ان نفس الحروف المنطوقة التى هي مباني أسماء الله الحسنى، وكتبه المنزلة، مخلوقة بائنة عن الله؛ بل هذا شيء لعله لم يخطر بقلوبهم، والحروف المنطوقة لا يقال فيها انها منتصبة ولا ساجدة، فمن احتج بهذا من قولهم

---

(١) سبقت الترجمة له في كلمة وافية

على انهم يقولون: ان الله لم يتكلم بالقرآن العربي ولا بالتوراة العبرية، فقد قال عنهم مالم يقولوه.

واما الامام أحمد: فانه أنكر اطلاق هذا القول، وما يفهم منه عند الاطلاق، وهو ان نفس حروف المعجم مخلوقة، كما نقل عنه انه قال: ومن زعم ان حرفا من حروف المعجم مخلوق فهذا جهمي يسلك طريقاً إلى البدعة، فانه إذا قال ان ذلك مخلوق. فقد قال: ان القرآن مخلوق- أو كما قال- ولاريب ان من جعل نوع الحروف مخلوقا بائناً عن الله كائنا بعد ان لم يكن لزم عنده ان يكون كلام الله العربى والعبري ونحوهما مخلوقا، وامتنع ان يكون الله متكلما بكلام، الذي أنزله على عبده محمد صلى الله عليه وسلم فلا يكون شيء من ذلك كلامه، فطريقة الامام أحمد وغيره من السلف مطابقة للقول الثالث، والموافق لصريح المعقول وصحيح المنقول.

الشيخ الامام أبو الحسن محمد بن عبد الملك الكرخي الشافعي فى كتابه الذي سماه «الفصول فى الاصول»[1] سمعت الامام أبا منصور محمد بن أحمد يقول: سمعت الامام أبا بكر عبد الله بن أحمد يقول: سمعت الشيخ أبا حامد الاسفرائيني[2] يقول: مذهبى ومذهب الشافعى وفقهاء الامصار ان القران كلام الله غير مخلوق. ومن قال انه مخلوق فهو كافر،

١- لم نعثر عليه على كثرة البحث والتقصى ولم يذكره صاحب مفتاح السعادة، وايضاً صاحب كشف الظنون لم يتعرض له.

٢- هو أحمد بن محمد بن أحمد الاسفراينى أبو حامد من أعلام الشافعية ولد فى اسفرايين، ورحل إلى بغداد فتفقه فيها وعظمت مكانته وألف كتباً منها مطول فى أصول الفقه ومختصر فى الفقة سماه (الرونق) وتوفى ببغداد عام ٤٠٦هـ.

راجع طبقات الشافعية ٣ : ٢٤ والبداية والنهاية ١٢ : ٢ وابن خلكان ١ : ١٩.

والقران حمله جبريل عليه السلام مسموعا من الله، والنبى صلى الله عليه وسلم سمعه من جبريل، والصحابة سمعوه من رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهو الذي نتلوه نحن مقروء بألسنتنا، وفيما بين الدفتين، وما فى صدورنا مسموعا ومكتوبا،. ومحفوظاً ومقروءاً، وكل حرف منه كالباء والتاء كله كلام الله غير مخلوق، ومن قال إنه مخلوق فهو كافر عليه لعائن الله والملائكة والناس اجمعين.

والكلام على هذه الأمور مبسوط فى غير هذا الموضع، وذكر مايتعلق بهذا الباب من الكلام فى سائر الصفات: كالعلم والقدرة والارادة، والسمع والبصر والكلام فى تعدد الصفة واتحادها، وقدمها وحدوثها، أو قدم النوع دون الأعيان، أو اثبات صفة كلية عمومية متناولة الأعيان، مع تجدد كل معين من الأعيان، أو غيرذلك مما قيل فى هذا الباب، فان هذه مواضع مشكلة، وهي من محارات العقول؛ ولهذا اضطرب فيها طوائف من أذكياء الناس ونظارهم، والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم.

وسئل شيخ الإسلام

قدس الله روحه

اختلاف المسلمين فى كلام الله

عمن قال: اختلاف المسلمين فى كلام الله تعالى على «ثلاثة أنحاء» فقوم إلى أنه قديم الحرف والصوت وهم الحشوية[1] ، وقوم إلى أنه حادث بالصوت والحرف وهم الجهمية ومن تابعهم، وقوم إلى أنه قديم لا بصوت ولا حرف إلا معنى قائم بذات الله وهم الأشعرية[2]؟

فأجاب - رضى الله عنه وأرضاه :-

الحمد لله رب العالمين. قول القائل: إن اختلاف المسلمين فى كلام الله على «ثلاثة أنحاء» الخ هو كلام بحسب مابلغه من ذلك، واكثر من تكلم فى هذه المسألة من المتأخرين إنما يذكر فيها بعض اختلاف الناس. فقوم يحكون أربعة أقوال، كأبى المعالي ونحوه. وقوم يحكون خمسة أو ستة. كالشهرستانى[3] ونحوه.

١- فرقة من الفرق الإسلامية أجمعت على الجبر والتشبيه وينكرون الخوض فى الكلام والجدل ويقولون على التقليد وظواهر الروايات والتشبيه ولهذا تسمى بالمشبهة.

٢- سبقت الترجمة عن هذه الفرقة قريباً من هنا

٣- هو محمد بن عبد الكريم بن احمد أبو الفتح الشهرستانى من فلاسفة الإسلام كان إماماً فى علم الكلام وأديان الأمم ومذاهب الفلاسفة يلقب بالأفضل ولد فى شهرستان عام ٤٧٩ وتوفى عام ٥٤٨هـ له مؤلفات كثيرة.

راجع وفيات الأعيان ١ : ٤٨٢ ومفتاح السعادة ١:٢٦٤

والأقوال التى قالها المنتسبون إلى القبلة فى هذه المسألة تبلغ سبعة أو أكثر.

[الأول] «قول المتفلسفة» ومن وافقهم من متصوف، ومتكلم، كابن سيناء وابن عربى الطائى[1]، وابن سبعين[2]، وأمثالهم ممن يقول [بقول] الصابئة الذين يقولون إن كلام الله ليس له وجود خارج عن نفوس العباد؛ بل هو مايفيض على النفوس من المعانى: أعلاما وطلبا: إما من العقل الفعال كما يقوله كثير من المتفلسفة، واما مطلقا كما يقوله بعض متصوفة الفلاسفة. وهذا قول الصابئة ونحوهم. وهؤلاء يقولون: الكلام الذي سمعه موسى لم يكن موجوداً إلا فى نفسه، وصاحب «مشكات الأنوار»[3] وأمثاله فى كلامه، مايضاهي كلام هؤلاء أحياناً، وان كان أحياناً يكفرهم، وهذا القول أبعد عن الإسلام ممن يقول: القرآن مخلوق.

و (القول الثانى) قول الجهمية من المعتزلة وغيرهم، الذين يقولون: كلام الله مخلوق، يخلقه فى بعض الأجسام، فمن ذلك الجسم ابتدأ، لا من الله، ولا يقوم ـ عندهم ـ بالله كلام ولا إرادة، وأول هؤلاء «الجعد بن درهم» الذي ضحى به خالد بن عبد الله القسرى ـ لما خطب الناس يوم عيد النحر ـ

١- سبقت الترجمة له فى كلمة وافية

٢- هو عبد الحق بن ابراهيم بن محمد بن نصر بن سبعين الأشبيلى المرسى أبو محمد من زهاد الفلاسفة، ومن القائلين بوحدة الوجود صنف كتاب الحروف الوضعية فى الصورة الفلكية وشرح كتاب ادريس عليه السلام الذي وضعه فى علم الحرف، وكتاب البدو، وكتاب اللهو توفى عام ٦٦٩هـ

راجع جلاء العينين ٥١ وفوات الوفيات ١:٢٤٧ ونفح الطيب ١:٤٢١ وشذرات الذهب ٥:٣٢٩.

٣- يسمى (مشكاة الأنوار فى لطائف الأخبار) فى الموعظة للامام حجة الاسلام أبى حامد الغزالى. وهى مقصودة فى ثمانية واربعين بابا أوله الحمد لله الذي نور قلوب أوليائه بانوار معرفته.

راجع كشف الظنون ٢:١٦٩٣.

وقال: ضحوا تقبل الله ضحاياكم، فانى مضح بالجعد بن درهم، انه زعم أن الله لم يتخذ ابراهيم خليلا، ولم يكلم مرسى تكليماً، تعالى الله عما يقول الجعد علوا كبيرا، ثم نزل فذبحه.

وهؤلاء هم الذين دعوا من دعوه من الخلفاء إلى مقالتهم، حتى امتحن الناس فى القرآن بالمحنة المشهورة فى إمارة المأمون[١]، والمعتصم[٢] والواثق[٣]، حتى رفع الله شأن من ثبت فيها من أئمة السنة: كالامام أحمد - رحمه الله- وموافقيه، وكشفها الله عن الناس فى إمارة المتوكل[٤] وظهر في الأمة «مقالة السلف»: ان القرآن كلام الله غير مخلوق، منه بدأ وإليه يعود. أى هو المتكلم به، لم يبتدأ من بعض المخلوقات - كما قالت الجهمية- بل هو منه نزل، كما قال تعالى: (تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم)[٥] وقال: (والذين آتيناهم الكتاب يعلمون أنه منزل من ربك بالحق)[٦] وقال: (حم، تنزيل من الرحمن الرحيم)[٧] وقوله: (قل نزله روح القدس من ربك بالحق)[٨].

ثم لما شاعت المحنة كثر اضطراب الناس وتنازعهم فى ذلك، حتى صار أهل السنة والجماعة ـ المتفقون على ان كلام الله منزل غير مخلوق ـ يقول كل منهم قولا يخالف به صاحبه، وقد لا يشعر أحدهم بخلاف الأدلة وصار اتباع الأئمة الأربعة ـ كأبي حنيفة، ومالك، والشافعي، وأحمد، مع كون الظاهر المشهور عندهم أن القرآن كلام الله غير مخلوق ـ بين كل طائفة منهم تنازع فى تحقيق ذلك، كما سننبه على ذلك.

١- هو عبد الله بن هارون الرشيد بن محمد المهدى بن أبى جعفر المنصور العباسى سابع الخلفاء من بنى العباس فى العراق عرفه ابن وحية فقال: العالم المحدث النحوى اللغوى ولى الخلافة بعد خلع

و [القول الثالث] قول أبى محمد عبد الله بن سعيد بن كلاب البصري ومن اتبعه: كلالقلانسي وأبى الحسن الأشعري وغيرهم، ان كلام الله معنى قائم بذات الله، هو الأمر بكل مأمور أمر الله به، والخبر عن كل مخبر أخبر الله عنه، ان عبر عنه بالعربية كان قرآنا، وان عبر عنه بالعبرية كان توراة، وان عبر عنه بالسريانية كان انجيلا.

=== أخيه المأمون سنة ١٩٨هـ فتمم مابدأ به جده المنصور من ترجمة كتب العلم والفلسفة، وأخباره كثيرة توفى عام ٢١٨هـ.

راجع تاريخ بغداد ١٠ : ١٨٣ والمسعودى ٢ : ٢٤٧

٢ - هو محمد بن هارون الرشيد بن المهدى بن المنصور أبو اسحاق المعتصم بالله العباسى بويع بالخلافة سنة ٢١٨هـ يوم وفاة المأمون ويعهد منه وكان بطرسوس وعاد إلى بغداد وكان قوى الساعد يكسر زند الرجل بين أصبعيه ولاتعمل فى جسمه الاسنان وهو فاتح عمورية من بلاد الروم، وبانى مدينة سامرا وتوفى بها عام ٢٢٧هـ

راجع ابن الاثير ٦ : ١٤٨-١٧٩ واليعقوبى ٣:١٩٧.

٣ - هو هارون بن محمد ابن هارون الرشيد أبو جعفر من خلفاء الدولة العباسية بالعراق ولد ببغداد وولى الخلافة بعد وفاة أبيه سنة ٢٢٧هـ فامتحن الناس فى خلق القرآن وسجن جماعة وقتل فى ذلك أحمد بن نصر الخزاعى بيده سنة ٢٣١ شغل نفسه بمحنة الناس فى الدين فأفسد قلوبهم ومات فى سامرا سنة ٢٣٢هـ.

٤- سبقت الترجمة له فى كلمة وافية.

راجع ابن الاثير ٧ : ١٠ والطبرى ١١ : ٢٤.

٥- سورة الزمر آية رقم ١

٦ - سورة الأنعام آية رقم ١١٤

٧ - سورة فصلت آية رقم ١ - ٢

٨ - سورة النحل اية رقم ١٠٢

والأمر والنهى والخبر ليست انواعا له ينقسم الكلام إليها، وإنما كلها صفات له إضافية، كما يوصف الشخص الواحد بانه ابن لزيد، وعم لعمرو، وخال لبكر.

والقائلون بهذا القول منهم من يقول: إنه معنى واحد فى الأزل وانه فى الأزل أمر ونهى وخبر، كما يقوله الأشعرى.

ومنهم من قال: بل يصير أمراً ونهياً عند وجود المأمور والمنهي.

ومنهم من يقول: هو عدة معان، الأمر والنهى، والخبر، والاستخبار.

وقد ألزم الناس أصحاب هذا القول أن يجعلوا العلم والقدرة والارادة والحياة شيئاً واحداً، فاعترف محققوهم بصحة الالزام.

وجمهور العقلاء - من أهل السنة وأهل البدعة - يقولون ان فساد هذا القول معلوم بالضرورة، كما يقولون: ان فساد قول من يقول: ان الاصوات المسموعة من العبادة قديمة معلوم بالضرورة، كما يقولون: ان فساد قول من يقول ان المتكلم يكون متكلما بكلام يقوم بغيره، وان العالم يكون عالماً بعلم يقوم بغيره، والقادرة يكون قادرا بقدرة تقوم بغيره معلوم بالضرورة.

وكما يقول جمهور العقلاء: ان فساد قول من يقول: ان العلم هو القدرة، والقدرة هي الارادة، وان العلم هو العالم، والقدرة هي القادر، معلوم بالضرورة.

[القول الرابع] قول طوائف من أهل الكلام والحديث من السالمية[1]

١- هم أصحاب سليمان بن جرير، وكان يقول: ان الامامة شورى فيما بين الخلق، ويصح أن تنعقد بعقد رجلين من خيار المسلمين وأنها تصح فى المفضول مع وجود الأفضل وأثبت امامة ابى بكر وعمر حقاً باختيار الأمة حقاً اجتهادياً.

راجع لسان الميزان ٣ : ٨ والفرق بين الفرق ٢٣٢ والملل والنحل ١ : ٢٥٩ - ٢٦٠.

وغيرهم يقولون: ان كلام الله حروف وأصوات قديمة أزلية، ولها مع ذلك معان تقوم بذات المتكلم، وهؤلاء يوافقون الأشعرية والكلابية في ان تكليم الله لعباده ليس إلا مجرد خلق إدراك للمتكلم، ليس هو امرأ منفصلا عن المستمع.

ثم ان جمهور هؤلاء لايقولون إن تلك الأصوات [هي] المسموعة من القارئين [بل] يفرقون بين هذا وهذا. ومنهم طائفة وهم أهل[1] يقولون: ان الصوت القديم يسمع من القاريء. ثم قد يقولون تارة: ان القديم نفس الصوت المسموع من القارىء، وتارة يقولون: انه يسمع من القاريء صوتان قديماً وحدثاً . وكثير منهم أو أكثرهم لايقولون بحلول القديم فى المحدث؛ بل يقولون ظهر فيه كما يظهر الوجه فى المرآة.

ومنهم من يقول بحلول القديم فى المحدث، وليس هذا القول ولا الأقوال قبله قول أحد من سلف الأمة ولا أئمتها، ولم يقل ذلك لا الامام أحمد، ولا أئمة اصحابه، ولا غيره من الأئمة؛ بل هم متفقون على الأنكار على من قال ان لفظي بالقرآن غير مخلوق، فكيف بمن قال صوتى غير مخلوق؟ فكيف بمن قال صوتى قديم؟!

وأما القول بان المداد الذي فى المصحف قديم: فهذا ما رأيناه في كتاب أحد من طوائف الإسلام، ولا نقله أحد عن رجل معروف من العلماء أنه سمعه منه؛ ولكن طائفة يسكتون عن التكلم في المداد بنفي أو اثبات، ويقولون: لانقول إنه قديم؛ ولكن نسكت سداً للذريعة. وقد حكاه طائفة عمن سموهم الحشوية القول بقدم المراد، وقالوا: انهم يقولون: ان المداد الذى

١- بياض بالاصل.

فى المصحف قديم، وانه لما كان فى المحبرة كان محدثا، فلما صار فى الورق صار قديما.

ورأينا طوائف يكذبون هؤلاء فى النقل، وكأن حقيقة الأمر أن أولئك يقولون قول غيرهم بمجرد مابلغهم من اطلاق قولهم، أو لما ظنوه لازما لهم، أو لما سمعوه ممن يجازف فى النقل ولايحرره، وربما سمعوه من بعض عوامهم ان كان ذلك قد وقع.

وهذا الباب وقع فيه غلط بهذا السبب، حتى غلط الناس على من يعظمونه؛ وبهذا السبب غلط ابا طالب «الامامُ احمدُ» فيما نقله عنه فانه قرأ عليه: (قل هو الله أحد) وسأله هذا مخلوق؟ فقال له أحمد هذا ليس بمخلوق، فبلغه أن أبا طالب حكى عنه انه قال لفظي بالقرآن غير مخلوق، فغضب عليه احمد، وقال: أنا قلت لك لفظي بالقرآن غير مخلوق؟ فقال: لا ولكن قرأت عليك: (قل هو الله أحد) فقلت لك: هذا غير مخلوق فقلت نعم. فقال: فلم حكيت عنى أني قلت لك لفظي بالقرآن غير مخلوق؟ فقال: لم احكه عنك وانما حكيته عن نفسى، قال: فلا تقل هذا فانى لم اسمع عالما يقول هذا؛ ولكن قل: القرآن حيث تصرف كلام الله غير مخلوق.

ولهذا قال البخاري في «كتاب خلق الأفعال»[1] إن «اللفظية» هؤلاء يذكرون قولهم عن أحمد وهم لايفهمون دقة قوله، وموضع الشبهة أنه إذا قال هذا، فالاشارة تكون إلى الكلام من حيث هو كلام، مع قطع النظر عما بلغ به من حركات العبد وصوته،كما ان الرجل إذا كتب اسم الله-تبارك وتعالى-

---

١- راجع هذا الكتاب بتحقيقنا ط مكتبات عكاظ بجده.

وسمع قائلا يذكر الله فقال هذا ربي كان صادقا، ولو قيل له: أتعبد هذا؟ لقال نعم. - لأن المشار إليه هو المسمى بذلك - الا تعلم المكتوب؟ والاسم يراد به من الكلام المؤلف المسمى، فإذا قال: (محمد رسول الله والذين معه) فالمراد ان المسمى الذي اسمه محمد هو رسول الله؛ ليس المراد ان نفس اللفظ والخط هو رسول الله.

ومن هنا تنازع الناس في «الاسم» هل هو المسمى أو غيره، وكان الصواب ان يمنع من كلا الاطلاقين، ويقال كما قال الله تعالى: (ولله الأسماء الحسني)[1] وكما قال صلى الله عليه وسلم: «ان لله تسعة وتسعين اسما، من احصاها دخل الجنة»[2]. والذين أطلقوا أنه المسمى كان أصل مقصودهم أن المراد به هو المسمى، وانه إذا ذكر الاسم فالاشارة به إلى مسماه، وإذا قال العبد حمدت الله ودعوت الله وعبدت الله فهو لايريد إلا أنه عبد المسى بهذا الاسم.

والذين نفوا ذلك رأوا أن نفس اللفظ أو الخط ليس هو الأعيان المسماة بذلك، وآخرون فرقوا بين التسمية والاسم، فجعلوا الألفاظ هي التسمية، وجعلوا الاسم هو الأعيان المسماة بالألفاظ، فخرجوا عن موجب اللغة المعروفة التى جاء بها الكتاب والسنة.

وأصل مقصود الطوائف كلها صحيح؛ إلا من توسل منهم بقوله إلى قول

١- سورة الأعراف آية رقم ١٨٠

٢- الحديث أخرجه البخارى فى كتاب التوحيد ٧٣٩٢ حدثنا أبو الزناد عن الأعرج عن أبى هريرة أن رسولة الله - صلى الله عليه وسلم - قال وذكره. وأخرجه الترمذى فى كتاب الدعوات ٨٢-٣٥٠٦ بسنده عن أبى هريرة بزيادة مائة غير واحد) وقال هذا حديث غريب. واحمد بن حنبل فى المسند ٢ : ٢٥٨، ٢٦٧. ٣١٤ (حلبى).

باطل: مثل قول الجهمية إن الاسم غير المسمى؛ فانهم توسلوا بذلك إلى أن يقولوا: أسماء الله غيره. ثم قالوا: وماكان غير الله فهو مخلوق بائن عنه، فلا يكون الله تعالى سمى نفسه باسم، ولا تكلم باسم من أسمائه، ولا يكون له كلام تكلم به؛ بل لايكون كلامه إلا ما كان مخلوقاً بائناً عنه.

فهؤلاء لما علم السلف أن مقصودهم باطل انكروا اطلاقهم القول بأن كلام الله غيره الله، وان علم الله غير الله وأمثال ذلك؛ لأن لفظ «الغير» مجمل، يحتمل الشيء البائن عن غيره، ويحتمل الشيء الذي ليس هو إياه ولا هو بائن عنه. فمن قال: إنه غير ليجعله بائناً عنه، كان كلا المعنيين صحيحاً وإن كان فى العبارة تقصير.

وهكذا أنكر الأئمة قول من قال: لفظي بالقرآن مخلوق أو غير مخلوق. وقالوا: من قال هو مخلوق فهو جهمي، ومن قال غير مخلوق فهو مبتدع. وكذلك قالوا فى «التلاوة، والقراءة» لأن اللفظ والتلاوة والقراءة يراد بهما المصدر الذي هو فعل العبد، وأفعال العباد مخلوقة، فمن جعل شيئاً من أفعالهم وأصواتهم وغير ذلك من صفاتهم غير مخلوق فهو مبتدع، ويراد بـ «اللفظ» نفس الملفوظ، كما يراد بالتلاوة والقراءة نفس الكلام، وهو القرآن نفسه. ومن قال كلام الله الذي أنزله على نبيه صلى الله عليه وسلم وقرأه المسلمون مخلوق فهو جهمي.

ومن المعلوم أنه إذا سمع الناس كلام محدث يحدث بحديث النبى صلى الله عليه وسلم، كقوله: «إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرىء مانوى»

١- سبق تخريجة الحديث قريباً من هذا.

قالوا: هذا كلام النبى صلى الله عليه وسلم، أو هذا كلامه بعينه؛ لأنهم قد علموا أن النبى صلى الله عليه وسلم تكلم بذلك الكلام لفظه ومعناه، وتكلم بصوته، ثم المبلغ له عنه بلغه بصوت نفسه، فالكلام كلام النبى صلى الله عليه وسلم، هو الذي تكلم بمعانيه وألف حروفه بصوته، والمبلغ له بلغه بفعل نفسه وصوت نفسه.

فإذا قالوا: هذا كلام النبى صلى الله عليه وسلم كانت إشارتهم إلى نفس الكلام الذي هو الكلام حروفه ونظمه ومعانيه، لا إلى مااختص به المبلغ من حركاته وأصواته؛ بل يضيفون الصوت إلى المبلغ فيقولن صوت حسن، وماكان فى الكلام من فصاحة حروفه ونظمه وبلاغة معانيه فانما يضاف إلى المتكلم به ابتداء، لا إلى المبلغ له؛ ولكن يضاف إلى المبلغ حسن الأداء: كتجويد الحروف، وتحسين الصوت؛ ولهذا قال تعالى: (وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله)[1].

وكان النبى صلى الله عليه وسلم يعرض نفسه على الناس، فيقول: «ألا رجل يحملنى إلى قومه لابلغ كلام ربى؟» وقال النبى صلى الله عليه وسلم: «زينوا القران بأصواتكم» وقال: «الله أشد أذنا إلى الرجل يحسن الصوت بالقرآن من صاحب القينة إلى قينته»[2].

فبين الله ورسوله ان القرآن المسموع كلام الله لا كلام أحد من المخلوقين، والناس يقرؤنه بأصواتهم، فمن قال: إن هذا القرآن المسموع ليس هو كلام الله، أو هو كلام القارئين كان فساد قوله معلوماً بالضرورة شرعاً وعقلاً، كما

١- سورة التوبة آية رقم ٦

٢- هذه الأحاديث الثلاثة سبق تخريجها فى هذا الجزء فليرجع إليها.

أن من قال: إن هذا الصوت المسموع ليس هو صوت العبد أو هو صوت الله كان فساد قوله معلوماً بالضرورة شرعا وعقلا؛ بل هذا هو كلام الله لا كلام غيره، سمعه جبريل من الله وسمعه النبى صلى الله عليه وسلم من جبريل، وسمعه المسلمون من نبيهم، ثم بلغه بعضهم إلى بعض، وليس لأحد من الوسائط فيه إلا التبليغ بأفعاله وصوته، لم يحدث منهم أحد شيئاً من حروفه، ولا نظمه، ولا معانيه؛ بل جميع ذلك كلام الله تعالى.

[القول الخامس] قول الهشامية والكرامية ومن وافقهم أن كلام الله حادث قائم بذات الله بعد أن لم يكن متكلماً بكلام؛ بل مازال عندهم قادراً على الكلام، وهو عندهم لم يزل متكلماً بمعنى أنه لم يزل قادراً على الكلام، والا فوجود الكلام عندهم فى الأزل ممتنع؛ كوجود الأفعال عندهم، وعند من وافقهم من أهل الكلام، كالمعتزلة واتباعهم. وهم يقولون: انه حروف وأصوات حادثة بذات الرب، بقدرته ومشيئته. ولا يقولون: إن الأصوات المسموعة، والمداد الذي في المصحف قديم؛ بل يقولون: إن ذلك محدث.

[القول السادس] قول الجمهور وأهل الحديث وأئمتهم: ان الله تعالى لم يزل متكلماً إذا شاء، وأنه يتكلم بصوت، كما جاءت به الأثار، والقرآن وغيره من الكتب الالهية كلام الله تكلم الله به بمشيئته وقدرته، ليس ببائن عنه مخلوقاً. ولا يقولون إنه صار متكلماً بعد أن لم يكن متكلماً، ولا أن كلام الله تعالى من حيث هو هو حادث؛ بل مازال متكلماً إذا شاء، وإن كان كلم موسى وناداه بمشيئته وقدرته، فكلامه لاينفد، كما قال تعالى: (قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات

ربي، ولو جئنا بمثله مدداً)[1].

ويقولون: ماجاءت به النصوص النبوية الصحيحة، ودلت عليه العقول الزكية الصريحة، فلا ينفون عن الله تعالي صفات الكمال سبحانه وتعالى؛ فيجعلونه كالجمادات التى لاتتكلم، ولاتسمع ولا تبصر. فلا تكلم عابديها، ولاتهديهم سبيلا، ولاترجع إليهم قولاً ولا تملك لهم ضراً ولانفعاً.

ومن جعل كلام الله لايقوم الا بغير الله كان المتصف به هو ذلك الغير، فتكون الشجرة هي القائلة لموسى(انني انا الله)[2]؛ ولهذا اشتد نكير السلف على من قال ذلك. وقالوا هذا نظير قول فرعون: (أنا ربكم الأعلى)[3] اي هذا كلام قائم بغير الله؛ ولهذا صرح بحقيقة ذلك الاتحادية: كابن عربى ونحوه، الذين يقولون:

وكل كلام فى الوجود كلامه   سواء علينا نثره ونظامه.

واهل هذا القول ـ الموافقون للسلف والأئمة ـ لايقولون ان الرب كان مسلوبا صفات الكمال في الأزل، وانه كان عاجزاً عن الكلام حتى حدث له قدرة عليه، كالطفل. والذين يقولون: ان القرآن مخلوق يجعلون الكلام لغيره، فيسلبونه صفات الكمال، ويقولون: انه لايقدر على الكلام فى الأزل، لا على كلام مخلوق ولا غيره. وهم ان لم يصرحوا بالعجز عن الكلام فى الأزل فهو لازم لقولهم. والكرامية فروا من الأول؛ وجعلوه متكلما بكلام يقوم به؛ لكن لم يجعلوه متكلما فى الأزل؛ بل ولا قادراً على الكلام فى الحقيقة في الأزل.

١- سورة الكهف آية رقم ١٠٩
٢- سورة طه آية رقم ١٤
٣- سورة النازعات آية رقم ٢٤

والكلابية ومن وافقهم من السالمية ونحوهم وصفوه بالكلام في الأزل، وقالوا: إنه موصوف به أزلا وابداً، لكن لم يجعلوه قادراً على الكلام، ولا متكلما بمشيئته واختياره، ولا يقدر ان يحدث شيئاً يكون به مكلما لغيره؛ لكن يخلق لغيره ادراكا بما لم يزل، كما يزيل العمى عن الاعمى الذي لايرى الشمس التى كانت ظاهرة متجلية.أن الشمس فى نفسها تجلت وظهرت، وهذا يقوله كثير من هؤلاء فى رؤيته إنها ليست إلا مجرد خلق الادراك، ليس هناك حجب منفصلة عن الرأى، فلا يكشف حجابا، ولايرفع حجابا.

والقرآن مع الحديث ومع العقل يرد على هؤلاء؛ كقوله تعالى: وما كان لبشر ان يكلمه الله إلا وحيا، أو من وراء حجاب، أو يرسل رسولا)[1] ولو كان الحجاب هو عدم الرؤية: لكان الوحي وارسال الرسل من وراء حجاب. وقال تعالى: (فلما تجلى ربه للجبل جعله دكا وخرموسى صعقا)[2] وفى الصحيح:«اذا دخل اهل الجنة الجنة ناد مناد؛ ياأهل الجنة ان لكم عند الله موعداً يريد ان ينجزكموه، فيقولون:ماهو؟ ألم يبيض وجوهنا، ويثقل موازيننا، ويدخلنا الجنة، وينجينا من النار؟ قال: فيكشف الحجاب فينظرون إليه، فما اعطاهم شيئاً احب اليهم من النظر»[3] والاثار فى ذلك كثيرة.

و «ايضاً» فقول الكلابية: ان الحقائق المتنوعة شيء واحد، وقول الاخرين الأصوات المتضادة تجتمع فى آن واحد مما يقول اكثر العلماء العقلاء انه معلوم

١- سورة الشورى آية رقم ٥١

٢ - سورة الاعراف آية رقم ١٤٣

٣- وقد أخرجه ابن ماجة أيضاً فى المقدمة ١٨٧ عن ثابت البنانى عن عبد الرحمن بن أبي ليلى عن صهيب قال: تلا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - هذه الآية (للذين احسنوا الحسنى وزيادة) سورة يونس الآية ٢٦ وقال : وذكره.

الفساد بالضرورة، وقد بسط الكلام على هذه الأقوال فى غير هذا الموضع.

و «المقصود هنا» الجواب عن قول هذا القائل:فقوم إلى انه قديم الصوت والحرف. وهم الحشوية وان أراد بذلك قول من يقول إن نفس الأصوات مجتمعة فى الأزل:فهذا قول من تقدم من السالمية، وغيرهم من أهل الكلام والحديث.

وأما قول القائل:«حشوية» فهذا اللفظ ليس له مسمى معروف لا فى الشرع،ولا في اللغة،ولا فى العرف العام؛ولكن يذكر أن أول من تكلم بهذا اللفظ عمرو بن عبيد. وقال:كان عبد الله بن عمر حشويا.وأصل ذلك:أن كل طائفة قالت قولا تخالف به الجمهور والعامة [ينسب] إلى أنه قول الحشوية، أي الذين هم حشو فى الناس ليسوا من المتأهلين عندهم؛ فالمعتزلة تسمى من أثبت القدر حشوياً،والجهمية يسمون مثبته الصفات حشوية،والقرامطة ـ كاتباع الحاكم ـ يسمون من أوجب الصلاة والزكاة والصيام والحج حشويا.

وهذا كما ان الرافضة يسمون قول أهل السنة والجماعة قول الجمهور، وكذلك الفلاسفة تسمي ذلك قول الجمهور، فقول الجمهور وقول العامة من جنس واحد.

فان كان قائل ذلك يعتقد أن الخاصة لاتقوله؛ وانما تقوله العامة والجمهور، فاضاف اليهم وسماهم حشوية والطائفة تضاف تارة إلى الرجل الذي هو رأس مقالتها،كما يقال:الجهمية والاباضية(٢)، والأزارقة(٣)

١- هو عمر بن عبيد بن باب التيمى بالولاء أبو عثمان البصرى شيخ المعتزلة فى عصره وفقيها وأحد الزهاد المشهورين كان جده من سبى فارس وأبوه نساجاً ثم شرطياً للحجاج فى البصرة، واشتهر عمرو بعلمه وزهده، وأخباره مع المنصور العباسى وغيره، توفى بمران بقرب مكة عام ١٤٤هـ
راجع وفيات الأعيان ١ : ٣٨٤ والبداية والنهاية ١٠ : ٧٨

والكلابية، والأشعرية، والكرامية، ويقال فى أئمة المذاهب: مالكية، وحنفية، وشافعية، وحنبلية، وتارة تضاف إلى قولها وعملها، كما يقال: الروافض[1]، والخوارج[2]، والقدرية، والمعتزلة، ونحو ذلك. ولفظة الحشوية لاينبئ لاعن هذا ولا عن هذا.

وأما قوله: وقوم ذهبوا إلى أنه حادث بالصوت والحرف - وهم الجهمية - فهو كلام من لايعرف مقالات الناس. فان الجهمية يقولون: إن الله لايتكلم، وليس له كلام، وانما خلق شيئاً فعبر عنه، ومنهم قال: إنه يتكلم بكلام يخلقه فى غيره، وهو قول المعتزلة.

وأما الكرامية فتقول: ان القرآن كلام الله غير مخلوق، وهو متكلم به بحرف وصوت. ويقولون مع ذلك : انه حادث قائم به وهم ليسوا من الجهمية؛ بل يردون عليهم أعظم الرد، وهم اعظم مباينة لم من الاشعرية. ويقولون مع ذلك ان القرآن حادث فى ذات الله.

=== ٢ - اصحاب عبد الله بن اباض الذى خرج فى أيام مروان بن محمد فوجه إليه عبد الملك بن محمد بن عطيه فقاتله بتبالة قال: ان مخالفينا من أهل القبلة كفار غير مشريكن ومناكحتهم جائزة وموارثتهم حلال وغنيمة اموالهم من السلاح والكراع عند الحرب حلال، وما سواه حرام وحرام قتلهم وسبيهم فى السر غيله رلا بعد نصب القتال وإقامة الحجة.

راجع الملل والنحل ١ : ٢١٣ - ٢١٤

٣- الأزارقة أصحاب أبى راشد نافع بن الأزرق الذين خرجوا مع نافع من البصرة إلى الاهواز فغلبوا عليها وعلى كورها وماورا ءها من بلدان فارس وكرمان فى أيام عبد الله بن الزبير، وقتلوا عماله بهذه النواحى وكان مع نافع من أمراء الخوارج عطيه بن الأسود الحنفى وعبد الله بن الماحوز وغيرهم. وبدع الأزراقة ثمانية: احداها ان كفروا علياً عليه السلم.

راجع الملل والنحل ١ : ١٨١ - ١٨٤.

١ - الروافض : فرقة من الزيدية ويقال انهم طلبو من الامام على ابن زيد ان يتبرأ من ===

ثم من هؤلاء من يقول: إن كلام الله كله حادث ومنهم من لا يقول ذلك، وهذا القول معروف عن ابى معاد التومنى، وزهير البابي، وداود بن علي الأصبهانى، بل والبخارى صاحب الصحيح وغيره، وطوائف كثيرة يذكر عنهم هذا فليس كل من قال: إنه حادث كان من الجهمية، ولا يقول انه مخلوق.

وأما قوله: وقوم نحوا إلى انه قديم لا بصوت ولا حرف، إلامعني قائم بذات الله ـ وهم الاشعرية ـ فهذا صحيح؛ ولكن هذا القول أول من قاله في الاسلام عبد الله بن كلاب؛[1] فان السلف والائمة كانوا يثبتون لله تعالي ما يقوم به من الصفات، والافعال، المتعلقة بمشيئته وقدرته. والجهمية تنكر هذا وهذا، فوافق ابن كلاب السلف على القول بقيام الصفات القديمة، وانكر أن يقوم به شيء يتعلق بمشيئته وقدرته.

وجاء ابو الحسن الأشعري بعده ـ وكان تلميذاً لأبى علي[2] الجبائي

= الشيخين (أبو بكر وعمر) فرفض وقال: انهما كانا وزيرى جدى فكيف اتبرأ منهما: فسموا رافضة: راجع الفرق بين الفرق للبغدادى.

٢ - يرى الشهرستانى: ان كل من خرج على الامام الحق الذي أتفقت الجماعة عليه يسمى خارجاً سواء كان الخروج فى أيام الصحابة على الأئمة الراشدين أو كان بعدهم على التابعين باحسان والأئمة فى كل مكان ثم يقول: وكبار الفرق منهم: المحكمة والازارقة والنجدات، والصفريه ويجمعهم القول بالتبرى من عثمان وعلى - رضى الله عنهما -.

راجع الملل والنحل ١:١١٤

١ ـ سبقت الترجمة له فى كلمة وافية

٢ ـ هو محمد بن عبد الوهاب بن سلام الجبائى أبو على من أئمة المعتزلة ورئيس علماء الكلام فى عصره واليه نسبة الطائفة الجبائية له مقالات وآراء انفرد بها فى المذهب نسبته الى جبى من قرى البصرة ـ له تفسير حافل مطول توفى عام ٣٠٣ هـ

راجع المقريزى ٢ : ٣٤٨ ووفيات الأعيان ١ : ٤٨٠ والبداية والنهاية ١١ : ١٢٥

المعتزلي ثم إنه رجع عن مقالة المعتزلة، وبين تناقضهم فى مواضع كثيرة، وبالغ فى مخالفهتم فى مسائل القدر والايمان، والوعد والعيد، حتى نسبوه بذلك إلى قول المرجئة، والجبرية والواقفة - ، وسلك فى الصفات طريقة ابن كلاب . وهذا القول في القرآن هو قول ابن كلاب في الأصل، وهو قول من اتبعه كالأشعري وغيره.

وقوله: فمن قال ان الحرف والصوت الملفوظ بهما عين الكلام القديم فلأهل الحق فيه رأيان: رأي بتكفيره، ورأي بتبديعه، الى قوله: وليعلم ان الحرف اللسانى والحرف البنانى كلاهما مقيد بزمام تصرفه.

فيقال: اما القول بان المداد المكتوب قديم فما علمنا قائلاً معروفا قال به، وما رأينا ذلك في كتاب أحد من المصنفين، لا من أصحاب أبى حنيفة، ولا مالك، ولا الشافعي ولا أحمد؛ بل رأينا فى كتب طائفة من المصنفين من أصحاب مالك، والشافعي، وأحمد، انكار القول بأن المداد قديم، وتكذيب من نقل ذلك، وفي كلام بعضهم ما يدل على أن فى المصحف حرفا قديما ليس هو المداد .

ثم منهم من يقول: هو ظاهر فيه، ليس بحال، ومنهم من يقول هو حال . وفى كلام بعضهم ما يقتضي ان يكون ذلك هو الشكل: شكل الحرف وصورته؛ لا مادته التى هي مداده، وهذا القول ايضا باطل، كما ان القول بأن شيئاً من أصوات الآدميين قديم هو قول باطل، وهو قول قاله طائفة من أصحاب مالك، والشافعي، وأحمد، وجمهور هؤلاء ينكرون هذا القول. وكلام الامام أحمد وجمهور أصحابه فى انكار هذا القول كثير مشهور.

ولا ريب ان من قال ان أصوات العباد قديمة فهو مفتر مبتدع، له حكم أمثاله، كما ان من قال: ان هذا القرآن ليس هو كلام الله فهو

مفتر مبتدع، له حكم أمثاله.

ومن قال: إن القرآن العربي ليس هو كلام الله، بل بعضه كلام الله وبعضه ليس كلام الله فهو مفتر مبتدع، له حكم أمثاله. ومن قال: إن معنى آية الكرسي،[1] وآية الدين،[2] و (قل هو الله احد)[3] و (تبت يدا أبى لهب)[4] معنى واحد فهو مفتر مبتدع، له حكم أمثاله.

واما «التكفير»: فالصواب انه من اجتهد من أمة محمد صلى الله عليه وسلم، وقصد الحق، فاخطأ: لم يكفر؛ بل يغفر له خطأه. ومن تبين له ما جاء به الرسول، فشاق الرسول من بعد ماتبين له الهدى، واتبع غير سبيل المؤمنين : فهو كافر. ومن اتبع هواه، وقصر في طلب الحق، وتكلم بلا علم: فهو عاص مذنب. ثم قد يكون فاسقاً، وقد تكون له حسنات ترجح على سيئاته.

فـ «التكفير» يختلف بحسب اختلاف حال الشخص، فليس كل مخطىء ولا مبتدع، ولا جاهل ولا ضال، يكون كافراً؛ بل ولا فاسقاً، بل ولا عاصياً، لاسيما فى مثل «مسألة القرآن» وقد غلط فيها خلق من أئمة الطوائف، المعروفين عند الناس بالعلم والدين. وغالبهم يقصد وجها من الحق فيتبعه، ويعزب عنه وجه آخر لا يحققه، فيبقى عارفا ببعض الحق جاهلا ببعضه؛ بل منكراً له.

ومن ههنا نشأ نزاعهم، فالذين قالوا انه مخلوق: رأوا أن الكلام لا يكون إلا بقدرة المتكلم ومشيئته، وإن كلاماً لازماً لذات المتكلم لا يعقل؛ فانه ان جعل معنى واحداً كان مكابرة للعقل، وكذلك ان جعل أصواتاً أزلية، ثم

---

١ ـ سورة البقرة آية رقم ٢٥٥

٢ ـ سورة البقرة آية رقم ٢٨٢

٣ ـ سورة الاخلاص آية رقم ١

٤ ـ سورة الحساب آية رقم ١

ظنوا أن ما كان بقدرة الرب ومشيئته لا يكون إلا منفصلا عنه، وما انفصل عنه فهو مخلوق. ولهذا أنكروا أن يجيء، أو يأتي، أو ينزل، وغير ذلك مما جاء به الكتاب والسنة.

وآخرون وافقوهم على هذا الأصل الذي أحدثه أولئك، وهو أنه لا يقوم به ما يتعلق بمشيئته وقدرته؛ لكن رأوا ان كلاماً لا يقوم بالمتكلم لا يكون كلاماً له . فقالوا: ان كلامه قائم به.

ثم رأى «فريق» ان قدم الأصوات ممتنع، فجعلوا القديم هو المعنى، ثم رأوا أن تعدد المعاني القديمة ممتنع، وأنه يفضى إلى وجود معاني لا نهاية لها، فقالوا هو معنى واحد.

ورأى «فريق آخر» أن كون المعانى المتنوعة معنى واحداً ممتنع، وكون الرب لم يتكلم بحروف القرآن، بل خلقها في غيره موافقة لمن جعل الكلام لا يقوم بالمتكلم؛ فان تلك الحروف المنظومة ـ كالقرآن العربي ـ ان قالوا هو كلام الله لزم أن لا يكون كلامه قائماً به بل بغيره؛ وان قالوا ليس كلاماً لله لزم أن يكون كلاماً لمن خلقت فيه، فلا يكون الكلام العربى كلاماً لله؛ بل كلاماً لمن خلق فيه ، وهذا هو الذي انكروه على من قال القرآن مخلوق. والذي قال انه مخلوق لم يقل إلا هذا؛ فلزمهم أن يوافقوا فى الحقيقة قول من يقول: القرآن مخلوق، وان ضموا إلى ذلك قولاً لا حقيقة له يخالف العقل والنقل: وهو اثبات معنى واحد يكون هو جميع معانى التوراة، والانجيل، والقرآن؛ لكنهم إنما قالوا ذلك فراراً من أقوال ظنوها باطلة، فلم يقصدوا إلا الفرار عما رأوه باطلا، فوقعوا فى أقوال لها لوازم تقتضى بطلانها أيضاً.

فلما رأى هذا «الفريق الثاني» ما أجاب به هؤلاء، قالوا: انه حروف وأصوات، قديمة أزلية.فرد عليهم غيرهم.وقالوا: ان الأصوات متضادة فى نفسها، والضدان لا يجتمعان، رأقل ما فى الأمور القديمة أن تكون مجتمعة، وقالوا لهم: الأصوات مستلزمة للحركات المستلزمة للقدرة والارادة، فلا تكون الأصوات إلا بقدرة وإرادة، وما كان كذلك لم يكن قديم العين؛ لكن النزاع فى كونه قديم النوع. وقالوا: الأصوات هي فى نفسها يمتنع بقاؤها، وما امتنع بقاؤه امتنع قدمه، فامتنع قدم الأصوات.

وقال «آخرون»: إذا كان الأمر كذلك كان متكلماً بحروف، وأصوات، حادثة بمشيئته وقدرته، قائمة بذاته، لكن يمتنع قدم شيء من ذلك؛ لأن الحوادث لا تكون أزلية، ورأوا أن هذا القول ينجيهم من سائر ما وقع فيه، فيه غيرهم وليس فيه ما ينكر أولئك عليهم، إلا أن يقوم بذات الرب ما يتعلق بمشيئته وقدرته.

فان المعتزلة نفت أن يقوم به شيء من المعانى، وعبروا عن ذلك بأنه لا يقوم به شيء من الأعراض والحوادث، فسموا ما يقوم به من العلم، والقدرة، والحياة، اعراضاً. وما يقوم به من الخلق، والاحسان والاتيان، والمجيء، والنزول حوادث. وقالوا ـ لسلف الأمة وأئمتها وجمهورها: ـ ان قلتم الكلام المعين لازم له فقد قلتم انه تقوم به الأعراض، وان قلتم يتكلم باختياره وقدرته، فقد قلتم تقوم به الحوادث.

فقال هؤلاء: كلام المعتزلة[1] وقولهم لا تقوم به هذه الأمور: كلام باطل،

---

١ ـ المعتزلة: رئيسها واصل بن عطاء اعتزل مجلس استاذه الحسن البصرى اثر مخالفته له ==

مخالف للكتاب والسنة، ولا جماع سلف الأمة.وهو أيضاً مخالف لصريح العقل؛ فان اثبات عالم بلا علم، وقادر بلا قدرة، وحي بلا حياة، ممتنع فى صريح العقل.وكذلك اثبات خالق وعادل بلا خلق ولا عدل، واثبات فاعل لا يقوم به فعل، واثبات رب لا يقدر على التصرف بنفسه؛ بل يكون بمنزلة الجماد سلب لصفات الكمال عنه، كما أن إثبات رب لا يعلم ولا يقدر سلب لصفات الكمال عنه.

قال هؤلاء: فاذا قلنا إنه تكلم بالكلام، حروفه ومعانيه. بمشيئته وقدرته، سلمنا من هذه المحاذير، ولم يكن منا محذور شرعى ولا عقلي.

فقال لهم «الفريق السابع»: ولكن جعلتموه عاجزاً عن الكلام فى الأزل، مسلوباً للكمال، ولزمكم أن يقال: إذا كان من الأزل الى الأبد لم يتكلم ثم تكلم، كان ذلك أمراً حادثاً، فيحتاج الى سبب حادث، والقول فى ذلك الحادث كالقول فى الأول؛ فيلزم تسلسل الحوادث. فان كان ذلك ممتنعاً بطل قولكم، وان كان جائزاً فقولوا لم يزل متكلماً إذا شاء، كما قاله أئمة السنة وجماهير أهل الحديث، فانكم حينئذ تكونون قد وصفتم ربكم بصفات الكمال أزلاً وأبداً.

قالوا:وهذا القول خير من سائر الأقوال، مع موافقته المعقول وصحيح المنقول. فقال لهم أولئك: هذا يستلزم حوادث لا أول لها. وذلك ممتنع، فقال

=== فى مرتكب الكبيرة، وقد امتازت هذه الفرقة بالاعتداد بالعقل، وحرية الفكر، وللفرقة شعبتان بصريه وبغدادية، ومن أشهر أعلام الأولى: واصل بن عطاء وعمرو بن عبيد، والعلاف والنظام والجاحظ.

ومن الثانية: بشر بن المعتمر، وثمامة بن الأشرس، وأحمد بن أبى داود وللمعتزلة نقاط خمس يدور عليها مذهبهم: العدل، والتوحيد والمنزله بين المنزلين، والوعيد والوعيد، والصلاح والأصلح.

لهم هؤلاء: هذا كلام مبتدع، وإنما أخذتموه عن المعتزلة لم يأت به كتاب ولا سنة، ولا قاله أحد من سلف الأمة وأئمتها، ولا دل عليه العقل؛ بل العقل يدل على نقيضه.

والذين قالوا هذا القول من المعتزلة ومن تبعهم من الكرامية والأشعرية: ظنوا أنهم بهذا القول يثبتون حدوث العالم؛ بناء على أن الأجسام لا تخلوا من الأعراض المحدثة، وما لا يخلوا من الحوادث فهو محدث، وهذا القول هو الذي سلط عليهم «الفلاسفة الدهرية» القائلين بقدم العالم؛ فان هذا القول الذي قالوه وجعلوه مستلزماً لحدوث العالم مناقض لحدوث العالم، بل هو مناقض لاثبات الصانع. فهم قصدوا نصر الاسلام بما ينافى دين الاسلام.

ولهذا كثر ذم السلف لمثل هذا الكلام، وهذا هو أصل «الكلام المذموم» عند سلف الأمة وأئمتها؛ وذلك لأن الشيء إذا كان يمكن وجوده ويمكن عدمه فلا يوجد إلا بمقتض يستلزم وجوده، وان جاز وجوده بدون ذلك أمكن ان تكون المخلوقات - التى يمكن وجودها وعدمها - وجدت بلا فاعل، فلا بد للممكنات من وجود واجب يحصل به وجودها، ولا تكون مع وجود المقتضى التام محتملة للوجود والعدم؛ [1] بل يكون وجودها لازماً حتماً. فان ما شاء

---

١ - العدم: ضد الوجود، وهو مطلق أو أضافى، فالعدم المطلق هو الذى لا يضاف الى شيء. والعدم الأضافى أو المقيد، هو المضاف الى شيء، كقولنا: عدم الأمن، وعدم الاستقرار، وعدم التأثر قال ابن سينا: البالغ فى النقص غايته، فهو المنتهى الى مطلق العدم، فبالحرى أن يطلق عليه معنى العدم المطلق. وقال أيضاً: واما العدم فليس هو بذات موجودة على الاطلاق بل هو ارتفاع الذات الوجودية بالقوة. والأولى أن يسمى العدم المضاف الى الشيء بفقد الشيء أو غياب الشيء أو نقص الشيء.

راجع الاشارات ٦٩ - ٧٠ والنجاة: ١٦٤

الله كان وما لم يشأ لم يكن، وإذا شاء الرب شيئاً لم يمكن ان لا يكون؛ بل يجب كونه بمشيئته الرب تعالى المستلزمة لقدرته.

قالوا: وإذا كان كذلك: فالحادث الذي يمكن وجوده ويمكن عدمه اذا حدث بدون سبب حادث مع استواء نسبته إلى جميع الاوقات، واستواء نسبة جميع الحوادث والأوقات إلى مشيئه الرب وقدرته لزم من ذلك أن يكون قد تخصص بعض الحوادث بالحدوث، وبعض الازمنة بالحدوث، من غير مخصص يقتضى ذلك، ومن غير سبب حادث يقتضى الحدوث.

وهذا مع أنه فاسد فى صريح العقول: فهو يبطل ما استبدلوا به على اثبات الصانع، فلا بد حينئذ أن يكون لحدوث الحوادث سبب حادث؛ وحينئذ فما من حادث إلا وهو مسبوق بحادث. وحينئذ: فهذا يقتضى أن الله إذا كان متكلماً بمشيئته وقدرته، أمكن أنه لا يزال متكلما بمشيئته وقدرته، ولم يجز أن يصير متكلما بعد أن لم يكن متكلما بحال؛ لأن ذلك يقتضى حدوث الحادث بلا سبب حادث وهو ممتنع، ويقتضي انه تجدد له من صفات الكمال ما أمكن ثبوته فى الأزل؛ وذلك ممتنع؛ وذلك لأن صفات الكمال التى يمكن اتصاف الرب بها لا يجوز ان يتوقف ثبوتها له على غيره؛ لأنه يلزم ان يكون ذلك الغير هو المعطي له صفات الكمال، ومعطى غيره صفات الكمال أولى بان يكون هو الرب تعالى، ورب العالمين، الخالق ما سواه، الذي يعطيه صفات الكمال لا يكون غيره ربا له بوجه من الوجوه، سبحانه وتعالى عن ذلك.

وحينئذ فيجب اتصافه بالكلام إذا شاء أزلا وابداً.

قال هؤلاء: وهذا الأصل يبطل حجة الفلاسفة الدهرية، التى احتجوا بها على قدم العالم، وعجزتم انتم معاشر المعتزلة وأتباعكم - من المتكلمين القائلين بامتناع دوام الحوادث - عنها، فانهم الزموكم على أصولكم؛ إذ قدرتم ثبوت موجود لا يتكلم بمشيئته وقدرته، ولا يفعل شيئا، بل يمتنع منه في الأزل كل شيء يكون منه: من كلام أو فعل. فقالوا: إذا قدرنا وجود هذا، وأنه يبقى دائماً ابداً لا يتكلم ولا يفعل شيئاً، ثم تكلم وفعل؛ فلا بد من سبب اوجب حدوث هذا الكلام والفعل، اما حدوث قدرة أو إرادة، أو علم أو غير ذلك من الأسباب. فاما إذا قدر حاله فيما لا يزال كحاله فيما لم يزل: امتنع ان يتجدد له كلام، أو فعل، أو غير فعل.

فهذه حجة الفلاسفة عليكم؛ وأنتم لم تجيبوهم إلا بالمكابرة أو بالالزام «فالمكابرة» دعواكم حدوث الحوادث بلا حدوث سبب؛ بل جعلتم نفس القدرة أو الارادة القديمة: تخصص أحد المتماثلين عن المثل الآخر بلا سبب أصلا، مع ان نسبتها إلى جميع المتماثلات نسبة واحدة. وهذا مع أنه معلوم البطلان بالضرورة: فهو يسد عليكم طريق «اثبات الصانع» فانه مبنى على أن الحوادث لابد لها من محدث، والمخصص لابد له من مخصص، والترجيح لابد له من مرجح؛ إذا كان المخصص أو المرجح من الممكنات، او المحدثات.

وأما «الالزام» فقولكم إن هذا الاشكال لازم للفلاسفة، كما هو لازم لنا. فان الحوادث إذا امتنع حدوثها عن علة تامة أزلية - وليس عندكم إلا العلة التامة الأزلية - لزم ألا يكون للحوادث محدث. واما نحن إذا سلكنا طريق سلف الأمة وائمتها، فنقول لهؤلاء الفلاسفة: بل خلق الله السموات والأرض

فى ستة أيام، كما أخبرت به الرسل، فحدثت باسباب حدثت قبل ذلك، وإذا قلنا: انه لم يزل متكلما إذا شاء - و (إنما أمره إذا أراد شيئاً ان يقول له : كن فيكون)[١] كان ما يحدث حادثاً بما شاء ان يتكلم به من كلامه؛ لاسيما إذا قيل بنظير ذلك فى إرادته - سبحانه وتعالى - وامكننا ان نجيب الفلاسفة بجواب آخر، مركب عنا وعنكم.

فنقول لهم: وجود حوادث لا أول لها ممكن أو ممتنع؟

فان قلتم ممتنع: لزمكم القول بحدوث العالم، وامكن حينئذ صحة قول الكرامية ونحوهم.

وان قلتم: هو ممكن. قيل: فممكن حينئذ أن يكون هذا العالم حدث بسبب حادث قبله. وكذلك السبب الآخر لا الى غاية، والكلام على هذه الأمور مبسوط فى غير هذا الموضع.

و «المقصود هنا» التنبيه على أن هذه مقامات دقيقة، مشكلة، بسببها افترقت الأمة وأختلفت. فاذا اجتهد الرجل فى متابعة الرسول، والتصديق بما جاء به، واخطأ فى المواضع الدقيقة التى تشتبه على أذكياء المؤمنين، غفر الله له خطاياه؛ تحقيقاً لقوله: (ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا او أخطأنا)[٢] وقد ثبت فى الصحيح ان الله قال: «قد فعلت»[٣]

---

١ - سورة يس آية رقم ٨٢

٢ - سورة البقرة آية رقم ٢٨٦

٣ - الحديث أخرجه الترمذى فى كتاب التفسير ٢٩٩٢ - حدثنا وكيع حديثا سفيان عن آدم بن سليمان عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: وذكره.

قال الترمذى: هذا حديث حسن وقدروى هذا من غير هذا الوجه عن ابن عباس وآدم بن سليمان هو والد يحي بن آدم - وفى الباب عن أبى هريرة - رضى الله عنه.

وأما قول القائل:ومن قال: كلام الله منزه عن سمات الحدوث إذ الصوت والحرف لازمهما الحدوث، فكما لذاته التنزيه عن سمات الخلق كذلك لقوله الحق.

فيقال له:ا نزاع بين المسلمين؛ بل وسائر أهل الملل وغيرهم من العقلاء، أن الخالق منزه عن سمات الحدوث، فإن قدمه ضروري؛ فيمتنع أن يقوم دليل على حدوثه، و «السمة» هي العلامة والدليل. ولكن منازعوك فى الصوت والحروف: جمهور الخلائق؛ إذ لم يوافق الكلابية على قولهم احد من الطوائف، لا الجهمية، ولا المعتزلة، ولا الضرارية، ولا النجارية، ولا الكرامية، ولا السالمية، ولا جمهور المرجئة والشيعة، ولا جمهور أهل الحديث والفقة والتصوف، ولا الفلاسفة: لا الالهيون، ولا الطبيعيون على اختلاف أصنافهم.

وخصومهم منهم من يقول: الحروف محدثة مخلوقة فى محل منفصل عن الله، كما يقولون هم ذلك؛ لكن يقولون: هذا كلام الله ليس لله كلام غيره، كما أجمع المسلمون على أن هذا كلام الله، بل أجمعت الأمم على ان الكلام لا يعقل الا كذلك.

فان قلتم: هذا هو كلام الله. لزمكم ان يكون كلامه مخلوقا، وان قلتم: ليس ذلك كلام الله خالفتم المعلوم بالاضطرار من الشرع واللغة، وان قلتم نسمي هذا كلام الله، وهذا كلام الله، كلاهما حقيقة بطريق الاشتراك اللفظي. قيل لكم: فاذا ثبت ان الكلام المخلوق فى غيره هو كلام له حقيقة بطل أصل حجتكم، التى إحتججتم بها، حيث قلتم الكلام لا يكون كلاما الا لمن قام به، ولا يكون المتكلم متكلما بكلام يحل فى غيره.

وقالوا لكم أيضاً: إثبات المعنى الذي أثبتموه غير هذه الحروف، والأصوات يحتاج إلى اثبات وجوده، ثم اثبات قدمه، ثم اثبات حدوثه، وكل من هذه المقامات أنتم فيها منقطعون، كما هو مبسوط فى موضعه، وكما اعترف بذلك فضلاء هذه المقالة.

و «الفريق الثانى» يقول لكم: انا نسلم لكم أن الحروف والأصوات محدثة؛ لكن نقول هي كلام الله القائم بذاته، فان قلتم هذا يستلزم كونه محلا للحوادث، قالوا لكم: ونفس هذا من كلام المعتزلة الذي تلقيتموه عنهم، وليس لكم على ذلك حجة، لا عقلية ولا شرعية، وقد اعترف فضلائكم بأن هذا القول يلزم جمهور الطوائف. وقال لكم منازعوكم: قد دل على هذا الأصل الأدلة الشرعية والعقلية.

و «الفريق الثالث» يقول لكم: هب أنها محدثة أهي محدثة الأعيان أم نوعها محدث؟ فان قلتم: ان كل فرد من أفرادها محدث لم ينفعكم. وان قلتم بل النوع محدث لامتناع حوادث لا تتناهى. قيل لكم: هذا مما ينازعكم فيه جمهور أهل الحديث. مع جمهور الفلاسفة، وينازعكم فيه أئمة الملل وأئمة النحل، وينازعكم فيه الأئمة من أهل التوراة والانجيل، والقرآن. والأئمة؛ من الصابئة، والفلاسفة، والمجوس وغيرهم، وانما ابتدع هذا القول فى الاسلام طائفة من اهل الكلام، الذين ذمهم أئمة الدين، واعلام المسلمين، وهذا القول ليس معلوماً بالكتاب والسنة والاجماع، ولا قاله أحد من السلف والأئمة، وإنما هو قول مبتدع، ومبتدعه يزعم ان العقل دل عليه. ويثبت به حدوث العالم، والعلم باثبات الصانع.

وهؤلاء يقولون له: العقل يدل على نقيضه، وانه مناف مضاد لحدوث العالم، ولاثبات الصانع. وهذا مبسوط في موضعه؛ وانما المقصود التنبيه على ما في هذا الكلام من موارد النزاع، ومواقع الاجماع.

وقول القائل: كما لذاته التنزيه عن سمات الخلق، فكذلك لقوله الحق. فهذا من جنس سجع الكهان، الذي لا يقيم حقاً ولا يبطل باطلا، فهل تقول ان كل ما وصف به الرب من الصفات يتصف به كل ما له من الكلمات، او غيرها من الصفات؟ واذا قيل: ان الرب تعالى إله قادر، خالق معبود، فهل يجب ان يكون شيء من كلماته وصفاته الهاً قادراً، خالقاً معبوداً؟ وهذا القول يضاهي قول النصارى، الذين قالوا: كما ان أقنوم الوجود اله، فكذلك اقنوم الكلمة والروح، فيثبتون للصفات الالهية، التى اثبتوها للذات.

والرب تعالى له كلام قائم بمحل لا يوجد بغيره، إذ لابد للكلام من محل لا يوجد الكلام بدونه، فهل يجب أن يفتقر الرب الى محل يقوم به، كما يفتقر الكلام الى ذلك؟ ولكن يجب تنزيه كلامه عن كل نقص وعيب؛ إذ هو المستحق للكمال في ذاته، وصفاته، وأفعاله . ويمتنع ان يخلو عن صفات الكمال من الحياة، والعلم، والقدرة، والكلام، وغير ذلك من صفات الكمال، مع أنه يتصف بها بعض مخلوقاته، فالموصوف الواجب الوجود القديم[1]

---

١ ـ القديم في اللغة: ما مضى على وجوده زمان طويل، ويطلق في الفلسفة العربية على الموجود الذي ليس لوجوده ابتداء ويرادفه الأول. قال ابن سينا: يقال قديم للشيء إما بحسب ذاته، وإما بحسب الزمان، فالقديم بحسب الذات هو الذي ليس لذاته مبدأ هي به موجوده، والقديم بحسب الزمان هو الذي لا أول لزمانه.

راجع النجاة: ٣٥٥

الأزلي أحق بصفات الكمال من المخلوقات، وكل كمال ثبت لمخلوق فمن الخالق استفاده، والخالق أوهبه إياه، وأعطاه نواهب الكمال، ومعطيه أحق به، وأولى.

وهذا مما يعبر عنه كل قوم باصطلاحهم، حتى تقول المتفلسفة: كل كمال ثبت للمعلول فهو [من] كمال العلة . ومعلوم أن المخلوق الذي خلق من قبل، ولم يك شيئاً ليس له من نفسه شيء أصلا؛ بل كل ماله فمن خالقه سبحانه وتعالى.

وأما قوله: ولتعلم ان الحرف اللساني والحرف البناني: كلاهما مقيد بزمان، يصرفه المولى متكلم قبل الزمان، فتعالى كلامه عن ان تكتنفه الحدثان، فقد عرف منازعة المتازعين له في هذا، ولم يذكر الا مجرد الدعوى، وقد علم أن تصور الدعوى معلوم الفساد بالضرورة عند اكثر العقلاء، وان الدليل عليها مقدمات ينازعه فيها جمهور العقلاء، وآخرها ينتهي الى مقدمات تلقوها عن شيوخهم المعتزلة؛ فان الكلابية والأشعرية إنما أخذوا مقدمات هذا الكلام، ومادته منهم. وقد عرف حالهم في ذلك.

وقوله:المولى متكلم قبل الزمان،إن أراد أنه سبحانه وتعالى قبل السموات والأرض، والليل والنهار، وقبل جميع المخلوقات، فهذا حق؛ لكن من أين له ان كل ما كلم به عباده، ويكلمهم به يوم القيامة، يجب أن يكون قبل جميع المخلوقات؟ ومن أين له أنه قبل خلق العالم كان منادياً لموسى، قائلا له: (انني انا الله، لا إله الا أنا فاعبدني. وأقم الصلاة لذكري)؟[1]

---

١ - سورة طه آية رقم ١٤

وان أراد أنه سبحانه وتعالى قبل ما يوصف بالقبل فهذا ممتنع، فانه سبحانه موصوف بانه الأول قبل كل شيء، وان أراد بذلك ان الزمان مقدار الفعل والحركة، وان ذلك ممتنع في الأزل، فقد عرف ان أئمة الملل والنحل ينازعونه فى هذا، مع اتفاق أهل الملل على ان الله خالق السموات والأرض فى ستة أيام، وقوله: ان الحرف والصوت اداتان يعبر بهما عن المعنى القائم بذات الله، كما يعبر الانسان عما قام به من الطلب: تارة بالبنان، وتارة باللسان، وتارة بالرأس عند طلب الرواح، وعند طلب الاتيان، فهذا مذهب الحق، ومركب الصدق.

فيقال له: هذا عليه اعتراضات:

«أحدها» ان يقال: ما ذلك المعنى القائم بالذات؟ أهو واحد كما يقوله الأشعري، وهو عنده مدلول التوراة، والانجيل، والقرآن ومدلول آية الكرسي والدين، ومدلول سورة الاخلاص وسورة الكوثر؟ ام هو معان متعددة؟ فان قال بالأول: كان فساده معلوماً بالاضطرار ثم يقال: التصديق فرع التصور، ونحن لا نتصور هذا، فبين لنا معناه. ثم تكلم على اثباته، فان قال: هو نظير المعانى الموجودة فينا كان هذا الكلام بعد النزول عما يحتمله من التشبيه والتمثيل باطلا؛ لأن الذي فينا معان متعددة متنوعة، وإما معنى واحد هو أمر بكل مأمور به، وخبر عن كل مخبر عنه، فهذا غير متصور.

«الثانى» أن يقال: هب أنه متصور. فما الدليل على ثبوته؟ وما الدليل على قدمه؟.

«الثالث» أن يقال: قولك الصوت والحرف عبارة عنه. أتعنى به الأصوات المسموعة من القراء، أو الحروف الموجودة في التلاوة والمصاحف، وإما حروفاً

وأصواتاً غير هذه. فان قلت بالأول كان باطلا من وجوه:

«أحدها»: انه كل من أجاد القراءة عبر عما في نفس الله، من غير ان يكون الله عبر عما في نفسه، فيكون المخلوق أقدر من الخالق.

«الثاني» ان كثيرا من القراء أو اكثرهم لا يفقهون اكثر معاني القرآن، والتعبير عما في نفس المعبر فرع على معرفته، فمن لم يفهم جميع معاني القرآن ـ كلام الله ـ فكيف يعبر عن تلك المعاني؟!

«الثالث» أن الناس لا يفهمون معاني القرآن، الا بدلالة ألفاظ القرآن على معانيه؛ فاذا سمعوا ألفاظه وتدبروه كان اللفظ لهم دليلا على المعاني، والمستدل باللفظ على المعنى الذي أراده المتكلم يمتنع أن يكون هو المعبر باللفظ عن المعنى، فان المعبر باللفظ عن المعنى يعرف المعنى اولا، ثم يدل غيره عليه بالعبارة، والناس في القرآن على ضد هذا الحال؛ فيمتنع أن يكونوا هم المعبرين به.

«الرابع» ان كل واحد منهم يعلم أنه تعلم القرآن العربي من غيره، وأنه ليس له فيه الا الحفظ، والتبليغ، والأداء؛ بل يعلم أنه إذا حفظ خطب الخطبآء، وشعر الشعراء، لم يكن هو المعبر عما في أنفسهم بذلك الكلام؛ بل يكون الكلام كلامهم، وهو قد حفظه، واداه، وبلغه، فكيف بكلام رب العالمين؟!

«الخامس» ان كل واحد يعلم بالاضطرار ان نفس القرآن العربي كان موجوداً قبل وجود كل القراء، وان الناس إنما تلقوه عن محمد صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً.

و «بالجملة» فالدلالة على فساد هذا القول اكثر من أن تحصر.

وان قلت: بل الحروف والاصوات المعبر بها عن المعانى التى أرادها الله من حروف وأصوات كانت موجودة قبل وجود القراء: ولكن كل من القراء حفظ ذلك النظم العربى، الذي كان موجوداً قبله قيل لك. فحينئذ قد كان ثم حروف وأصوات غير هذه الأصوات المسموعة من القراء، وغير المداد المكتوب فى المصاحف، وهذا هو الحق الذي اتفق عليه جميع الخلق.

فقول القائل: إنه ما ثم إلا المعنى القائم بالذات، أو هذه الحروف والأصوات ليس بحق. ويقال له حينئذ: فتلك الحروف والأصوات أهي من كلام الله الذي تكلم به؟ أم هي مخلوقة خلقها في غيره؟ فان قلت: هي من كلام الله تعالى لزمك ما فررت منه، حيث أقررت أن لله كلاماً هو حروف وأصوات، كما يقوله جمهور المسلمين. وان قلت: ليست كلاماً لله فهذه أولى من أن تكون كلاماً لله. وحينئذ فلا يكون هذا القرآن كلام الله، وهذا مما يعلم بطلانه بالضرورة من دين الاسلام.

وأما قوله: من قال لفظي عين كلام الله: فقد انسلخ عن ربقة العقل، وغرق فى بحر العماية والجهل. فيقال: قول القائل: [لفظي] «عين كلام الله» كلام مجمل. فان «اللفظ»[1] فى الاصل مصدر لفظ يلفظ لفظاً، كما أن «التلاوة، والقراءة» فى الأصل مصدر تلا يتلو، وقرأ يقرأ، ويعبر باللفظ والتلاوة، والقراءة عن نفس الكلام الملفوظ به، المتلو المقروء.

فإن الناس إذا قالوا: اللفظ يدل على المعنى. لم يريدوا باللفظ المصدر؛

---

١ ـ راجع ما كتبه الامام البخاري فى كتابه القيم «خلق أفعال العباد» بتحقيقنا ط دار اللواء ـ الرياض المملكة العربية السعودية .

بل يريدون به الملفوظ به. وإذا قالوا لمن سمعوه يتكلم:هذه ألفاظ حسنة، ارادوا به ما يلفظه،كما قال تعالى(ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد)[1] يراد باللفظ نفس الفعل، وقد يراد به نفس القول الذي لفظه اللافظ. وهذا كـ «القرآن» قد يراد به المصدر، وقد يراد به الكلام المقروء. وقال تعالى(ان علينا جمعه وقرآنه.فاذا قراناه فاتبع قرآنه)[2] والقرآن هنا مصدر، كما فى الآية عن ابن عباس، قال:علينا ان نجمعه فى صدرك، ثم ان تقرأه بلسانك، فاذا قرأه جبريل فاستمع لقراءته. ثم ان علينا ان نبينه.

وقد يراد بـ «القرآن» نفس الكلام المقروء، كما قال:(واذا قرىء القرآن فاستمعوا له وانصتوا)[3] وقوله:(إن هذا القرآن يهدي التى هي أقوم)[4] وقال تعالى:(لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعاً متصدعاً من خشية الله)[5] وقال تعالى:(قل لئن اجتمعت الانس والجن على ان يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله)[6] ونظائره كثيرة.

وإذا كان كذلك: فقول القائل لفظي: هو عين كلام الله. إن أراد به المصدر فقد اخطأ، فان نفس حركاته ليست هي كلام الله، وهذا لا يقولهأحد يفهم ما يقول.

---

١ - سورة ق آية رقم ١٨
٢- سورة القيامة آية رقم ١٧ .١٨
٣ - سورة الأعراف آية رقم ٢٠٤
٤ - سورة الاسراء آية رقم ٩
٥ - سورة الحشر آية رقم ٢١
٦ - سورة الاسراء آية رقم ٨٨

وان اراد «الثاني»: كان المعنى ان هذا القرآن الذي أتلوه هو عين كلام الله، وهذا هو الذى يقصده الناس، وإذا قالوا: الذي يقرأ القرآن عين كلام الله، وهذا الذى نسمعه من القراء عين كلام الله، وهذا الذي يقرأ فى الصلاة عين كلام الله، لا يقصد أحد ان يجعل حركات العباد نفس كلامه.

ثم إذا قال القائل هذا فقد وافق قول الله تعالى: (وان أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله)[1] بل قد علم بالاضطرار من دين الاسلام: ان هذا الذي يقرأه المسلمون، ويكتبونه فى مصاحفهم هو كلام الله لا كلام غيره. تارة يسمع منه كما سمعه موسى ابن عمران، وتارة يسمع من المتلقين عنه كما سمعه الصحابة من الرسول، فهذا الذي نسمعه هو كلام الله، متلقى عنه مسموعا من المبلغ عنه. قال تعالى: (وأوحى الي هذا القرآن لأنذركم به ومن بلغ)[2] وقال تعالى: (يا أيها الرسول بلغ ما أنزل اليك من ربك، وان لم تفعل فما بلغت رسالته)[3] وقال تعالى: (ليعلم ان قد ابلغوا رسالات ربهم)[4] .والناس يعلمون أن الكلام كلام من قاله آمراً بامره، مخبراً بخبره، مبتدئاً به، لا كلام من بلغه عن غيره وأداه.

فالناس يقرؤون القرآن، وليس هو كلامهم؛ ولكنه كلام يقرؤونه بافعالهم واصواتهم. وإذا كان كلام النبى صلى الله عليه وسلم وكلام غيره اذا رواه

---

١ - سورة التوبة آية رقم ٦

٢ - سورة الانعام آية رقم ١٩

٣ - سورة المائدة آية رقم ٦٧

٤ - سورة الجن آية رقم ٢٨

الناس عنه، ويلغوه وقرؤوه، فهو كلام النبى صلى الله عليه وسلم، وغيره من المتكلمين بذلك الكلام، والنبى صلى الله عليه وسلم تكلم بلفظه، ونظمه، ومعناه، وتكلم به بحروف وأصوات، مع ان اصوات الرواة ليست صوت النبى صلى الله عليه وسلم.

فالقرآن إذا قرأه الناس ويلغوه باصواتهم وأفعالهم: كان أولى بان يكون كلام الله، وان كانوا لم يسمعوه من الله؛ بل من الخلق.

ومما ينبغي ان يعلم: ان قول الله ورسوله والمؤمنين ان هذا كلام الله؛ بل قول الناس لما بلغ من كلام المخلوقين ان هذا كلام فلان حق، كما اتفق على ذلك الناس؛ لكن عرضت شبهة لكثير من المتنطعين، فلم يفرقوا بين ما إذا سمع كلام المتكلم به، وبين ما إذا سمع من غيره، فظنوا أنه إذا قال:(فأجره حتى يسمع كلام الله)[1] كان بمنزلة سماع موسى كلام الله.

فقالت «طائفة» المسموع اصوات العباد، وكلام الله ليس هو أصوات العباد، فلا يكون المسموع كلام الله.

وقالت «طائفة» بل هذا كلام الله، وهذا مخلوق؛ فكلام الله مخلوق.

وقالت «طائفة»: بل هذا كلام الله، وكلام الله غير مخلوق، فهذا غير مخلوق.

وهذا إذا أطلقوه «مجملاً» فهو حق؛ لكن قال بعضهم: هذا لفظي أو تلاوتي أو صوتي؛ فلفظي أو تلاوتي أو صوتي غير مخلوق؛ فضلوا كما ضل غيرهم؛ ولو اهتدوا لعلموا أنا إذا قلنا: هذا كلام الله فلم نشر اليه بالامتاز قارىء عن قارىء، إذا كان من المعلوم انه ما يسمع من كل قارىء

١ - سورة التوبة آية رقم ٦.

فهو كلام الله، مع العلم بأن صوت هذا القارىء ليس هو صوت هذا القارىء فقد اتحد من جهة كونه كلام الله. واختلف من جهة أصوات القراء. وهو كلام الله باعتبار الحقيقة المتحدة، لا باعتبار ما اختلف فيه أحوال القراء.

وهذا لأن الكلام انما يقصد به لفظه ومعناه، ولفظه هو الحروف المقروءة المنظومة. وان كانت الحروف أصواتاً مقطعة، أو هي أطراف الأصوات المقطعة، فهي من الكلام باعتبار صورتها الخاصة من التقطيع والتأليف، لا باعتبار المادة الصوتية التى يشترك فيها جميع الصائتين؛ ولهذا ما كان فى الكلام من بلاغة وبيان، وحسن تأليف ونظم، وكمال معان وغير ذلك، فهو للمتكلم بلفظه ومعناه، ليس هو لمجرد صفات الذي بلغه وأداه.

وأما قول القائل: من قال ان مذهب جهم بن صفوان هو مذهب الأشعري أو قريب أو سواء معه فهو جاهل بمذهب الفريقين؛ إذ الجهمية قائلون بخلق القرآن، وبخلق جميع[1]

والاشعري يقول بقدم القرآن، وإن كلام الانسان مخلوق للرحمن فوضح للبيب كل من المذاهب الثلاثة.

فيقال: لا ريب أن قول ابن كلاب والأشعري، ونحوهما من المثبتة للصفات ليس هو قول الجهمية، بل ولا المعتزلة، بل هؤلاء لهم مصنفات فى الرد على الجهمية والمعتزلة، وبيان تضليل من نفاها، بل هم تارة يكفرون الجهمية والمعتزلة، وتارة يضللونهم، لاسيما والجهم هو اعظم الناس نفيا

---

١ ـ بياض بالاصل.

للصفات، بل وللأسماء الحسنى. قوله من جنس قول الباطنية القرامطة، حتى ذكروا عنه أنه لا يسمى الله شيئاً، ولا غير ذلك من الاسماء التى يسمى بها المخلوق؛ لأن ذلك بزعمه من التشبيه الممتنع. وهذا قول القرامطة الباطنية.

وحكى عنه انه لا يسميه الا «قادراً فاعلا»؛ لأن العبد عنده ليس بقادر ولا فاعل، إذ كان هو رأس المجبرة. وقوله فى الايمان شر من قول المرجئة، فانه لا يجعل الايمان إلا مجرد تصديق القلب. و «ابن كلاب» إمام الاشعرية اكثر مخالفة لجهم، وأقرب إلى السلف من الأشعري نفسه، والأشعري اقرب الى السلف من القاضي أبي بكر الباقلاني، والقاضي ابو بكر وامثاله اقرب إلى السلف من أبي المعالى واتباعه، فان هؤلاء نفوا الصفات: كالاستواء، والوجه، واليدين.

ثم اختلفوا هل تتأول او تفوض؟ على قولين أو طريقين، فأول قولي أبي المعالي هو تأويلها، كما ذكر ذلك في «الارشاد»[1] وآخر قوليه تحريم التأويل ذكر ذلك في «الرسالة النظامية»[2] واستدل باجماع السلف على ان التأويل ليس بسائغ ولا واجب.

وأما «الأشعري» نفسه وأئمة أصحابه فلم يختلف قولهم فى إثبات الصفات الخبرية، وفى الرد على من يتأولها، كمن يقول: استوى بمعنى

---

١ ـ يسمى كتاب الارشاد الى قواطع الادلة فى أصول الاعتقاد حققه وعلق عليه وقدم له الدكتور محمد يوسف موسى والدكتور على عبد المنعم عبد الحميد ط مكتبة الخانجى القاهرة.

٢ ـ تسمى: الرسالة النظامية فى الكلام لأبى المعالى عبد الملك بن عبد الله الجوينى المعروف بامام الحرمين ت ٤٧٨

استولى. وهذا مذكور فى كتبه كلها، كا «لموجز الكبير» و «المقالات الصغيرة، والكبيرة» و «الابانة»[1] وغير ذلك. وهكذا نقل سائر الناس عنه، حتى المتأخرون، كالرازي[2] والآمدي ينقلون عنه إثبات الصفات الخبرية، ولا يحكون عنه فى ذلك قولين.

فمن قال: ان «الأشعري» كان ينفيها، وان له فى تأويلها قولين: فقد افترى عليه؛ ولكن هذا فعل طائفة من متأخري أصحابه، كأبي المعالي ونحوه؛ فان هؤلاء ادخلوا فى مذهبه أشياء من أصول المعتزلة.

و «الأشعري» ابتلى بطائفتين: طائفة تبغضه، وطائفة تحبه، كل منهما يكذب عليه ويقول: إنما صنف هذه الكتب تقيه، واظهارا لموافقة أهل الحديث والسنة، من الحنبلية وغيرهم. وهذا كذب على الرجل، فانه لم يوجد له قول باطن يخالف الأقوال التى أظهرها، ولا نقل أحد من خواص أصحابه، ولا غيرهم عنه ما يناقض هذه الأقوال الموجودة فى مصنفاته؛ فدعوى المدعي أنه كان يبطن خلاف ما يظهر دعوى مردودة شرعا وعقلا؛ بل من تدبر كلامه فى هذا الباب ـ فى مواضع ـ تبين له قطعا أنه كان ينصر ما أظهره؛

---

١ ـ يسمى كتاب (الابانة عن أصول الديانة) لأبى الحسن الأشعرى: قامت بتحقيقه والتعليق عليه الدكتوره فوقيه حسين محمود ـ ط : دار الأنصار بالقاهرة.

٢ ـ هو محمد بن عمر بن الحسن البكرى أبو عبد الله فخر الدين الرازى الامام المفسر أصله من طبرستان ومولده فى الرى عام ٥٤٤ هـ رحل إلى خوارزم وما وراء النهر وخراسان وتوفى فى هراه عام ٦٠٦ هـ أقبل الناس على كتبه فى حياته. وكان يحسن الفارسية من تصانيفه: مفاتيح الغيب، ولوامع البينات، ومعالم أصول الدين، ومحصل أفكار المتقدمين والمتأخرين وغير ذلك كثير.

راجع طبقات الأطباء ٢:٢٣ والوفيات ١:٤٧٤ ومفتاح السعادة ١:٤٤٥

ولكن الذين يحبونه ويخالفونه فى اثبات الصفات الخبرية يقصدون نفى ذلك عنه، لئلا يقال: إنهم خالفوه، مع كون ما ذهبوا إليه من السنة، قد اقتدوا فيه بحجته التى على ذكرها يعولون، وعليها يعتمدون.

و «الفريق الآخر»: دفعوا عنه لكونهم رأوا المنتسبين إليه لا يظهرون إلا خلاف هذا القول، ولكونهم أتهموه بالتقية، وليس كذلك، بل هو انتصر للمسائل المشهورة عند أهل السنة، التى خالفهم فيها المعتزلة؛ كمسألة «الرؤية» و «الكلام» واثبات «الصفات» ونحو ذلك؛ لكن كانت خبرته بالكلام خبرة مفصلة، وخبرته بالسنة خبره مجملة؛ فلذلك وافق المعتزلة فى بعض أصولهم التى التزموا لأجلها خلاف السنة، واعتقد انه يمكنه الجمع بين تلك الأصول، وبين الانتصار للسنة، كما فعل فى مسألة الرؤية والكلام، والصفات الخبرية وغير ذلك.

والمخالفون له من اهل السنة والحديث، ومن المعتزلة والفلاسفة يقولون: إنه متناقض، وإن ما وافق فيه المعتزلة يناقض ما وافق فيه أهل السنة، كما ان المعتزلة يتناقضون فيما نصروا فيه دين الاسلام، فانهم بنوا كثيراً من الحجج على اصول تناقض كثيراً من دين الاسلام؛ بل جمهور المخالفين للاشعري من المثبتة والنفاة يقولون: إنما قاله فى مسألة الرؤية، والكلام: معلوم الفساد بضرورة العقل.

ولهذا يقول اتباعه: إنه لم يوافقنا أحد من الطوائف على قولنا فى «مسألة الرؤية، والكلام»؛ فلما كان فى كلامه شوب من هذا وشوب من هذا: صار يقول من يقول ان فيه نوعا من التجهم. وأما من قال: إن قوله قول جهم

فقد قال الباطل. ومن قال: إنه ليس فيه شيء من قول جهم فقد قال الباطل، والله يحب الكلام بعلم وعدل، واعطاء كل ذي حق حقه، وتنزيل الناس منازلهم.

وقول جهم سو النفي المحض لصفات الله تعالى، وهو حقيقة قول القرامطة الباطنية، ومنحرفي المتفلسفة: كالفارابي وابن سينا. واما مقتصدة الفلاسفة كأبى البركات صاحب المعتبر،[1] وابن رشد الحفيد[2] - ففي قولهم من الاثبات ما هو خير من قول جهم: فان المشهور عنهم إثبات الأسماء الحسنى، واثبات أحكام الصفات، ففي الجملة قولهم خير من قول جهم، وقول ضرار بن عمرو[3] الكوفي خير من قولهم.

وأما بن كلاب والقلانسي والأشعري فليسوا من هذا الباب، بل هؤلاء معروفون بالصفاتية، مشهورون بمذهب الاثبات؛ لكن فى أقوالهم شيء من

---

١ - هو: هبة الله بن على بن ملكا أبو البركات - المعروف بأوحد الزمان طبيب من سكان بغداد عرفه الظهير البيهقى بفيلسوف العراقيين وقيل: ادعى أنه نال مرتبة ارسطو، كان يهودياً وأسلم فى آخر عمره. توفى بهمذان عام ٥٦٠ هـ من كتبه: المعتبر فى الحكمة منه قطعه مخطوطه، واختصار التشريح من كلام جالنيوس وغير ذلك كثير.

راجع طبقات الأطباء ١:٢٧٨ وأخبار الحكماء ٢٢٤ ونكت الهميان ٣٠٤

٢ - هو محمد بن أحمد بن محمد بن رشد الأندلسى أبو الوليد الفيلسوف من أهل قرطبه يسميه الافرنج شارح ارسطو . صنف نحو خمسين كتاباً منها فصل المقال، وتهافت التهافت، ومناهج الأدلة وغير ذلك كثير توفى عام ٥٩٥ هـ

راجع فضاء الأندلس ١١١ ، طبقات الأطباء ٢:٧٥ وشذرات الذهب ٤:٣٢٠ وآداب اللغة ٣:١٠٤

٣ - هو ضرار بن عمرو القاضى معتزلى جلد له مقالات خبيثه، وذكره ابن النديم، وذكر له ثلاثين كتاباً فيها الرد على المعتزلة والخوارج والروافض ولكنه كان معتزليا له مقالات ينفرد بها وشهد عليه ابن حنبل فأمر القاضى بضرب عنقه فهرب وأخفاه يحي بن خالد.

راجع لسان الميزان ٣:٢٠٣

أصول الجهمية، وما يقول الناس إنه يلزمهم بسببه التناقض، وانهم جمعوا بين الضدين، وإنهم قالوا ما لا يعقل، ويجعلونهم مذبذبين لا الى هؤلاء ولا إلى هؤلاء، فهذا وجه من يجعل مى قولهم شيئا من أقوال الجهمية، كما ان الأئمة ـ كاحمد وغيره ـ كانوا يقولون: افترقت الجهمية على «ثلاث فرق»: فرقة يقولون: القرآن مخلوق. وفرقة تقف ولا تقول مخلوق ولا غير مخلوق. وفرقة تقول: الفاظنا بالقرآن مخلوقة.

ومن المعلوم انهم إنما أرادوا بذلك افترقهم فى «مسألة القرآن» خاصة، وإلا فكثير من هؤلاء يثبت الصفات والرؤية، والاستواء على العرش، وجعلوه من الجهمية فى بعض المسائل: أي أنه وافق الجهمية، فيها؛ ليتبين ضعف قوله، لا أنه مثل الجهمية ولا ان حكمه حكمهم؛ فان هذا لا يقوله من يعرف ما يقول.

ولهذا عامة كلام أحمد إنما هو يجهم اللفظية، لا يكاد يطلق القول بتكفيرهم كما يطلقه بتفكير المخلوقية، وقد نسب إلى هذا القول غير واحد من المعروفين بالسنة والحديث: كالحسين الكرابيسي، (١) ونعيم بن حماد(٢)

---

١ ـ هو الحسين بن على بن يزيد أبو على الكرابيسى، فقيه من أصحاب الامام الشافعى له تصانيف كثيرة فى أصول الفقه وفروعه، والجدح والتعديل وكان متكلماً عارفاً بالحديث من أهل بغداد توفى عام ٢٤٨

راجع وفيات الأعيان ١:١٤٥ وتهذيب التهذيب وتاريخ بغداد ٨:٦٤

٢ ـ هو نعيم بن حماد بن معاوية بن الحارث الخزاعى أبو عبد الله أول من جمع المسند فى الحديث كان من أعلم الناس بالفرائض ولد فى مرو وأقام مدة فى العراق والحجاز يطلب الحديث ثم سكن مصر مات فى سجنه عام ٣٢٨ هـ راجع ميزان الاعتدال ٣:٣٣٨

الخزاعي، والبويطي،[1] والحارث المحاسبي[2] ومن الناس من نسب اليه البخاري.

والقول بان «اللفظ غير مخلوق» نسب إلى محمد بن يحيي الذهلي وأبي حاتم الرزاي؛ بل وبعض الناس ينسبه إلى ابي زرعة أيضاً، ويقول إنه هو وابو حاتم هجرا البخاري لما هجره محمد بن يحيي الذهلي، والقصة في ذلك مشهورة.

وبعد موت «أحمد» وقع بين بعض أصحابه وبعضهم، وبين طوائف من غيرهم بهذا السبب، وكان أهل الثغر مع محمد بن داود، والمصيصي شيخ أبي داود، يقولون بهذا. فلما ولى صالح بن أحمد قضاء الثغر: طلب منه أبو بكر المروذي ان يظهر لأهل الثغر «مسألة ابى طالب» فانه قد شهدها صالح وعبد الله ابنا احمد، والمروذى، وفوران، وغيرهم . وصنف المروذي كتاباً في الأنكار على من قال: إن لفظي بالقرآن غير مخلوق، وارسل في ذلك إلى العلماء بمكة والمدينة، والكوفة والبصرة، وخراسان وغيرهم؛ فوافقوه.وقد ذكر ذلك ابو بكر الخلال في «كتاب السنة» وبسط القول في ذلك.

ومع هذا فطوائف من المنتسبين إلى السنة، وإلى اتباع أحمد، كأبى عبدالله بن منده، وأبى نصر السجزي، وابى اسماعيل الانصاري وابي العلاء

---

١ ـ هو يوسف بن يحيى القرش أبو يعقوب البويطى صاحب الامام الشافعى، وواسطه عقد جماعته قام مقامه فى الدرس والافتاء بعد وفاته وهو من أهل مصر نسبته الى بويط من أعمال الصعيد ولما كانت المحنة فى قضية خلق القرآن حمل الى بغداد ثم سجن ومات فى سجنة عام ٢٣١ له المختصر فى الفقه.

راجع تهذيب ١١:٤٢٧ والوفيات ٢:٣٤٦ وتاريخ بغداد ١٤:٢٩٩

٢ ـ سبقت الترجمة له فى كلمة وافية.

الهمداني وغيرهم يقولون: لفظنا بالقرآن غير مخلوق. ويقولون: إن هذا قول أحمد. ويكذّبون ـ او منهم من يكذب ـ برواية أبي طالب، ويقولون: انها مفتعلة عليه، أو يقولون رجع عن ذلك، كما ذكر ذلك ابو نصر السجزى، فى كتابه «الابانة» المشهور.

وليس الامر كما قاله هؤلاء؛ فان اعلم الناس باحمد وأخص الناس وأصدق الناس فى النقل عنه هم الذين رووا ذلك عنه؛ ولكن أهل خراسان لم يكن لهم من العلم بأقوال أحمد ما لأهل العراق، الذين هم اخص به. وأعظم ما وقعت فتنة «اللفظ» بخراسان، وتُعُصِب فيها على البخارى ـ مع جلالته وامامته ـ وان كان الذين قاموا عليه أيضاً أئمة اجلاء. فالبخاري ـ رضي الله عنه ـ من أجل الناس.

وإذا حسن قصدهم، واجتهد هو وهم، اثابه الله وإياهم على حسن القصد والاجتهاد. وان كان قد وقع او منهم بعض الغلط والخطأ فالله يغفر لهم كلهم؛ لكن من الجهال من لا يدري كيف وقعت الأمور، حتى رأيت بخط بعض الشيوخ الذين لهم علم ودين، يقول: مات البخاري بقرية خرتنك، فارسل أحمد إلى أهل القرية يأمرهم أن [لا] يصلوا عليه لأجل قوله فى «مسألة اللفظ» وهذا من أبين الكذب على أحمد والبخاري، وكاذبه جاهل بحالهما. فان البخاري ـ رضي الله عنه ـ توفى سنة ست وخمسين، بعد موت احمد بخمسة عشر سنة، فان أحمد توفى سنة احدى وأربعين، وكان احمد مكرما للبخاري معظما. وأما تعظيم البخاري وأمثاله لأحمد فهذا أظهر من أن يذكر.

والبخاري ذكر فى كتابه فى «خلق الأفعال» ان كلتا الطائفتين لا تفهم كلام احمد. ومن الطائفة الأخرى المنتسبة إلى السنة، واتباع احمد: ابو نعيم الاصبهانى،[1] وابو بكر البيهقي،[2] وغيرهما ممن يقول: إنهم متبعون لأحمد، وان قولهم فى «مسألة اللفظ» موافق لقول أحمد، ووقع بين ابن منده وأبى نعيم بسبب ذلك مشاجرة، حتى صنف ابو نعيم كتابه في «الرد على الحروفية الحلولية»، وصنف ابو عبد الله كتابه فى الرد على «اللفظية».

والمنتصرون للسنة ـ من أهل الكلام والفقه: كالأشعري، والقاضي ابى بكر بن الطيب،[3] والقاضي ابي يعلي وغيرهم ـ يوافقون أحمد على الانكار على الطائفتين، على من يقول: لفظي بالقرآن مخلوق، وعلى من يقول: لفظي بالقرآن غير مخلوق، ولكن يجعلون سبب الكراهة كون القرآن لا يلفظ؛ لأن اللفظ الطرح والرمي.

---

١ ـ هو أحمد بن عبد الله بن أحمد الأصبهانى أبو نعيم، حافظ مؤرخ من الثقات فى الحفظ والرواية ولد عام ٣٣٦ فى أصبهان ومات بها عام ٤٣٠ هـ من تصانيفه حلية الأولياء، ومعرفة الصحابة وطبقات المحدثين والرواة .

راجع ابن خلكان ١:٢٦ وميزان الاعتدال ١:٥٢ ولسان الميزان ١:٢٠١

٢ ـ هو أحمد بن الحسين بن على أبو بكر من أئمة الحديث ولد فى خسر وجراد عام ٣٨٤ هـ ونشأ فى بيهق ورحل الى بغداد ثم الى الكوفة ومكة وغيرهما وطلب الى نيسابور فلم يزل فيها الى أن مات عام ٤٥٨ من كتبه السنن الكبرى، والمعارف، والأسماء والصفات وغير ذلك

راجع شذرات الذهب ٢:٣٠٤ وطبقات الشافعية ٣:٣

٣ ـ هو محمد بن الطيب بن محمد أبو بكر قاض من كبار علماء الكلام ولد فى البصره عام ٣٣٨ وسكن بغداد فتوفى بها عام ٤٠٣ له اعجاز القرآن وغيره كثيرا

راجع وفيات الأعيان ١:٤٨١

ثم هؤلاء منهم من ينكر تكلم الله بالصوت. ومنهم من يقر بذلك؛ بل منهم من يقول ان الصوت المسموع هو الصوت القديم، وينكرون مع ذلك على من يقول: لفظي بالقرآن غير مخلوق، لظنهم ان الكراهة فى ذلك لما فيه من الطرح والرمي، وليس الأمر على ما ظنوه. فان الامام أحمد وغيره من الأئمة لم ينكروا قول القائل: لفظي بالقرآن مخلوق أو غير مخلوق لكون اللفظ الطرح، فانه لو كان كذلك لما انكروا إلا مجرد ما يتصرف من حروف لفظ يلفظ، وليس كذلك؛ بل أنكروا على من قال التلاوة والقراءة مخلوقة، وعلى من قال: تلاوتي وقراءتى غير مخلوقة، مع جواز قول المسلمين: قرأت القرآن وتلوته.

و «ايضاً» فانه يجوز أن يقال: لفظت الكلام وتلفظت به، كما قال تعالى: (ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد)[1] ولكن الامام احمد وغيره من أئمة السنة قالوا: من قال: لفظي بالقرآن وتلاوتى أو قراءتى مخلوقة فهو جهمي. ومن قال: إنه غير مخلوق فهو مبتدع لأن «اللفظ» و «القراءة» يراد به مصدر لفظ يلفظ لفظاً، ومصدر قرأ يقرأ قراءة، ومسمى المصدر هو فعل العبد وحركاته، ليس هو بقديم باتفاق سلف الأمة وأئمتها، حتى القدرية القائلون بأن أفعال العباد غير مخلوقة. يقولون: ان ذلك ليس بقديم. ويقولون انه مخلوق لله.

والسلف والأئمة ـ كحماد بن زيد، والمعتمر بن سليمان،[2] ويحيي ابن

---

١ ـ سورة ق آية رقم ١٨

٢ ـ هو معتمر بن سليمان أبو محمد محدث البصرة فى عصره انتقل اليها من اليمن وكان حافظاً ثقة حدث عنه كثيرون منهم أحمد بن حنبل له كتاب فى المغازى توفى عام ١٨٧ هـ

سعيد القطان، واحمد بن حنبل وغيرهم ـ انكروا على من قال: إن أقوال العباد وأفعالهم غير مخلوقة، وقال يحيي بن سعيد: مازلت اسمع اصحابنا يقولون: ان افعال العباد مخلوقة. وقال بعض هؤلاء: من قال إن هذا غير مخلوق فهو بمنزلة من قال: إن سماء الله وارضه غير مخلوقة.

وقد يراد بالتلاوة والقراءة واللفظ نفس القرآن، الذي انزله الله على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم. الذي هو كلام الله. ومن قال ان كلام الله الذي أنزله على نبيه مخلوق فهو جهمي؛ ولهذا قال أحمد وغيره من السلف: القرآن كلام الله حيث تصرف غير مخلوق، ولم يقل احد من السلف والأئمة ان اصوات العباد بالقرآن غير مخلوقة او قديمة، ولا قال ايضاً أحد منهم: ان المداد الذي يكتب به القرآن قديم، أو غير مخلوق. فمن قال ان شيئاً من اصوات العباد، او افعالهم او حركاتهم، او مدادهم: قديم، أو غير مخلوق فهو مبتدع ضال، مخالف لأجماع السلف والأئمة.

وقد بدع أحمد بن حنبل من هو أحسن حالا من هؤلاء، وأمر بهجرهم ان لم يرجعوا عن بدعتهم.

و «مسألة القرآن» قد كثر فيها اضطراب الناس، حتى قال بعضهم: مسألة الكلام حيرت عقول الأنام. وغالبهم يقصدون وجها من الحق، ويعزب عنهم وجه آخر، وكلام الأئمة من أشد الكلام، كأحمد ابن حنبل ومن قبله من أئمة المسلمين، من الصحابة والتابعين لهم باحسان، وسائر الأئمة الذين لهم في الأمة لسان صدق: مثل سعيد ابن المسيب،[1] وعلى بن الحسين،

---

١ ـ هو سعيد بن المسيب بن حزن بن أبي وهب المخزومي القرشي أبو محمد سيد التابعين ـــ

وعلقمة، والأسود،[1] والحسن البصري، [2] ـ وابن سيرين، وغيرهم من التابعين. ومثل مالك، والثوري، والأوزاعى، والليث بن سعد، وحماد بن زيد، وحماد بن سلمة، وأبى حنيفة، وابن أبى ليلى، وشريك، وأمثالهم من تابعي التابعين، ومثل الشافعي وأحمد بن حنبل، واسحاق بن ابراهيم، وأبى عبيد، وأمثالهم من اتباع تابعي التابعين.

وهم أئمة أهل القرون الثلاثة، الذين دخلوا فى ثناء النبى صلى الله عليه وسلم؛ حيث قال: «خير القرون القرن الذي بعثت فيه، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم».[3]

ومن تدبر كلام أئمة المسلمين في هذا الباب وغيرهم وجده اشد الكلام المطابق لصريح المعقول، وصحيح المنقول. وهذه الجملة لا تحتمل البسط هنا، فقد بسطت فى غير هذا الموضع، وبين ان «الكلام المذموم» الذي ذمه السلف

= وأحد الفقهاء السبعة بالمدينة جمع بين الحديث والفقة والزهد والورع وكان يعيش من التجارة بالذيت توفى بالمدينة عام ٩٤ هـ.

راجع طبقات ابن سعده:٨٨

١ ـ لعله ظالم بن عمرو بن سفيان بن جندل الدولى واضع علم النحو كان معدوداً من الفقهاء والأعيان، والأمرار من التابعين ولد عام ١ ق هـ وتوفى عام ٦٩ هـ

راجع وفيات الأعيان ١:٢٤٠ والاصابة ت ٤٣٢٢ وتهذيب بن عساكر ١٠٤:٧

٢ ـ هو الحسن بن يسار البصرى أبو سعيد تابعى ولد عام ٢١ ـ توفى عام ١١٠ هـ. سبقت الترجمة له فى كلمة وافية.

٣ ـ الحديث أخرجه الامام البخارى فى كتاب الشهادات ٩ وفضائل أصحاب النبى او الرقائق ٧ وابن ماجة فى الأحكام ٢٧ واحمد بن حنبل فى المسند ١:٣٧٨، ٤١٧، ٤٣٤ (حلبى) والترمذى فى كتاب الفتن ٢٢٢١ بسنده عن الأعمش عن على ابن مدرك عن هلال بن يساف عن عمران بن حصن قال: سمعت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم يقول: وذكره.

هو الكلام الباطل، المخالف لصحيح المنقول؛ وصحيح المعقول وان ما ثبت بالأدلة القطعية لا يتعارض ولا يتناقض أصلا، فلا يتعارض دليلان يقينيان أصلا، سواء كانا عقليين أو سمعيين، أو كان أحدهما عقلياً والآخر سمعيا، ومن ظن أنهما يتعارضان كان ذلك خطأ منه؛ لاعتقاده في أحدهما أنه يقينيا، ولا يكون كذلك، ولاسيما إذا كانا جميعاً غير يقينين.

واختلاف الناس فى هذا الباب وغيره كثير منه يكون «اختلاف تنوع» مثل ان يقصد هذا حقاً فيما يثبته، والآخر يقصد حقاً فيما نقضه، وكلاهما صادق . لكن يظنان أن بينهما نزاعاً معنوياً، ولا يكون الأمر كذلك، وكثير من النزاع يعود إلى اطلاقات لفظية، لا الى معان عقلية، وأحسن الناس طريقة من كان إطلاقه موافقاً للاطلاقات الشرعية، والمعانى التى يقصدها معان صحيحة، تطابق الشرع والعقل[1]

وأصل منشأ نزاع المسلمين فى هذا الباب: ان المتكلمين ـ من الجهمية، والمعتزلة، ومن اتبعهم ـ سلكوا فى إثبات حدوث العالم، وإثبات الصانع طريقاً مبتدعة فى الشرع، مضطربة في العقل، وأوجبوها، وزعموا أنه لا يمكن معرفة الصانع إلا بها، وتلك الطريق فيها مقدمات مجملة، لها نتائج مجملة، فغلط كثير من سالكيها في مقصود الشارع، ومقتضى العقل، فلم يفهموا ما جاءت به النصوص النبوية، ولم يحرروا ما اقتضته الدلائل العقلية، وذلك أنهم قالوا: لا يمكن معرفة الصانع إلا باثبات حدوث العالم، ولا يمكن اثبات حدوث العالم إلا باثبات حدوث الأجسام.

---

١ ـ بياض بالاصل.

قالوا: والطريق الى ذلك هو الاستدلال بحدوث الأعراض على حدوث ما قامت به الأعراض، فمنهم من استدل بالحركة والسكون فقط ومنهم من احتج بالاكوان التى هي عندهم الاجتماع والافتراق، والحركة والسكون. ومنهم من احتج بالأعراض مطلقاً. ومبنى الدليل على ان ما لا يخلو من الحوادث فهو حادث؛ لامتناع لا أول لها.

فيقول لهم المعارضون ـ من أهل الملل وغيرهم، القائلون بأن السموات والأرض محدثة عن عدم، القائلون بأن الأفلاك قديمة أزلية ـ حدوث الحوادث بعد أن لم تكن أمر حادث. فلا بد له من سبب حادث، والالزم ترجيح أحد طرفي الممكن بلا مرجح.

وقال لهم القائلون بحدوث الأفلاك، من أهل الملل وغيرهم: انتم اثبتم حدوث العالم بطريق، وحدوث العالم لا يتم إلا مع نقيض ما اثبتموه. فما جعلتموه دليلا على حدوث العالم لا يدل على حدوثه؛ بل ولا يستلزم حدوثه. والدليل لابد أن يكون مستلزماً المدلول؛ بحيث يلزم من تحقيق الدليل تحقيق المدلول؛ بل هو مناف لحدوث العالم مناقض له، وهو يقتضى امتناع حدوث العالم، بل امتناع حدوث شيء من الأشياء. وهذا يقتضي بطلانه في نفسه، وانه لو صح لم يدل إلا على نقيض المطلوب، ونقيض ما يقوله كل عاقل.

فان كل عاقل يعلم حدوث الحوادث في الجملة، سواء قيل بقدم الأفلاك أم لم يقل بذلك؛ وذلك ان مبنى دليلكم على أن القادر يرجح أحد مقدوريه على الآخر بلا مرجح، وان الارادة الأزلية ـ التى نسبتها الى جميع المرادات

على السواء - رجحت مراداً على مراد بلا مرجح، غير المرجح الذي نسبته الى جميع المرجحات نسبة واحدة لا بتفاضل.

ومن المعلوم أن القول بترجيح وجود الممكن على عدمه بلا مرجح، أو ترجيح أحد المتماثلين على الآخر بلا سبب، يقتضى ذلك باطل فى بديهة العقل. ولو قيل: إن ذلك صحيح لبطل الدليل الذي يستدل به على ثبوت الصانع، وحدوث العالم، فان مبنى الدليل على أن المحدث لابد له من محدث، وذلك يستلزم ان ترجيح الحدوث على العدم لابد له من مرجح، ولابد أن يكون المحدث المرجح قد حدث منه ما يستلزم وجود المحدث، الذي جعله موجوداً، واذا لم يلزم وجوده كان وجوده جائزاً ممكناً: فكان محتملا للوجود والعدم.

فترجيح الوجود على العدم لابد له من مرجح محدث له، فكل ما امكن حدوثه ان لم يحصل له ما يستلزم حدوثه لم يحصل، فما شاء الله كان لا محالة ووجب وجوده بمشيئة الله، وما لم يشأ لم يكن؛ بل يمتنع وجوده مع عدم مشيئة الله تعالى له، فما شاء الله حدوثه كان لازم الحدوث، واجب الحدوث بمشيئة الله لا بنفسه، وما لم يشأ حدوثه كان ممتنع الحدوث، لازم العدم، واجب العدم، لأنه لم توجد مشيئة الله المستلزمة لحدوثه.

ثم ان الفلاسفة الدهرية القائلين بقدم العالم قالوا: ما ذكر تموه من الدليل لا يدل على الحدوث؛ بل يقتضى عدم الحدوث؛ لأن حدوث الحوادث بعد ان لم تكن عن ذات لم تزل معطلة من الفعل باطل، فيكون العالم قديماً، وعبروا عن ذلك بان جميع الأمور المعتبرة فى كونه فاعلا ان وجدت فى الأزل لزم

وجود الفعل فى الأزل، والا لزم تخلف المقتضى عن المقتضى التام.

وحينئذ فاذا وجدت بعد ذلك لزم الترجيح بلا مرجح، وان لم توجد فى الأزل فوجودها بعد ذلك امر حادث؛ فيقتضى أمرا حادثاً، والا لزم الحدوث بلا محدث، وحينئذ فيلزم تسلسل الحوادث، فان القول فى هذا الحادث كالقول في غيره. وهذا مما تنكره المعتزلة وموافقوهم المتكلمون. قالوا: فأنتم بين امرين: اما اثبات التسلسل فى الحوادث، واما اثبات الترجيح بلا مرجح، وكلاهما ممتنع عندكم.

ثم زعم هؤلاء الفلاسفة ان العالم قديم بناء على هذه الحجة، ومن سلك سبيل السلف والأئمة اثبت ما أثبته الرسل من حدوث العالم بالدليل العقلي، الذي لا يحتمل النقيض، وبين خطأ المتكلمين من المعتزلة ونحوهم، الذين خالفوا السلف والأئمة بابتداع بدعة مخالفة للشرع والعقل وبين أن ضلال الفلاسفة ـ القائلين بقدم العالم، ومخالفتهم العقل، والشرع ـ أعظم من ضلال اولئك، وبين أن الاستدلال على حدوث العالم لا يحتاج الى الطريق التى سلكها أولئك المتكلمون، بل يمكن اثبات حدوثه بطرق اخرى عقلية صحيحة، لا يعارضها عقل صريح، ولا نقل صحيح. وثبت بذلك ان ما سوى الله فانه محدث، كائن بعد ان لم يكن، سواء سمي جسما او عقلاً أو نفساً أو غير ذلك.

فان اولئك المتكلمين من المعتزلة واتباعهم، لما لم يكن فى حجتهم الا اثبات حدوث اجسام العالم، قالت الفلاسفة ومن وافقهم من المتأخرين ـ كالشهر ستانى، والرازي، والآمدي وغيرهم ـ انكم لم تقيموا دليلا على نفي

ما سوى الأجسام. وحينئذ فأثبات حدوث أجسام العالم لا يقتضى حدوث ما سوى الله، ان لم تثبتوا ان كل ما سواه جسم.

وانتم لم تثبتوا ذلك؛ ولهذا صار بعض المتأخرين - كالأرموي ومن وافقه من أهل مصر، كأبى عبد الله القشيري[1] - الى ان أجسام العالم محدثة واما العقول والنفوس فتوقفوا عن حدوثها، وقالوا بقدمها، وان كان حقيقة قولهم انه موجب بالذات لها، وانه محدث للاجسام بسبب حدوث بعض التصورات، والارادات، التى تحدث للنفوس، فيصير ذلك سبباً لحدوث الأجسام، وهذا القول كما أنه معلوم البطلان في الشرع: فهو أيضاً معلوم البطلان فى العقل، كما سنبينه ان شاء الله تعالى.

فنقول: الدليل الدال على أن كل ما سوى الله محدث يتناول هذا وهذا.

و «أيضاً» فاذا كان موجبا بالذات كان اختصاص حدوث اجسام العالم بذلك الوقت دون ما قبله وما بعده يفتقر الى مخصص، والموجب بذاته لا يصدر عنه ما يختص بوقت دون وقت؛ إذ لو جاز ذلك لم يكن موجبا بذاته؛ ولجاز حدوث العالم عنه، ولأن النفوس التى تثبتها الفلاسفة هي عند جمهورهم عرض قائم بجسم الفلك؛ فيمتنع وجودها به بدون الفلك، وعند ابن سينا وطائفة انها جوهر قائم بنفسه، لكنها متعلقة بالجسم تعلق التدبير

---

١ - هو عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك النيسابورى القشيرى أبو القاسم - زين الاسلام شيخ خراسان فى عصره - زهداً وعلماً بالدين ولد عام ٣٧٦ هـ وتوفى عام ٤٦٥ هـ من كتبه التيسير فى التفسير، ولطائف الاشارات، والرساله القشيريه

راجع طبقات السبكى ٣:٢٤٣ - ٢٤٨ وتاريخ بغداد ١١:٨٣ ومفتاح السعادة ١:٤٣٨

والتصريف. وحينئذ فلو وجدت ولا تعلق لها بالجسم لم تكن نفساً؛ بل كانت عقلا، فعلم أن وجود النفس مستلزم لوجود الجسم.

فاذا قال هؤلاء: ان النفس ازلية دون الأجسام كان هذا القول باطلا بصريح العقل، مع أنه لم يعرف به قائل من العقلاء قبل هؤلاء. وانما ألجأ هؤلاء إلى هذا ظنهم صحة دليل المتكلمين[1] على حدوث الاجسام، وصحة قول الفلاسفة بوجود موجود وممكن غير الاجسام،واثبات الموجب بالذات؛ فلما بنوا قولهم على الأصل الفاسد لهؤلاء ولهؤلاء: لزم هذا، مع أنهم متناقضون فى الجمع بين هذين؛ فان عمدة المتكلمين على ابطال حوادث لا أول لها.

وعمدة الفلاسفة على ان المؤثرية من لوازم الواجب بنفسه، فاذا قالوا بقدم نفس لها تصورات وارادات لا تتناهى: لزم جواز حوادث لا تتناهي؛ فبطل أصل قول المتكلمين الذي بنوا عليه حدوث الأجسام؛ فكان حينئذ موافقتهم المتكلمين بلا حجة عقلية، فعلم انهم جمعوا بين المتناقضين.

وابو عبد الله ابن الخطيب وامثاله كانوا أفضل من هؤلاء ، وعرفوا أنه لا يمكن الجمع بين هذا وهذا، فلم يقولوا هذا القول المتناقض، ولم يهتدوا الى مذهب السلف والأئمة، وان كانوا يذكرون اصوله فى مواضع أخر، ويثبتون ان جمهور العقلاء يلتزمونها، فلو تفطنوا لما يقوم بذات الله من كلامه

---

١ ـ المتكلمين: أصحاب علم الكلام: وهو علم يقتدر معه على اثبات الحقائق الدينيه، بايراد الحجج عليها، ورفع الشبه عنها وموضوعه: ذات الله سبحانه وتعالى، وصفاته عند المتقدمين وقيل موضوعه: الموجود من حيث هو موجود، وإنما يمتاز عن العلم الالهى الباحث عن أحوال الموجود المطلق باعتبار الغاية لان أبحاثه فى الكلام على قواعد الشرع [illegible] مقتضى العقول.

ان جمهور العقلاء يلتزمونها، فلو تفطنوا لما يقوم بذات الله من كلامه وافعاله المتعلقة بمشيئه وقدرته ودوام اتصافه بصفة الكمال، خلصوا من هذه المحارات.

ونحن ننبه على بعض الطرق العقلية، التي يعلم بها حدوث كل ما سوى الله تعالى. فنقول:

من «الطرق» التي يعلم بها حدوث كل ما سوى الله هي ان يقال: لو كان فيما سوى الله شيء قديم لكان صادرا عن علة تامة، موجبة بذاتها، مستلزمة لمعلولها، سواء ثبت له مشيئة أو اختيار، او لم يثبت فان القديم الأزلي الممكن الذي لا يوجد بنفسه لا يتصور وجوده ان لم يكن له في الأزل مقتض تام يستلزم ثبوته.

وهذا كما انه معلوم بضرورة العقل فلا نزاع فيه بين العقلاء، فلا يقول احد: ان القديم الأزلي صادر عن مؤثر لا يلزمه اثره، فلا يقول: إنه صادر عن علة غير تامة مستلزمة لغير معلولها، ولا يقول: إنه صادر عن موجب بذاته لا يقارنه موجبه ومقتضاه، ولا يقول: إنه صادر عن فاعل بالاختيار يمكن ان يتأخر مفعوله؛ فانه إذا أمكن تأخر مفعوله أمكن ان يكون ذلك القديم الأزلي قديما أزلياً، فيكون ثبوته في الازل ممكناً، وليس في الازل ما يستلزم ثبوته في الأزل، فيمتنع ثبوته في الأزل؛ فان ثبوت الممكن الأزلي بدون مقتضى تام مستلزم له ممتنع بضرورة العقل؛ اذ قد علم بصريح ان شيئاً من الممكنات لا يكون حتى يحصل المقتضى التام، المستلزم لثبوته.

ومن نازع في هذا من المعتزلة وغيرهم، وقال انه لا ينتهي الى حد الوجوب؛ بل يكون العقل بالوجود اولى منه بالعدم، فانه لم ينازع في ان

القادر المختار يمتنع ان يكون مقدوره المعين أزلياً، مقارناً له؛ بل هذا مما لم ينازع فيه لا هؤلاء ولا غيرهم.

فتبين انه لو كان شيء مما سوى الله أزليا للزم أن يكون له مؤثر تام، مستلزم له في الازل؛ سواء سمي علة تامة، أو موجبا بالذات، او قدر انه فاعل بالارادة، وان مراده المعين يكون ازليا مقارناً له. واذا كان كذلك فنقول: ثبوت علة[1] تامة ازلية ممتنع، فان العلة التامة الازلية تستلزم معلولها، لا يتخلف عنها شيء من معلولها؛ فانه ان تخلف عنها لم تكن علة تامة لمعلولها؛ فيمتنع في الشيء الواحد ان يكون موجباً بذاته، وان يتخلف عنه موجبه أو شيء من موجبه؛ فان الموجب بالذات لشيء لابد ان يكون ذلك الموجب جميعه مقارنا لذاته، والعلة التامة هي التى يقارنها معلولها. ولا يتأخر عنها شيء من معلولها، فلو تأخر عليها شيء من معلولها لم تكن علة تامة لذلك المستأخر. والفلاسفة يسلمون ان ليس علة تامة فى الازل لجميع الحوادث التى تحدث شيئاً بعد شيء، فان ذلك جمع بين النقيضين؛ إذ يمتنع ان يكون علة تامة أزلية لامر حادث عنه غير أزلي.

وان شئت قلت: يمتنع أن يكون موجباً بذاته فى الأزل لأمر حادث ليس بأزلي؛ سواء كان ايجابه بواسطة أو بغير واسطة، فان تلك الواسطة ان كانت

---

١ ـ العلة فى اللغة: اسم لعارض يتغير به وصف المحل بحلوله لا عن اختيار، ومنه سمى المرض علة، لأنه بحلوله يتغير حال الشخص من القوة الى الضعف، وكل أمر يصدر عنه أمر آخر بالاستقلال او بانضمام الغير اليه، فهو علة لذلك الأمر والأمر معلول له، فيتعقل كل واحد منهما بالقياس الى تعقل الآخر.

راجع كليات أبى البقاء وكشاف اصطلاحات الفنون

أزلية كان اللازم لها أزلياً، وان كانت حادثة كان القول فيها كالقول في الحادث بتوسطها، وهذا الذي سلموه معلوم أيضاً بصريح العقل، فالمقدمة برهانية مسلمة؛ لكن يقولون: إنه علة تامة؛ لما هو قديم كالأفلاك عندهم. وليس علة تامة للحوادث، وهذا أيضاً باطل.

وذلك ان كل ما يقال: انه قديم كالأفلاك، إما أن يجب ان يكون مقارناً للحوادث كما يقولون في الفلك: انه يجب له لزوم الحركة، وانه لم يزل متحركاً، وأما أنه لا يجب أن يكون مقارناً لشيء من الحوادث، فان كان الأول لزم أن يكون علة تامة للحوادث، وكونه علة تامة للحوادث محال؛ لأن ما قارنته الحوادث ولم يخل منها بل هي لازمة له امتنع صدوره عن الموجب بدونها، ووجود الملزوم بدون اللازم محال، وإذا كانت الحركة لازمة للفلك، كما يقولون: فوجود الفلك بدون الحركة محال، فالموجب بذاته الذي هو علة تامة للفلك، يجب أن يكون علة تامة موجبة للوازمه، وعلة تامة في الأزل بحركته، لكن العلة التامة الأزلية لا يجوز أن تكون علة تامة أزلية للحوادث، لا الحركة ولا غيرها، لأنه يجب وجود معلولها الذي هو موجبها ومقتضاها في الأزل، وان لا يتأخر عنها شيء من موجبها، ومقتضاها، ومعلولها.

والحركة التي توجد شيئاً فشيئاً هي وغيرها من الحوادث التي تحدث شيئاً بعد شيء ليس واحد منها قديماً؛ بل كل منها حادث مسبوق بآخر؛ فيمتنع أن يكون شيء منها معلولاً للعلة الأزلية؛ لامتناع أن يكون حادث من الحوادث قديماً، ويمتنع وجود مجموع الحوادث في الأزل، ويمتنع وجود

المستلزم للحوادث إلا مع حادث من الحوادث أو مع مجموع الحوادث، وإذا كان كلاهما يمتنع أن يكون قديماً امتنع أن يكون شيء مما يستلزم الحوادث قديماً، فامتنع أن يكون لشيء من الحوادث أو ما يستلزم الحوادث علة تامة قديمة؛ فامتنع صدور الحوادث أو شيء منها، أو من ملزوماتها عن علة تامة قديمة؛ فامتنع أن يكون شيء لا يخلو عن الحوادث صادراً عن علة تامة أزلية؛ فامتنع أن يكون الفلك المقارن للحوادث علة أزلية قديمة. ولو كان قديماً لصدر عن علة تامة قديمة، فاذا لم يكن قديماً إلا إذا كان المقتضى التام ثابتاً فى الأزل، وثبوت المقتضى التام له ممتنع، كما ان قدمه ممتنع.

واما ان قيل: ان القديم شيء غير مقارن للحوادث، ولا مستلزم لها، مثل أن يقال: القديم أعيان ساكنة، هي المعلول الاول، فيقال ذلك المعلول اما أن يجوز حدوث حال من الاحوال، اما فيه، أو عنه، أو غير ذلك. وإما أن لا يجوز.

فان جاز حدوث حال من الأحوال له امتنع حدوث ذلك الحادث عن علة تامة أزلية ـ وهو الموجب بالذات كما تقدم، وكما هو معلوم ومتفق عليه بين العقلاء ـ ولابد من محدث، والمحدث ان كان سوى الله فالقول فى حدوثه ان كان محدثاً، او فى حدوث ذلك الاحداث له بعد ان لم يكن، كالقول فى حدوث ذلك الحادث، وان كان هو الله تعالى امتنع ان يكون موجباً بالذات له؛ إذ القديم لا يكون موجباً بالذات لحادث ـ كما بين ـ فامتنع ثبوت العلة القديمة. وإذا لم يكن الصانع موجباً بالذات ـ فلا يكون علة تامة ـ امتنع قدم شيء من العالم؛ لأنه لا يكون قديم إلا عن علة تامة، وإن قيل إنه لا يجوز

حدوث لما فرض قديماً معلولا للأول؛ فهذا مع أنه لم يقل به أحد من العقلاء فهو باطل؛ لوجوه:

«أحدها» ان واجب الوجود تحدث له النسب والاضافات باتفاق العقلاء؛ فحدوث ذلك لغيره أولى.

«الثانى» ان الحوادث مشهودة فى العالم العلوي روالسفلي، وهذه الحوادث صادرة عن الله: اما بوسط او بغير وسط، فاذا كانت بوسط فتلك الوسائط حدثت عنها أمور بعد ان لم تكن؛ فلزم حدوث الاحوال للقديم، سواء كان هو الصانع او كان هو الوسائط للصانع.

وإن قيل: القديم هو شيء ليس بواسطة فى شيء آخر. قيل لابد أن يكون ذلك قابلا لحدوث الأحوال، فانه يمكن حدوث النسب والاضافات لله عز وجل بالضرورة واتفاق العقلاء، فامكان ذلك لغيره اولى، وإذا كان قابلا لها أمكن أن تحدث له الأحوال، كما تحدث لغيره من الممكنات؛ فان الله لا يمتنع حدوث الحوادث عنه: إما بوسط واما بغير وسط؛ فاذا كان قابلا، وصدور مثل ذلك عن الصانع ممكن امكن حدوث الحوادث عنه او فيه بعد ان لم يكن.

وحينئذ فالقول فى حدوثها كالقول فى حدوث سائر ما يحدث عنه، وذلك محال من العلة التامة المستلزمة لمعلومها، فقد بين هذا البرهان الباهر أن كون الأول علة تامة لشيء من العالم ـ محال، لا فرق فى ذلك بين الفلك وغيره؛ سواء قدر ذلك الغير جسما او غير جسم، وسواء قدر مستلزما للحوادث فيه أو عنه ـ كما يقوله الفلاسفة الدهرية: كالفارابى،[1] وابن سينا

---

١ ـ سبقت الترجمة له فى كلمة وافية

وامثالهما، وسلفهما من اليونان. فانهم يقولون: الفلك مستلزم للحوادث القديمة، والعقول والنفوس مستلزمة للحوادث التى تحدث عنها، فكل منها مقارن للحوادث، لا يجوز تقدمه عليها مع كون ذلك جميعه معلولا للموجب بذاته، فاذا تبين ان الموجب بذاته يمتنع ان يصدر عنه في الأزل حادث، أو مستلزم لحادث، بطل كون صانع العالم علة تامة فى الأزل، ومتى بطل كونه علة تامة في الازل، امتنع أن يكون فيما سواه شيء قديم بعينه، فهذا بيان أن كل ما سوى الله محدث كائن بعد أن لم يكن، سواء قيل بجواز دوام الحوادث، أو قيل بامتناع ذلك.

فانه ان قيل بامتناع دوام الحوادث لزم حدوث كل ما لا يخلو عن الحوادث، وان قيل بجواز دوام الحوادث فكل منها حادث بعد ان لم يكن مسبوقا بالعدم،[1] وكل العالم مستلزم لحادث بعد ان لم يكن مسبوقاً بالعدم، وكل من العالم وكل ما كان مصنوعا وهو مستلزم للحوادث امتنع ان يكون صانعه علة تامة قديمة موجبة له؛فاذا امتنع ذلك امتنع ان يكون قديماً فامتنع ان يكون من العالم ما هو قديم بعينه.

وأما كون الرب لم يزل متكلما إذا شاء، أو لم يزل فاعلا تقوم به الأفعال بمشيئته ونحو ذلك ـ فهذا هو الذي قاله السلف والأئمة؛ فتبين ان الذي قاله السلف والأئمة هو الحق المطابق للمنقول والمعقول.

---

١ ـ العدم: ضد الوجود وهو مطلق أو اضافى فالعدم المطلق هو الذى لا يضاف الى شىء، والعدم الاضافى أو المقيد هو المضاف الى شىء كقولنا: عدم الأمن، وعدم الاستقرار وعدم التأثر قال ابن سينا: البالغ فى النقص غايته فهو المنتهى الى مطلق العدم فبالحرى أن يطلق عليه معنى العدم المطلق.

راجع الاشارات ٦٩ ـ ٧٠

وأما كون قول الفلاسفة أبطل من قول المعتزلة، فانه يقال لهم: أولئك جوزوا حدوث الحوادث عن ذات لم تزل غير فاعلة، ولا يقوم بها حادث ولا يصدر عنها حادث، وأنتم قلتم الحوادث الدائمة المختلفة تصدر عن هذه الذات، وزدتم فى نفي الصفات عنها، فجعلتموها وجوداً مطلقاً بشرط الاطلاق او ما يشبه ذلك، فقولكم فى نفي الصفات عنها أعظم من قول المعتزلة.

وقلتم: هو موجب بذاته علة تامة أزلية يقارنها المعلول الأزلي، فلا يتأخر عنها. ومعلوم ان صدور الحوادث المختلفة عن العلة[1] التامة البسيطة الأزلية، التى لا يتخلف عنها مقتضاها ومعلولها اشد امتناعا من صدور الحوادث عن قادر مختار بعد ان لم تكن صادرة عنه، فان كان حدوث الحوادث عن القديم الذي لم يقم به حادث ممتنعا فقولكم أشد امتناعاً، وان كان ممكناً فقول المعتزلة أقرب؛ فان قولهم: ان اقتضى ان لا يكون للحوادث سبب حادث، فقولكم يقتضي ان لا يكون للحوادث محدث اصلا، والحوادث مشهودة، والمحدث لابد ان يكون موجوداً عند وجودها، ولابد ان يكون كلمايعتبر فى الاحداث موجوداً عند الاحداث، وذلك يمتنع صدوره عن علة تامة.

فتبين ان المقدمات التى احتج بها الفلاسفة على المعتزلة واتباعهم على قدم العالم يحتج بها بعينها على حدوث العالم؛ فان مبنى دليلهم على ان العلة التامة الازلية تستلزم معلولها، وان البارى ان لم يكن علة تامة ازلية لزم الحدوث بلاسبب، وان كان علة تامة أزلية لزم مقارنة معلوله؛ فيلزم قدم العالم.

اما كونه علة تامة فممتنع؛ لأن العلة التامة الأزلية يقارنها معلولها كله، لا يتأخر عنها شيء من معلولها، والعالم لا ينفك من حوادث مقارنة له

بالضرورة، واتفاق جماهير العقلاء، وما كان مستلزما للحوادث امتنع كونه معلول العلة التامة الأزلية؛ لامتناع كون الحوادث حادثةعن علة تامة ازلية، فانه ما من حادث الا وهو مسبوق بالعدم، فليس هو علة تامة لشيء منها، وما من زمن يقدر إلا وفيه حادث، فليس هو في شيء من الأوقات علة تامة، لا فى الماضي ولا المستقبل؛ فامتنع ان يكون علة تامة وهو المطلوب؛ فيلزم من ذلك كون كل ما سواه محدثا، سواء قيل بتسلسل الحادثة او لم يقل.

وأما قولهم: ان لم يكن علة تامة ازلية، لزم الحدوث بلا سبب فيقال لهم: هذا إنما يلزم إذا لم يكن متكلما إذا شاء ـ تقوم به الافعال الاختيارية بقدرته تعالى ـ والا فعلى هذا التقدير لم يزل ولا يزال قادراً على الفعل متكلما إذا شاء، وحينئذ فما حصل بمشيئته وقدرته من اقواله وأفعاله يكون هو السبب لما بعده.

وان قالوا: هذا يستلزم قيام الحوادث به، قيل لهم اولاً: قيام الحوادث بالقديم جائز عندكم، ومن انكر ذلك من اهل الكلام فانما انكره لا عتقاده ان ما قامت به الحوادث فهو حادث، فان كان هذا الاعتقاد صحيحا بطل قولكم بقدم الافلاك، وان كان باطلا بطلت حجة من قال: ان القديم لا تقوم به الحوادث؛ فلا يمكنكم على التقديرين ان تقولوا انه لا تقوم به الحوادث؛ لكن انتم نفيتم ذلك بناء على نفي الصفات، وقولكم فى نفي الصفات فى غاية الفساد، ودليكم عليه قد بين فساده فى غير هذا الموضع، وبين بطلان ما ذكرتموه.

و «بالجملة» فاذا كان القول بحدوث العالم مستلزما لاثبات الصفات وقيام الافعال بالله، كان ما ذكرناه من دليل حدوثه دليلا على ان العالم محدث،

وأن محدثه موصوف بالصفات القائمة به، فاعل الافعال الاختيارية القائمة به، كما دلت على ذلك النصوص الالهية المتواترة عن الانبياء من القرآن والتوراة، والانجيل. وذلك ما بين موافقة العقل الصريح للنقل الصحيح، والقضايا العقلية التى هي اصول فطر العقلاء، ومنتهى عقلهم توافق ذلك، واعتبر ذلك بما ذكره ابو عبد الله بن الخطيب الرازي، فى كتابه «الاربعين» فى ضبط المقدمات التى يمكن الرجوع اليها فى إثبات المطالب العقلية

قال: واعلم ان ههنا «مقدمتين» يفرع المتكلمون والفلاسفة اكثر مباحثهم عليهما.

«المقدمة الاولى» مقدمة الكمال والنقصان، كقولهم هذه الصفة من صفات الكمال فيجب اثباتها لله، وهذه الصفة من صفات النقصان فيجب نفيها عن الله، واكثر مذاهب المتكلمين مفرعة على هذه المقدمة.[1]

الى ان قال:

«اما المقدمة الثانية» وهي مقدمة الوجوب؛ والامكان، وهذه المقدمة فى غاية الشرف والعلو، وهي غاية عقول العقلاء. قالوا الوجود اما واجب واما ممكن، والممكن لابد له من واجب، وكذلك الواجب لابد ان يكون واجباً فى ذاته وصفاته؛ إذ لو كان ممكناً لافتقر إلى مؤثر آخر.

«أما المقدمة الاولى» وهي انه واجب لذاته: فهذا له لازمان: الاول ان يكون منزهاً عن الكثرة فى حقيقته، ثم يلزم في ذاته امور:

---

١ ـ راجع كتاب الأربعين : ١٩ ـ ٢٠

«احدها» ان لا يكون متحيزاً؛ لان كل متحيز منقسم، والمنقسم لا يكون فرداً، وإذا لم يكن متحيزاً لم يكن في جهة.

و «ثانيها» ان لا يكون واجب الوجود اكثر من واحد، ولو كان اكثر من واحد لاشتركا في الوجوب، وتباينا في التعيين، وما به الاشتراك غير ما به الامتياز؛ فيلزم كون كل واحد منهما مركباً في نفسه، وقد فرضناه فرداً هذا خالف اللازم الثاني؛ لكونه واجب الوجود لذاته أي لا يكون حالا ولا محلا، والافعال الافتقار هي.[1]

قلت: ولقائل ان يقول: هذا هو اصل الفلاسفة في التوحيد، الذي نفوا به صفاته تعالى، وهو ضعيف جداً.

والاصل الذي بنوا عليه ذلك ضعيف جداً، وان كان اشتبه على كثير من المتأخرين: وقولهم: ان الواجب لا يكون إلا واحداً. قصدوا به انه ليس له علم ولا قدرة، ولا حياة ولا كلام يقوم به، ولا شيء من الصفات القائمة به؛ لانه لو كان كذلك لكان الواجب اكثر من واحد، كما يقوله المعتزلة انه ليس له صفات قديمة بذاته؛ لأنه لو كان كذلك لكان القديم اكثر من واحد.

ولفظ «الواجب،[2] والقديم» يراد به الاله الخالق سبحانه، الواجب الوجود

---

١ - راجع كتاب الاربعين: ٥٢ - ٥٣ ط المكتبات الأزهريه

٢ - الراجب ما تقتضى ذاته وجوده اقتضاء تاماً أو ما يستغنى في وجوده الفعلي عن غيره وهو مرادف للضروري إلا أنه يطلق في بعض الأحيان على ما هو أخص من الضروري كما في قول ابن سينا: إن الواجب والممتنع مشتقان وفي معنى الضرورة فذاك ضروري في الوجود، وذا ضروري في العدم

راجع النجاة: ٢٩ ورسالة في الحدود: ٧٩

القديم فهذا ليس الا واحدا، ويراد به صفاته الأزلية، وهي قديمة واجبة بتقدم الموصوف، ووجوبه لم يجب أن تكون مماثلة له، ولا تكون الهاً، كما أن صفة النبى ليست بنبى، وصفة الانسان والحيوان ليست بانسان ولا حيوان، وكما ان صفة المحدث ان كانت محدثة فموافقتها له في الحدوث لا يقتضي مماثلتها له وما ذكروا من الحجة على ذلك ضعيفة.

فاذا قالوا: لو كان له علم واجب بوجوب العالم لكان الواجب اكثر من واحد. قيل له: ولم قلتم بامتناع كون الواجب اكثر من واحد؛ اذا كانت الذات الواجبة إلهاً واحداً، موصوفا بصفات الكمال.

قولهم: لو كان اكثر من واحد لاشتركا فى الوجوب، وتباينا فى التعيين، وما به الاشتراك غير ما به الامتياز؛ فيلزم ان يكون كل منهما مركباً فى نفسه؛ وقد فرضناه؛ فرد هذا خلق.

يقال له فى جوابه قول القائل اشتركا فى الوجوب، وتباينا فى التعيين، تريد به ان الوجوب الذي يختص كلا منهما شاركه الاخر فيه ام تريد انهما اشتراكا فى الوجوب المطلق الكلي.

والاول باطل لا يريده عاقل. وأما الثانى فيقال: اشتراكهما فى المطلق الكلي، كاشتراكهما في التعيين المطلق الكلي. فان هذا له تعين يخصه، والتعيينان يشتركان فى مطلق التعين. وكذلك هذا له حقيقة تخصه، وهذا له حقيقة تخصه، وهما يشتركان فى مطلق الحقيقة وكذلك لهذا ذات تخصه، وهما يشتركان فى مطلق الذات. وكذلك سائر الاسماء التى تعم بالاطلاق، وتخص بالتقييد، كاسم الموجود والنفس، والماهية وغير ذلك.

وإذا كان كذلك فمعلوم انهما اشتراكا فى الوجوب المطلق، وامتاز كل منهما بوجوبه بتعيين يخصه. وحينئذ: فلا فرق بين الوجوب والتعيين.

فقول القائل: اشتركا فى الوجوب المطلق، وتباينا بالتعيين الخاص.

كقول القائل اشتركا في التعيين المطلق، وتباينا بالوجوب الخاص. ومعلوم ان مثل هذا لا مندوحة عنه، سواء سمي تركيباً او لم يسم، فلا يمكن موجود يخلو عن مثل هذه المشاركة والمباينة، لا واجب ولا غيره، وما كان من لوازم الوجود كان نفيه عن الوجود الواجب ممتنعاً.

و «أيضاً» فالمشترك المطلق الكلي[1] لا يكون كلياً مشتركا الا في الأذهان لا في الأعيان، وإذا كان كذلك فليس في أحدهما شيء يشاركه الأخر فيه في الخارج؛ بل كل ما اتصف به أحدهما لم يتصف الاخر بعينه، ولم يشاركه فيه؛ بل لا يشابهه فيه، أو يماثله فيه. وإذا كان الاشتراك ليس الا في ما في الأذهان لم يكن أحدهما مركباً في مشترك ومميز ؛بل يكون كل منهما موصوفاً بصفة تخصه،لايشابهه الاخر فيها، ويصفه يشابهه الاخر فيها وهذا لامحذور فيه.

وأيضاً فيقال: هذا منقوض بالوجود، فان الوجود الواجب والممكن يشتركان في مسمى الوجود، ويباين احدهما الاخر بخصوصه؛ فيلزم تركيب

١ـ المطلق مقابل المقيد والمطلق فى المنطق وعلم النفس.هو اللفظ الدال على معنى واحد لايتوقف ادراكه على غيره،كالانسان فهو حد مطلق،ويقابله الحد الاضافى،وهو الذى لايعقل الابالقياس الى غيره،كالأبوة والبنوة.والمطلق أيضا: هو المستقل عن المشخصات والمعينات والمخصصات كالحركة المطلقه،والوضع المطلق والحرارة المطلقة.

الوجود الواجب مما به الاشتراك،ومما به الامتياز؛فما كان الجواب عن هذا كان الجواب عن ذلك.

و«أيضاً» فيقال: هب انكم سميتم هذا تركيباً.فلم قلتم ان هذا ممتنع على موجود من الموجودات،واجباً كان أو ممكناً؟ مع ان المنازع يقول هذا المعنى الذي نفيتموه ، وسميتموه تركيباً،هو لازم لكل موجود.

قولهم: وقد فرضناه فردا. قيل: هب انكم فرضتموه كذلك؛ لكن مجرد فرضكم لايقتضى ان يكون فرداً بالمعنى الذي ادعيتموه ان لم يقم على ذلك [دليل].

وسئل قدس الله روحه

عن بيان ما يجب على الانسان أن يعتقده، ويصير به مسلماً؛ بأوضح عبارة وأبينها، من أن ما في المصاحف هل هو كلام الله القديم؟ أو هو عبارة عنه لا نفسه، وأنه حادث أو قديم، وأن كلام الله حرف وصوت؟ أم كلامه صفة قائمة به لا تفارقه؟ وأن قوله تعالى: (الرحمن على العرش استوى)[1] حقيقة أم لا؟ وأن الانسان اذا أجرى القرآن على ظاهره من غير أن يتأول شيئاً منه، ويقول أو من به كما أنزل، هل يكفيه ذلك في الاعتقاد أم يجب عليه التأويل؟

(معتقد الانسان الذى يصير به مسلماً)

فأجاب: الذي يجب على الانسان اعتقاده في ذلك وغيره ما دل عليه

كتاب الله، وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، واتفق عليه سلف المؤمنين، الذين أثنى الله عليهم وعلى من اتبعهم، وذم من اتبع غير سبيلهم، وهو أن القرآن الذي أنزله الله على عبده ورسوله كلام الله تعالى، وأنه منزل غير مخلوق، منه بدأ وإليه يعود، وأنه «إنه لقرآن كريم. في كتاب مكنون. لا يمسه إلا المطهرون)،[1] وأنه (قرآن مجيد، في لوح محفوظ).[2] وأنه كما قال تعالى: (وإنه في أم الكتاب لدينا لعلي حكيم)[3] وأنه في الصدور، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: «استذكروا القرآن فلهو أشد تفصياً من صدور الرجال من النعم في عقلها»[4] وقال النبي صلى الله عليه وسلم: «الجوف الذي ليس فيه شيء من القرآن كالبيت الخرب»[5]وأن ما بين لوحي المصحف الذي كتبته الصحابة رضي الله عنهم كلام الله، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: «لا تسافروا بالقرآن إلى أرض العدو؛مخافة أن تناله أيديهم».[6]

---

١ ـ سورة الواقعة آية رقم ٧٧ ـ ٧٨ ـ ٧٩ وقد جاءت الآية الأولى محرفة في المطبوعة حيث قال (قرآن كريم) بدلاً من قوله (إنه لقرآن)

٢ ـ سورة البروج آية رقم ٢١

٣ ـ سورة الزخرف آية رقم ٤

٤ ـ الحديث أخرجه الامام مسلم في كتاب صلاة المسافرين ٢٢٨ (٧٩٠) عن منصور عن أبي وائل عن عبد الله. قال : قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وذكره وأخرجه البخاري في فضائل القرآن ٢٣ والترمذي في القرآن وأحمد بن حنبل في المسند ١:٣٨٢، ٤١٧ ـ ٤٢٣ (حلبي)

٥ ـ الحديث أخرجه الترمذي في كتاب فضائل القرآن ٢٩١٣ بسنده عن قابوس بن أبي ظبيان عن ابيه عن بن عباس قال: قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وذكره.

وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح وأخرجه الدرامي في فضائل القرآن.

٦ ـ الحديث أخرجه الامام مسلم في كتاب الامارة ٩٤ عن أيوب عن نافع عن ابن عمر ===

فهذه «الجملة» تكفي المسلم في هذا الباب.

وأما تفصيل ما وقع فى ذلك من النزاع فكثير منه يكون كلا الاطلاقين خطأ، ويكون الحق فى التفصيل، ومنه ما يكون مع كل من المتنازعين نوع من الحق، ويكون كل منهما ينكر حق صاحبه.

وهذا من التفريق والاختلاف الذي ذمه الله تعالى ونهى عنه، فقال: (وإن الذين اختلفوا في الكتاب لفي شقاق بعيد)[1] وقال: (ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات)[2] وقال:و اعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا)[3] وقال: (وما اختلف فيه إلا الذين أوتوه من بعد ما جاءتهم البينات بغياً بينهم).[4]

فالواجب على المسلم أن يلزم سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وسنة خلفائه الراشدين، والسابقين الأولين من المهاجرين والأنصار، والذين اتبعوهم باحسان. وما تنازعت فيه الأمة وتفرقت فيه، إن أمكنه أن يفصل النزاع بالعلم والعدل وإلا استمسك بالجمل الثابتة بالنص والاجماع، وأعرض عن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً، فان مواضع التفوق والاختلاف عامتها تصدر عن اتباع الظن،وما تهوى الأنفس،ولقدجاءهم من ربهم الهدى

= قال: قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وذكره وأخرجه البخارى فى كتاب الجهاد ١٢٩ وصاحب الموطأ فى الجهاد ٧ وأحمد بن حنبل فى المسند ٢:٦، ٧، ١٠، ٥٥، ٦٣ (حلبى)

١ ـ سورة البقرة آية رقم ١٧٦

٢ ـ سورة آل عمران آية رقم ١٠٥

٣ ـ سورة آل عمران آية رقم ١٠٣

٤ ـ سورة البقرة آية رقم ٢١٣

وقد بسطت القول في جنس هذه المسائل ببيان ما كان عليه سلف الأمة، الذي اتفق عليه العقل والسمع. وبيان ما يدخل فى هذا الباب من الاشتراك والاشتباه والغلط في مواضع متعددة، ولكن نذكر منها جملة مختصرة بحسب حال السائل.

والواجب أمر العامة بالجمل الثابتة بالنص والاجماع، ومنعهم من الخوض فى التفصيل الذي يوقع بينهم الفرقة والاختلاف، فان الفرقة والاختلاف من أعظم ما نهى الله عنه ورسوله.

والتفصيل المختصر أن نقول: من اعتقد أن المداد الذي فى المصحف وأصوات العباد قديمة أزلية فهو ضال مخطىء، مخالف للكتاب والسنة، وإجماع السابقين الأولين، وسائر علماء الاسلام، ولم يقل أحد قط من علماء المسلمين إن ذلك قديم، لا من أصحاب الامام أحمد ولا من غيرهم ومن نقل قدم ذلك عن أحد من علماء أصحاب الامام أحمد ونحوهم فهو مخطىء فى هذا النقل، أو معتمد للكذب؛ بل المنصوص عن الامام أحمد وعامة أصحابه تبديع من قال: لفظي بالقرآن غير مخلوق، كما جهموا من قال: اللفظ بالقرآن مخلوق.

وقد صنف أبو بكر المروذي ـ أخص أصحاب الامام أحمد به ـ فى ذلك رسالة كبيرة مبسوطة، ونقلها عنه أبو بكر الخلال فى «كتاب السنة» الذي جمع فيه كلام الامام أحمد وغيره من أئمة السنة في أبواب الاعتقاد، وكان بعض أهل الحديث إذ ذاك أطلق القول بأن لفظي بالقرآن غير مخلوق معارضة لمن قال: لفظي بالقرآن مخلوق، فبلغ ذلك الامام أحمد، فأنكر

شديداً، وبدع من قال ذلك وأخبر أن أحداً من العلماء لم يقل ذلك، فكيف بمن يزعم أن صوت العبد قديم! وأقبح من ذلك من يحكى عن بعض العلماء أن المداد الذي فى المصحف قديم، وجميع أئمة أصحاب الامام أحمد وغيرهم أنكروا ذلك، وما علمت أن عالماً يقول ذلك إلا ما يبلغنا عن بعض الجهال: من الاكراد ونحوهم».[1]

وقد ميز الله فى كتابه بين الكلام والمداد، فقال تعالى: (قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربي ولو جئنا بمثله مدداً)[2] فهذا خطأ من هذا الجانب، وكذلك من زعم أن القرآن محفوظ في الصدور، كما أن الله معلوم بالقلوب، وأنه متلو بالألسن، كما أن الله مذكور بالألسن، وأنه مكتوب فى المصحف، كما أن الله مكتوب.

وجعل ثبوت القرآن فى الصدور والألسنة والمصاحف مثل ثبوت ذات الله تعالى فى هذه المواضع؛ فهذا ـ أيضاً ـ مخطىء فى ذلك، فان الفرق بين ثبوت الأعيان فى المصحف، وبين ثبوت الكلام فيها بين واضح؛ فان الموجودات لها أربع مراتب: مرتبة فى الأعيان، ومرتبة فى الأذهان، ومرتبة فى اللسان، ومرتبة فى البنان. فالعلم يطابق العين، واللفظ يطابق العلم، والخط يطابق اللفظ.

---

١ ـ معظم الأكراد رحل يشتغلون بتربية الأغنام والزراعة وصناعة السجاد وهم مسلمون سنيون، وشعب محارب ظل يكافح قروناً طويله ليتخلص من حكم العثمانيين. نصت معاهدة سيفر ١٩٢١ على انشاء دولة كردية تتمتع بالحكم الذاتى، ولكن معاهدة لوزان ١٩٢٣ اغفلت ذكر كرد ستان قام اكراد ايران بثورة سنة ١٩٤٦ ضد الحكومة الايرانية، ولكنها أخمدت واعدم زعماؤها.

٢ ـ سورة الكهف آية رقم ١٠٩

فاذا قيل: إن العين فى كتاب الله كما فى قوله: (وكل شيء فعلوه فى الزبر)[1] فقد علم ان الذي فى الزبر إنما هو الخط المطابق للفظ المطابق للعلم، فبين الأعيان وبين المصحف مرتبتان، وهي اللفظ والخط، وأما الكلام نفسه فليس بينه وبين المصحف مرتبة، بل نفس الكلام يجعل فى الكتاب، وان كان بين الحرف الملفوظ والحرف المكتوب فرق من وجه آخر، الا إذا أريد أن الذي فى المصحف هو ذكره والخبر عنه، مثل قوله تعالى: (وانه لتنزيل رب العالمين نزل به الروح الامين على قلبك) الى قوله: وإنه لفي زبر الأولين. أو لم يكن لهم آية أن يعلمه علماء بنى اسرائيل).[2]

فالذي فى زبر الأولين ليس هو نفس القرآن المنزل على محمد صلى الله عليه وسلم، فان هذا القرآن لم ينزل على احد قبله صلى الله عليه وسلم، ولكن في زبر الأولين ذكر القرآن وخبره، كما فيها ذكر محمد صلى الله عليه وسلم وخبره، كما ان أفعال العباد فى الزبر كما قال تعالى: (وكل شيء فعلوه فى الزبر)[3] فيجب الفرق بين كون هذه الأشياء فى الزبر، وبين كون الكلام نفسه في الزبر، كما قال تعالى: (انه لقرآن كريم. في كتاب مكنون)[4] وقال تعالى: (يتلو صحفاً مطهرة. فيها كتب قيمة)[5].

---

١ ـ سورة القمر آية رقم ٥٢

٢ ـ سورة الشعراء آية رقم ١٩٣ ـ ١٩٧

٣ ـ سورة القمر آية رقم ٥٢

٤ ـ سورة الواقعة آية رقم ٧٨

٥ ـ سورة البينة آية رقم ٢

فمن قال ان المداد قديم فقد اخطأ، ومن قال ليس في المصحف كلام الله وإنما فيه المداد الذي هو عبارة عن كلام الله فقد أخطأ؛ بل القرآن فى المصحف كما ان سائر الكلام فى الورق، كما أن الأمة مجتمعة عليه، وكما هو في فطر المسلمين، فان كل مرتبة لها حكم يخصها، وليس وجود الكلام فى الكتاب كوجود الصفة فى الموصوف، مثل وجود العلم والحياة فى محلهما، حتى يقال: إن صفة الله حلت بغيره، أو فارقته، ولا وجود فيه كالدليل المخص، مثل وجود العالم الدال على الباري تعالى، حتى يقال: ليس فيه إلا ما هو علامة على كلام الله عز وجل؛ بل هو قسم آخر، ومن لم يعط كل مرتبة مما يستعمل فيها أداة الظرف حقها فيفرق بين وجود الجسم في الحيز وفي المكان، ووجود العرض بالجسم، ووجود الصورة بالمرآة، ويفرق بين رؤية الشيء بالعين يقظة، وبين رؤيته بالقلب ومناما، ونحو ذلك، والا اضطربت عليه الامور.

وكذلك سؤال السائل عما فى المصحف هل هو حادث أو قديم؟ سؤال مجمل؛ فان لفظ القديم اولا ليس مأثوراً عن السلف، وانما الذي اتفقوا عليه أن القرآن كلام الله غير مخلوق، وهو كلام الله حيث تلي، وحيث كتب، وهو قرآن واحد، وكلام واحد وإن تنوعت الصور التى يتلى فيها ويكتب من أصوات العباد ومدادهم. فان الكلام كلام من قاله مبتدئاً، لا كلام من بلغه مؤديا، فاذا سمعنا محدثاً يحدث بقول النبى صلى الله عليه وسلم: «انما الاعمال بالنيات» قلنا: هذا كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم لفظه ومعناه، مع علمنا أن الصوت صوت المبلغ، لا صوت رسول الله صلى اللهعليه وسلم وهكذا كل من بلغ كلام غيره من نظم ونثر.

ونحن اذا قلنا: هذا كلام الله لما نسمعه من القارىء، ونرى في المصحف، فالاشارة إلى الكلام من حيث هو هو، مع قطع النظر عما اقترن به البلاغ من صوت المبلغ، ومداد الكاتب.

فمن قال صوت القارىء ومداد الكاتب كلام الله الذي ليس بمخلوق فقد أخطأ، وهذا الفرق الذي بينه الامام احمد لمن سأله، وقد قرأ: (قل هو الله احد)[1] فقال: هذا كلام الله غير مخلوق، فقال: نعم، فنقل السائل عنه انه قال: لفظي بالقرآن غير مخلوق، فدعا به وزبره زبراً شديداً، وطلب عقوبته وتعزيره، وقال: أنا قلت لك لفظي بالقرآن غير مخلوق؟! فقال: لا، ولكن قلت لي لما قرأت (قل هو الله احد): هذا كلام الله غير مخلوق. قال: فلم تنقل عني ما لم أقله؟!.

فبين الامام أحمد أن القائل إذا قال لما سمعه من المبلغين المؤدين: هذا كلام الله، فالاشارة الى حقيقته التى تكلم الله بها، وإن كنا إنما سمعناها ببلاغ المبلغ وحركته وصوته؛ فاذا أشار إلى شيء من صفات المخلوق لفظه أو صوته أو فعله، وقال: هذا غير مخلوق فقد دخل وأخطأ. فالواجب أن يقال: القرآن كلام الله غير مخلوق. فالقرآن فى المصاحف، كما ان سائر الكلام فى الصحف، ولا يقال: إن شيئاً من المداد والورى غير مخلوق؛ بل كل ورى ومداد فى العالم فهو مخلوق، ويقال ايضاً: القرآن الذي في المصحف كلام الله غير مخلوق، والقرآن الذي يقرؤه المسلمون كلام الله غير مخلوق.

---

١ ـ سورة الإخلاص آية رقم ١

إن كلام الله هل هو حرف وصوت أم لا؟ فإن اطلاق الجواب في هذه المسألة نفياً وإثباتاً خطأ، وهي من البدع المولدة، الحادثة بعد المائة الثالثة، لما قال قوم من متكلمة الصفاتية: إن كلام الله الذي أنزل على أنبيائه ـ كالتوراة، والانجيل، والقرآن، والذي لم ينزله، والكلمات التى كون بها الكائنات، والكلمات المشتملة على أمره ونهيه وخبره، ليست الا مجرد معنى واحد، هو صفة واحدة قامت بالله، إن عبر عنها بالعبرانية كانت التوراة، وان عبر عنها بالعربية كانت القرآن، وان الامر والنهي والخبر صفات لها، لا أقسام لها، وان حروف القرآن مخلوقة، خلقها الله ولم يتكلم بها، وليست من كلامه؛ إذ كلامه لا يكون بحرف وصوت.

عارضهم آخرون من المثبتة فقالوا: بل القرآن هو الحروف والاصوات، وتوهم قوم أنهم يعنون بالحروف المداد، وبالاصوات أصوات العباد، وهذا لم يقله عالم.

والصواب الذي عليه سلف الأمة ـ كالامام أحمد والبخاري صاحب الصحيح، في «كتاب خلق أفعال العباد» وغيره، وسائر الأئمة قبلهم وبعدهم ـ اتباع النصوص الثابته، وإجماع[1] سلف الأمة، وهو أن القرآن جميعه كلام الله، حروفه ومعانيه، ليس شيء من ذلك كلاما لغيره؛ ولكن أنزله على رسوله، وليس القرآن اسماً لمجرد المعنى، ولا لمجرد الحرف؛ بل لمجموعهما، وكذلك سائر الكلام ليس هو الحروف فقط؛ ولا المعاني فقط. كما أن الانسان المتكلم الناطق ليس هو مجرد الروح، ولا مجرد الجسد؛ بل

---

١ ـ نسخة واتباع بدل واجماع.

مجموعهما. وان الله تعالى يتكلم بصوت، كما جاءت به الأحاديث الصحاح، وليس ذلك كأصوات العباد، لا صوت القارىء ولا غيره. وان الله ليس كمثله شيء، لا فى ذاته، ولا في صفاته، ولا فى أفعاله. فكما لا يشبه علمه وقدرته وحياته علم المخلوق وقدرته وحياته: فكذلك لا تشبه كلامه كلام المخلوق، ولا معانيه تشبه معانيه ولا حروفه بشبة حروفه ولا صوت الرب بشبه صوت العبد، فمن شبه الله بخلقه فقد ألحد في أسمائه وآياته، ومن جحد ما وصف به نفسه فقد ألحد فى أسمائه وآياته.

وقد كتبت فى الجواب المبسوط المستوفى: مراتب مذاهب أهل الأرض فى ذلك، وان المتفلسفة تزعم أن كلام الله ليس له وجود إلا في نفوس الأنبياء، تفيض عليهم المعاني من العقل الفعال،[1] فيصير في نفوسهم حروفاً، كما ان ملائكة الله عندهم ما يحدث في نفوس الانبياء من الصور النورانية، وهذا من جنس قول فيلسوف قريش الوليد ابن المغيرة: (ان هذا إلا قول البشر)[2] فحقيقة قولهم إن القرآن تصنيف الرسول الكريم؛ لكنه كلام شريف صادر عن نفس صافية.

وهؤلاء هم الصابئة؛ فتقربت منهم الجهمية. فقالوا: إن الله لم يتكلم ولا يتكلم، ولا قام به كلام، وإنما كلامه ما يخلقه في الهواء أو غيره، فأخذ

---

١ ـ العقل الفعال: الذى تفيض عنه الصور على عالم الكون والفساد فتكون موجودة فيه من حيث هى فاعلة أما فى عالم الكون والفساد فهى لا توجد إلا من جهة الانفعال وإذا أصبح العقل الانسانى شديد الاتصال بالعقل الفعال كأنه يعرف كل شيء من نفسه سمى بالعقل القدسى.

٢ ـ سورة المدثر آية رقم ٢٥

ببعض ذلك قوم من متكلمة الصفاتية. فقالوا: بل نصفه وهو المعنى كلام الله، ونصفه وهو الحروف ليس هو كلام الله، بل هو خلق من خلقه.

وقد تنازع الصفاتية القائلون بأن القرآن غير مخلوق. هل يقال: إنه قديم لم يزل ولا يتعلق بمشيئته؟ أم يقال: يتكلم إذا شاء ويسكت إذا شاء؟. على قولين مشهورين في ذلك، وفي السمع والبصر ونحوهما، ذكرهما الحارث المحاسبى عن أهل السنة، وذكرهما أبو بكر عبد العزيز عن أهل السنة، من اصحاب الامام أحمد وغيرهم.

وكذلك النزاع بين اهل الحديث والصوفية، وفرق الفقهاء: من المالكية، والشافعية والحنفية، والحنبلية؛ بل وبين فرق المتكلمين والفلاسفة، في جنس هذا الباب. وليس هذا موضعاً لبسط ذلك. (هذا لفظ الجواب في الفتيا المصرية).

فصل فى نزول القرآن

وقال الامام العلامة المحقق ابو العباس

احمد بن تيمية ـ رحمة الله تعالى ورضى عنه ـ

الحمد لله رب العالمين وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين أما بعد فهذا «فصل فى نزول القرآن» ولفظ «النزول» حيث ذكر فى كتاب الله تعالى، فان كثيراً من الناس فسروا النزول في مواضع من القرآن، بغير ما هو معناه المعروف لاشتباه المعنى في تلك المواضع، وصار ذلك حجة لمن فسر نزول القرآن بتفسير أهل البدع.

فمن الجهمية من يقول: انزل بمعنى خلق كقوله تعالى: (وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد)[1] أو يقول:خلقه فى مكان عال ثم أنزله من ذلك المكان.

ومن الكلابية من يقول نزوله بمعنى الاعلام به وافهامه للملك، أو نزول الملك بما فهمه.

وهذا الذي قالوه باطل فى اللغة والشرع والعقل.

و «المقصود هنا» ذكر النزول.

فنقول وبالله التوفيق: النزول فى كتاب الله عز وجل «ثلاثة أنواع»: نزول مقيد بأنه منه، ونزول مقيد بأنه من السماء، ونزول غير مقيد لا بهذا ولا بهذا.

---

١ ـ سورة الحديد آية رقم ٢٥

فالأول لم يرد إلا فى القرآن، كما قال تعالى: (والذين آتيناهم الكتاب يعلمون أنه منزل من ربك بالحق)[1] وقال تعالى: (نزله روح القدس من ربك بالحق)[2] وقال تعالى: (تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم)[3]وفيها قولان

«أحدهما» لا حذف في الكلام، بل قوله: (تنزيل الكتاب) مبتدأ، وخبره (من الله العزيز الحكيم)

و «الثانى» أنه خبر مبتدأ محذوف، أي هذا (تنزيل الكتاب) وعلى كلا القولين فقد ثبت أنه منزل منه، وكذلك قوله: (حم تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم)[4] وكذلك(حم، تنزيل من الرحمن الرحيم)[5] (حم، تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم)[6] والتنزيل بمعنى المنزل، تسمية للمفعول باسم المصدر، وهو كثير؛ ولهذا قال السلف: القرآن كلام الله ليس بمخلوق، منه بدأ. قال أحمد وغيره: واليه يعود، أي: هو المتكلم به. وقال كلام الله من الله ليس ببائن منه، أي لم يخلقه فى غيره فيكون مبتدأ منزلا من ذلك المخلوق؛ بل هو منزل من الله، كما أخبر به ومن الله بدأ لا من مخلوق، فهو الذي تكلم به لخلقه.

---

١ ـ سورة الأنعام آية رقم ١١٤

٢ ـ سورة النحل آية رقم ١٠٢

٣ ـ سورة الزمر آية رقم ١ وسورة غافر آية رقم ٢

٤ ـ سورة الزمر آية رقم ١ ـ ٢

٥ ـ سورة فصلت آية رقم ١ ـ ١

٦ ـ سورة غافر آية رقم ١ ـ ٢

وأما النزول «المقيد» بالسماء فقوله: (وأنزلنا من السماء)[1] والسماء اسم جنس لكل ماعلا، فاذا قيد بشيء معين [تقيد به] فقوله في غير موضع من السماء مطلق أي في العلو؛ثم قد بينه في موضع آخر بقوله (أأنتم أنزلتموه من المزن)[2] وقوله (فترى الودق يخرج من خلاله)[3] أي انه منزل من السحاب، ومما يشبه نزول القرآن قوله: (ينزل الملائكة بالروح من أمره على من يشاء من عباده) فنزول الملائكة هو نزولهم بالوحي من أمره، الذي هو كلامه وكذلك قوله: (تنزل الملائكة والروح فيها)[4] يناسب قوله: (فيها يفرق كل أمر حكيم، أمراً من عندنا انا كنا مرسلين)[5] فهذا شبيه بقوله: (قل نزله روح القدس)[6]

وأما «المطلق» ففي مواضع. منها: ما ذكره من انزال السكينة؛ بقوله: (فانزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين)[7] وقوله: (هو الذي أنزل السكينة في قلوب المؤمنين)[8] إلى غير ذلك.

ومن ذلك «انزال الميزان» ذكره مع الكتاب في موضعين، وجمهور

---

١ - سورة لقمان آية رقم ١٠

٢ - سورة الواقعة آية رقم ٦٩

٣ - سورة النور آية رقم ٤٣

٤ - سورة النحل آية رقم ٢

٥ - سورة الدخان آية رقم ٤

٦ - سورة النحل آية رقم ١٠٢

٧ - سورة الفتح آية رقم ٢٦

٨ - سورة الفتح آية رقم ٤

المفسرين على أن المراد به العدل، وعن مجاهد ـ رحمه الله ـ هو ما يوزنبه، ولا منافاة بين القولين.وكذلك العدل، وما يعرف به العدل، منزل في القلوب، والملائكة قد تنزل على قلوب المؤمنين كقوله (اذ يوحى ربك إلى الملائكة أنى معكم فثبتوا الذين آمنوا)[1] فذلك الثبات نزل في القلوب بواسطة الملائكة، وهو السكينة.قال النبى صلى الله عليه وسلم: (من طلب القضاء واستعان عليه وكل اليه ومن لم يطلب القضاء ولم يستعن عليه أنزل الله عليه ملكا يسدده)فالله ينزل عليه ملكا ، وذلك الملك يلهمه السداد ، وهو ينزل فى قلبه.

ومنه حديث حذيفة رضي الله عنه، الذي في الصحيحين عن النبى صلى الله عليه وسلم قال: «ان الله أنزل الامانة في جذر قلوب الرجال فعلموا من القرآن وعلموا من السنة»[2] والأمانة هي الايمان أنزلها في أصل قلوب الرجال، وهو كانزال الميزان والسكينة، وفي الصحيح عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال:«ما اجتمع قوم فى بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله» الحديث الى آخره، فذكر أربعة غشيان الرحمة، وهى أن تغشاهم كما يغشى اللباس لابسه، وكما يغشى الرجل المرأة، والليل النهار. ثم قال:«ونزلت عليهم السكينة»[3] وهو انزالها فى قلوبهم «وحفتهم الملائكة» أي جلست حولهم «وذكرهم الله فيمن عنده» من الملائكة.

---

١ ـ سورة الأنفال آية رقم ١٢

٢ ـ هنا من حديث طويل آخرجه الامام مسلم فى كتاب الايمان ٢٣٠ (٤١٣) بسنده عن الأعمش عن زيد بن وهب عن حذيفة قال: حدثنا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ حديثين قد رأيت أحدهما وأنا انتظر الآخر: وذكره. وأخرجه البخارى فى الفتن ١٣ والترمذى فى الفتن ═

وذكر الله الغشيان فى مواضع مثل قوله تعالى: (يغشى الليل النهار)[1] وقوله: (فلما تغشاها حملت حملا خفيفا)[2] وقوله: (والمؤتفكة أهوى، فغشاها ما غشى)[3] وقوله: (ألا حين يستغشون ثيابهم يعلم ما يسرون وما يعلنون)[4] هذا كله فيه احاطة من كل وجه.

وذكر تعالى انزال النعاس في قوله: (ثم أنزل عليكم من بعد الغم أمنة نعاساً يغشى طائفة منكم)[5] هذا يوم أحد. وقال فى يوم بدر: (إذ يغشيكم النعاس أمنة منه)[6] والنعاس ينزل في الرأس بسبب نزول الابخرة، التى تدخل في الدماغ، فتنعقد فيحصل منها النعاس.

وطائفة من أهل الكلام ـ منهم أبو الحسن الاشعري ومن اتبعه من أصحاب مالك والشافعي وأحمد ـ جعلوا النزول والاتيان والمجيىء حدثاً يحدثه منفصلا عنه، فذاك هو اتيانه واستواؤه على العرش، فقالوا استواؤه فعل يفعله في العرش يصير به مستويا عليه من غير فعل يقوم بالرب،

=== ١٧ واحمد بن حنبل فى المسند ٥:٣٨٣ (حلبى)

٣ ـ الحديث أخرجه ابن ماجة فى المقدمة ٢٢٥ ـ بسنده عن الأعمشى عن أبى صالح عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم وذكره . وأخرجه الامام مسلم فى الذكر ٣٨ ـ ٣٩ وأبو داود فى الصلاة ١٤ والترمذى فى القرآن ١٠ واحمد بن حنبل فى المسند ١:٤٥٣، ٢:٢٥٢، ٢٧٠. ٣١٩ (حلبى)

١ ـ سورة الاعراف آية رقم ٥٤

٢ ـ سورة الاعراف آية رقم ١٨٩

٣ ـ سورة النجم آية رقم ٥٤

٤ ـ سورة هود آية رقم ٥

٥ ـ سورة آل عمران آية رقم ١٥٤

٦ ـ سورة الأنفال آية رقم ١١

لكن أكثر الناس خالفوهم.وقالوا المعروف أنه لا يجيء شيء من الصفات والاعراض الا بمجيء شيء، فاذا قالوا: جاء البرد أو جاء الحر فقد جاء الهواء الذي يحمل الحر والبرد، وهو عين قائمة بنفسها. وإذا قالوا: جاءت الحمى فالحمى حر أو برد تقوم بعين قائمة بسبب أخلاط تتحرك وتتحول من حال الى حال، فيحدث الحر والبرد بذلك، وهذا بخلاف العرض الذي يحدث بلا تحول من حامل، مثل لون الفاكهة، فانه لا يقال في هذا: جاءت الحمرة والصفرة والخضرة، بل يقال: أحمر وأصفر وأخضر. وإذا كان كذلك فانزاله تعالى العدل والسكينة، والنعاس والامانة - وهذه صفات تقوم بالعباد - إنما تكون إذا افضى بها اليهم، فالأعيان القائمة توصف بالنزول، كما توصف الملائكة بالنزول بالوحي والقرآن، فاذا نزل بها الملائكة قيل انها نزلت.

وكذلك لو نزل غير الملائكة، كالهواء الذي نزل بالاسباب، فيحدث الله منه البخار الذي يكون منه النعاس،فكان قد انزل النعاس سبحانه بانزال ما يحمله

وقد ذكر سبحانه انزال الحديد، والحديد يخلق في المعادن.

وما يذكر عن ابن عباس رضي الله عنهما، أن آدم عليه السلام نزل من الجنة ومعه خمسة أشياء من حديد، السندان والكلبتان والمنقعة، والمطرقة، والابرة، فهو كذب لا يثبت مثله.

وكذلك الحديث الذي رواه الثعلبي عن ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم «ان الله أنزل أربع بركات من السماء الى الارض فأنزل الحديد والماء والنار والملح» حديث موضوع مكذوب، في اسناده سيف بن محمد بن أخت سفيان الثوري رحمه الله وهو من الكذابين المعروفين بالكذب.

قال ابن الجوزي:[1] هو سيف بن محمد ابن أخت سفيان الثوري يروي عن الثوري وعاصم الأحوال والاعمش، قال أحمد رحمه الله:هو كذاب يضع الحديث وقال مرة: ليس بشيء وقال يحى:كان كذابا خبيثاً وقال مرة ليس بثقة وقال ابو داود كذاب وقال زكريا الساجي يضع الحديث وقال النسائي: ليس بثقة ولا مأمون وقال الدار قطني ضعيف متروك. والناس يشهدون ان هذه الآلات تصنع من حديد المعادن.فان قيل:ان آدم عليه السلام نزل معه جميع الآلات فهذه مكابرة للعيان.وان قيل بل نزل معه آلة واحدة وتلك لا تعرف فأي فائدة في هذا لسائر الناس؟! ثم ما يصنع بهذه الآلات اذا لم يكن ثم حديد موجود يطرق بهذه الآلات واذا خلق الله الحديد صنعت منه هذه الآلات مع ان المأثور:«ان أول من خط وخاط ادريس عليه السلام» وآدم عليه السلام لم يخط ثوبا فما يصنع بالابرة.

ثم اخبر انه انزل الحديد، فكان المقصود الاكبر بذكر الحديد هو اتخاذ آلات الجهاد منه كالسيف والسنان والنصل وما اشبه ذلك الذي به ينصر الله ورسوله صلى الله عليه وسلم وهذه لم تنزل من السماء.فان قيل نزلت الآلة التى يطبع بها، قيل فالله أخبر انه أنزل الحديد لهذه المعانى المتقدمة والآلة وحدها لا تكفي، بل لابد من مادة يصنع بها آلات الجهاد؛ لكن لفظ النزول

---

١ ـ هو عبد الرحمن بن على بن محمد الجوزى القرش البغدادى أبو الفرج علامة عصره فى التاريخ والحديث كثير التصانيف مولده عام ٥٠٨ هـ ببغداد ووفاته بها عام ٥٩٧ من كتبه: الأذكياء، ومناقب عمر بن عبد العزيز، وروح الأرواح وفنون الأفنان فى عجائب علوم القرآن والمنتظم فى تاريخ الملوك والامم ومناقب عمر بن الخطاب وكتاب الضعفاء والمتروكين، والموضوعات فى الحدث وزاد المسير فى علم التفسير وغير ذلك.

راجع وفيات الأعيان ١:٢٧٩ والبداية والنهاية ١٣:٢٨ ومفتاح السعادة ١:٢٠٧

اشكل على كثير من الناس حتى قال قطرب رحمه الله: معناه جعله نزلا، كما يقال أنزل الأمر على فلان نزلا حسنا أي جعله نزلا. قال ومثله قوله تعالى: (وأنزل لكم من الانعام ثمانية ازواج)[1] وهذا ضعيف؛ فان النزل انما يطلق على ما يؤكل لا على ما يقاتل به قال الله تعالى (فنزل من حميم)[2] والضيافة سميت نزلا لأن العادة ان الضيف يكون راكباً فينزل فى مكان يؤتى اليه بضيافته فيه فسميت نزلا لاجل نزوله ونزل ببني فلان ضيف؛ ولهذا قال نوح عليه السلام: (رب أنزلني منزلا مباركا وأنت خيرالمنزلين)[3] لأنه كان راكباً فى السفينة، وسميت المواضع التى ينزل بها المسافرون منازل لأنهم يكونون ركبانا فينزلون والمشاة تبع للركبان وتسمى المساكن منازل.

وجعل بعضهم نزول الحديد بمعنى الخلق لانه أخرجه من المعادن وعلمهم صنعته، فان الحديد انما يخلق فى المعادن، والمعادن انما تكون فى الجبال، ١ ـ فالحديد ينزله الله من معادنه التى فى الجبال لينتفع به بنو آدم وقال تعالى : (وانزل لكم من الانعام ثمانية أزواج).[4]

وهذا مما اشكل أيضا. فمنهم من قال: جعل، ومنهم من قال: خلق لكونها تخلق من الماء فان به يكون النبات الذي ينزل أصله من السماء وهو الماء، وقال قطرب: جعلناه نزلا. ولا حاجة الى اخراج اللفظ عن معناه المعروف لغة؛ فان الأنعام تنزل من بطون أمهاتها ومن أصلاب آبائها تأتى بطون

---

١ ـ سورة الزمر آية رقم ٦

٢ ـ سورة الواقعة آية رقم ٩٣

٣ ـ سورة المؤمنون آية رقم ٢٩

٤ ـ سورة النحل آية رقم ٨٠

أمهاتها، ويقال للرجل: قد أنزل الماء، واذا انزل وجب عليه الغسل، مع ان الرجل غالب انزاله وهو على جنب اما وقت الجماع، واما بالاحتلام، فكيف بالأنعام التى غالب انزالها مع قيامها على رجليها وارتفاعها على ظهور الاناث؟!

ومما يبين هذا أنه لم يستعمل النزول فيما خلق من السفليات، فلم يقل أنزل النبات ولا انزل المرعى وانما استعمل فيما يخلق فى محل عال وأنزله الله من ذلك المحل كالحديد والأنعام.

وقال تعالى (يابني آدم قد أنزلنا عليكم لباساً يوارى سوآتكم وريشاً)[1] الآية وفيها قراءتان احداهما بالنصب فيكون لباس التقوى أيضاً منزلاً. واما على قراءة الرفع فلا، وكلاهما حق. وقد قيل فيه خلقناه وقيل أنزلنا أسبابه وقيل ألهمناهم كيفية صنعته، وهذه الأقوال ضعيفة؛ فان النبات الذي ذكروا لم يجيء فيه لفظ أنزلنا، ولم يستمل فى كل ما يصنع أنزلنا فلم يقل: أنزلنا الدور وأنزلنا الطبخ ونحو ذلك، وهو لم يقل انا أنزلنا كل لباس ورياش، وقد قيل : ان الريش والرياش المراد به اللباس الفاخر كلاهما بمعنى واحد مثل اللبس واللباس، وقد قيل: هما المال والخصب والمعاش، وارتاش فلان حسنت حالته

والصحيح ان «الريش» هو الاثاث والمتاع، قال ابو عمر والعرب تقول: اعطانى فلان ريشه أي كسوته وجهازه. وقال غيره: الرياش في كلام العرب الاثاث وما ظهر من المتاع والثياب والفرش ونحوها وبعض المفسرين أطلق عليه لفظ المال، والمراد به مال مخصوص، قال ابن زيد: جمالا؛ وهذا لأنه

---

١ ـ سورة الزمر آية رقم ٦

مأخوذ من ريش الطائر وهو ما يروش به ويدفع عنه الحر والبرد وجمال الطائر ريشه، وكذلك ما يبيت فيه الانسان من الفرش وما يبسطه تحته ونحو ذلك، والقرآن مقصوده جنس اللباس الذي يلبس على البدن وفى البيوت كما قال تعالى (والله جعل لكم من بيوتكم سكناً)[1] الآية، فامتن سبحانه عليهم بما ينتفعون به من الانعام فى اللباس والاثاث، وهذا ـ والله أعلم ـ معنى انزاله؛ فانه ينزله من ظهور الانعام، وهو كسوة الانعام من الاصواف والاوبار والاشعار، وينتفع به بنو آدم من اللباس والرياش. فقد أنزلها عليهم، وأكثر اهل الأرض كسوتهم من جلود الدواب فهي لدفع الحر والبرد، وأعظم مما يصنع من القطن والكتان، والله تعالى ذكر فى سورة النحل انعامه على عباده، فذكر فى اول السورة أصول النعم التى لا يعيش بنو آدم إلا بها، وذكر فى أثنائها تمام النعم التى لا يطيب عيشهم إلا بها، فذكر فى أولها الرزق الذي لابد لهم منه، وذكر ما يدفع البرد من الكسوة بقوله: (والانعام خلقها لكم فيها دفء ومنافع ومنها تأكلون)[2] ثم فى اثناء السورة ذكر لهم المساكن والمنافع التى يسكنونها: مساكن الحاضرة والبادية ومساكن المسافرين فقال تعالى: (والله جعل لكم من بيوتكم سكناً)[3] الآية، ثم ذكر انعامه بالظلال التى تقيهم الحر والبأس فقال: (الله جعل لكم مما خلق ظلالا وجعل لكم من الجبال اكنانا)، الى قوله: (كذلك يتم نعمته عليكم لعلكم تسلمون).[4]

---

١ ـ سورة الأعراف آية رقم ٦

٢ ـ سورة النحل آية رقم ٥

٣ ـ سورة النحل آية رقم ٨٠

٤ ـ سورة النحل آية رقم ٨٠

ولم يذكر هنا ما بقي من البرد، لأنه قد ذكره فى أول السورة، وذلك فى اصول النعم؛ لان البرد يقتل فلا يقدر أحد ان يعيش فى البلاد الباردة بلا دفء بخلاف الحر فانه أذى، لكنه لا يقتل كما يقتل البرد، فان الحر قد يتقى بالظلال واللباس وغيرهما، وأهله ايضاً لا يحتاجون إلى وقاية كما يحتاج اليه البرد؛ بل أدنى وقاية تكفيهم وهم في الليل وطرفى النهار لا يتأذون به تأذياً كثيراً بل لا يحتاجون إليه أحياناً حاجة قرية فجمع بينهما فى قوله(سرابيل تقيكم الحروسرابيل تقيكم بأسكم)ولا حذف فى اللفظ ولا قصور فى المعنى كما يظنه من لم يحسن تحقيق معنى القرآن بل لفظه أتم لفظ، ومعناه أكمل المعانى، فإذا كان اللباس والرياش ينزل من ظهور الأنعام وكسوة الأنعام منزلة من الأصلاب والبطون كما تقدم فهو منزل من الجهتين فإنه على ظهور الأنعام لا ينتفع به بنو آدم حتى ينزل.

فقد تبين أنه ليس فى القرآن ولا فى السنة لفظ نزول إلا وفيه معنى النزول المعروف وهذا هو اللائق بالقرآن فإنه نزل بلغة العرب ولا تعرف العرب نزولاً إلا بهذا المعنى ولو أريد غير هذا المعنى لكان خطاباً بغير لغتها، ثم هو استعمال اللفظ المعروف له معنى آخر بلا بيان وهذا لا يجوز بما ذكرنا، وبهذا يحصل مقصودا القرآن واللغة الذى أخبر الله تعالى أنه بينه وجعله هدى للناس وليكن هذا آخره.

والحمد لله وحده، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين وسلم تسليماً كثيراً.

فصـــل

في عدم التعارض بين قوله (حتى يسمع كلام الله) وقوله (إنه لقول رسول كريم)

وسئل شيخ الاسلام
رحمه الله

عن قوله تعالى: (وان احد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله)[1] فسماه هنا كلام الله، وقال في مكان آخر: (انه لقول رسول كريم)[2] فما معنى ذلك؟ فان طائفة ممن يقول بالعبارة يدعون ان هذا حجة لهم، ثم يقولون: انتم تعتقدون ان موسى ـ صلوات الله عليه ـ سمع كلام الله عز وجل حقيقة من الله من غير واسطة، وتقولون: ان الذي تسمعونه كلام الله حقيقة، وتسمعونه من وسائط باصوات مختلفة، فما الفرق بين هذا وهذا؟ وتقولون: إن القرآن صفة لله تعالى، وان صفات الله تعالى قديمة؛ فان قلتم ان هذا نفس كلام الله تعالى فقد قلتم بالحلول وانتم تكفرون الحلولية والاتحادية، وان قلتم: غير ذلك قلتم بمقالتنا، ونحن نطلب منكم في ذلك جوابا نعتمد عليه ان شاء الله تعالى.

فأجاب: الحمد لله رب العالمين. هذه الآية حق كما ذكر الله، وليست احدى الآيتين معارضة للأخرى بوجه من الوجوه، ولا في واحدة منهما حجة لقول

---

١ ـ سورة التوبة آية رقم ٦

٢ ـ سورة التكوير آية رقم ١٩

باطل، وان كان كل من الآيتين قد يحتج بها بعض الناس على قول باطل، وذلك ان قوله: (وان احد من المشتركين استجارك فاجره حتى يسمع كلام الله)[1] فيه دلالة على انه يسمع كلام الله من التالي المبلغ، وان ما يقرؤه المسلمون هو كلام الله، كما في حديث جابر في السنن: «ان النبي صلى الله عليه وسلم كان يعرض نفسه على الناس في الموقف ويقول: الا رجل يحملني إلى قومه لا بلغ كلام ربي؟ فان قريشا منعوني ان بلغ كلام ربي»[2] وفي حديث ابي بكر الصديق رضي الله عنه انه لما خرج على المشركين فقرأ عليهم: (الم غلبت الروم في ادنى الارض وهم من بعد غلبهم سيغلبون)[3] قالوا له هذا كلامك أم كلام صاحبك؟ فقال: ليس بكلامي ولا بكلام صاحبي؛ ولكنه كلام الله.

وقد قال تعالى: (ذرني ومن خلقت وحيداً، وجعلت له مالا ممدودا، وبنين شهودا، ومهدت له تمهيداً، ثم يطمع ان ازيد، كلا انه كان لآياتنا عنيداً، سارهقه صعودا، انه فكر وقدر، فقتل كيف قدر، ثم قتل كيف قدر، ثم نظر، ثم عبس وبسر، ثم ادبر واستكبر، فقال: ان هذا الاسحر يؤثر، ان هذا الاقول البشر»[4] فمن قال: ان هذا القرآن قول البشر كان قوله الوحيد الذي أصلاه الله سقر. ومن المعلوم لعامة العقلاء أن من بلغ كلام غيره كالمبلغ لقول النبي صلى الله عليه وسلم: «إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرىء ما نوى»[5] إذا

١ ـ سورة التوبة آية رقم ٦
٢ ـ سبق تخريج هذا الحديث
٣ ـ سورة الروم آية رقم ١
٤ ـ سورة المدثر الآيات من ١١ ـ ٢٥
٥ ـ سبق تخريج هذا الحديث

سمعه الناس من المبلغ قالوا: هذا حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهذا كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولو قال المبلغ هذا كلامي وقولي لكذبه الناس لعلمهم بأن الكلام كلام لمن قاله مبتدئاً منشئاً؛ لا لمن أداه روايا مبلغاً. فاذا كان مثل هذا معلوماً فى تبليغ كلام المخلوق فكيف لا يعقل فى تبليغ كلام الخالق الذي هو أولى ان لا يجعل كلاماً لغير الخالق جل وعلا؟!.

وقد أخبر تعالى بأنه منزل منه فقال: (والذين آتيناهم الكتاب يعلمون انه منزل من ربك بالحق)[1] وقال: (حم تنزيل من الرحمن الرحيم)[2] (حم تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم)[3]. فجبريل رسول الله من الملائكة جاء به الى رسول الله صلى الله عليه وسلم من البشر، والله يصطفى من الملائكة رسلاً ومن الناس، وكلاهما مبلغ له، كما قال: (يا أيها الرسول بلغ ما أنزل اليك من ربك)[4] وقال: (إلا من ارتضى من رسول فانه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصداً، ليعلم ان قد أبلغوا رسالات ربهم)[5] وهو مع هذا كلام الله ليس لجبريل ولا لمحمد فيه إلا التبليغ والأداء، كما ان المعلمين له فى هذا الزمان والتالين له فى الصلاة أو خارج الصلاة ليس لهم فيه إلا ذلك لم يحدثوا شيئاً من حروفه ولا معانيه قال الله تعالى: (فاذا قرأت القرآن

---

١ ـ سورة الأنعام آية رقم ١١٤

٢ ـ سورة فصلت آية رقم ١ ـ ٢

٣ ـ سورة الجاثية آية رقم ١ ـ ٢

٤ ـ سورة المائدة آية رقم ٦٧

٥ ـ سورة الجن آية رقم ٢٧ ـ ٢٨

فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم)[1] الى قوله:(واذا بدلنا آية مكان آية ـ والله أعلم بما ينزل ـ قالوا: إنما أنت مفتر؛ بل اكثرهم لا يعلمون، قل نزله روح القدس من ربك بالحق ليثبت الذين آمنوا وهدى وبشرى للمسلمين، ولقد نعلم انهم يقولون إنما يعلمه بشر، لسان الذي يلحدون إليه أعجمي، وهذا لسان عربي مبين)[2].

كان بعض المشركين يزعم ان النبى صلى الله عليه وسلم تعلمه من بعض الأعاجم الذين بمكة اما عبد ابن الحضرمي واما غيره، كما ذكر ذلك المفسرون فقال تعالى: (لسان الذي يلحدون إليه ـ أي يضيفون اليه التعليم لسان ـ أعجمي وهذا لسان عربي مبين)[3] فكيف يتصور ان يعلمه أعجمي وهذا الكلام عربي؟ وقد أخبر أنه نزله روح القدس من ربك بالحق، فهذا بيان ان هذا القرآن العربي الذي تعلمه من غيره لم يكن هو المحدث لحروفه ونظمه؛ إذ يمكن لو كان كذلك ان يكون تلقى من الأعجمي معانيه وألف هو حروفه، وبيان ان هذا الذي تعلمه من غيره نزل به روح القدس من ربك بالحق يدل على ان القرآن جميعه منزل من الرب سبحانه وتعالى لم ينزل معناه دون حروفه.

ومن المعلوم أن من بلغ كلام غيره كمن بلغ كلام النبى صلى الله عليه وسلم أو غيره من الناس أو أنشد شعر غيره كما لو أنشد منشد قول

---

١ ـ سورة النحل آية رقم ٩٨

٢ ـ سورة النحل آية رقم ١٠١ ـ ١٠٣

٣ ـ الآية السابقة من سورة النحل

لبيد:[1] ألا كل شيء ما خلا الله باطل

أو قول عبد الله بن رواحة حيث قال:

شهدت بأن وعد الله حق وان النار مثوى الكافرينا

وان العرش فوق الماء طاف وفوق العرش رب العالمينا

أو قوله:

وفينا رسول الله يتلو كتابه اذا انشق معروف من الفجر ساطع

يبيت يجافى جنبه عن فراشه اذا استثقلت بالمشركين المضاجع

أرانا الهدى بعد العمي فقلوبنا به موقنات أن ما قال واقع

وهذا الشعر قاله لفظه ومعناه، وهو كلامه لا كلام غيره بحركته وصوته ومعناه القائم بنفسه، ثم اذا أنشده المنشد وبلغه عنه علم انه شعر ذلك المنشيء وكلامه ونظمه وقوله، مع ان هذا الثاني أنشده بحركة نفسه وصوت نفسه، وقام بقلبه من المعنى نظير ما قام بقلب الأول وليس الصوت المسموع من المنشد هو الصوت المسموع من المنشيء والشعر شعر المنشىء لا شعر المنشد ـ والمحدث عن النبى صلى الله عليه وسلم اذا روى قوله « إنما

---

١ ـ هو لبيد بن ربيعه بن مالك أبو عقيل العامرى، أحد الشعراء الفرسان الاشراف فى الجاهلية من أهل عاليه نجد أدرك الاسلام ووفد على النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وكان من المؤلفة قلوبهم ـ وترك الشعر فلم يقل فى الاسلام الابيتاً واحداً قيل هو.

ما عاتب المرء الكريم كنفسه ... والمرء يصلحه الجليس الصالح

وسكن الكوفة،وعاش عمراً طويلاً وهو أحد أصحاب المعلقات له ديوان صغير توفى عام ٤١هـ

راجع خزانة الأدب للبغدادى ١:٣٣٧ ـ ٣٣٩ والشعر والشعراء ٢٣١ ـ ٢٤٣

الأعمال بالنيات» بلغه بحركته وصوته، مع ان النبى صلى الله عليه وسلم تكلم به بحركته وصوته، وليس صوت المبلغ صوت النبى صلى الله عليه وسلم، ولا حركته كحركته، والكلام كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم لا كلام المبلغ له عنه.

فاذا كان هذا معلوماً معقولاً فكيف لا يعقل ان يكون ما يقرأ القارىء اذا قرأ (الحمد لله رب العالمين، الرحمن الرحيم، مالك يوم الدين) ان يقال هذا الكلام كلام الباري، وان كان الصوت صوت القارىء. فمن ظن ان الأصوات المسموعة من القراء صوت الله فهو ضال مفتر مخالف لصريح المعقول وصحيح المنقول قائل قولاً لم يقله أحد من أئمة المسلمين؛ بل قد أنكر الامام أحمد وغيره على من قال: لفظي بالقرآن غير مخلوق وبدعوه، كما جهموا من قال: لفظي بالقرآن مخلوق.[1] وقالوا القرآن كلام الله غير مخلوق كيف تصرف، فكيف من قال لفظي به قديم أو صوتي به قديم ؟ فابتداع هذا وضلاله أوضح . فمن قال ان لفظه بالقرآن غير مخلوق أو صوته أو فعله أو شيأ من ذلك فهو ضال مبتدع.

وهؤلاء قد يحتجون بقوله (حتى يسمع كلام الله) ويقولون هذا كلام الله وكلام الله غير مخلوق فهذا غير مخلوق، ونحن لا نسمع إلا صوت القاري. وهذا جهل منهم، فان سماع كلام الله، بل وسماع كل كلام يكون تارة من المتكلم به بلا واسطة، ويكون بواسطة الرسول المبلغ له قال تعالى:

---

١ - راجع ما كتبه الامام البخارى بشأن هذه القضية فى كتابه «خلق أفعال العباد» ومقدمة هذا الكتاب بتحقيقنا ط دار عكاظ: المملكة العربية السعودية عام ١٩٨٠م

(وما كان لبشر أن يكلمه الله الا وحيا أو من وراء حجاب، أو يرسل رسولا فيوحي باذنه ما يشاء)[1]

ومن قال: ان الله كلمنا بالقرآن كما كلم موسى بن عمران، أو انا نسمع كلامه كما سمعه موسى بن عمران فهو من أعظم الناس جهلا وضلالا، ولو قال قائل: انا نسمع كلام النبى صلى الله عليه وسلم كما سمعه الصحابة منه لكان ضلاله واضحاً، فكيف من يقول انا أسمع كلام الله منه كما سمعه موسى؟! وان كان الله كلم موسى تكليما بصوت سمعه موسى فليس صوت المخلوقين صوتاً للخالق. وكذلك مناداته لعباده بصوت يسمعه من بعد كما يسمعه من قرب، وتكلمه بالوحي حتى يسمع أهل السموات والارض صوته كجر السلسلة على الصفا، وامثال ذلك مما جاءت به النصوص والآثار كلها ليس فيها ان صفة المخلوق هي صفة الخالق؛ بل ولامثلها بل فيها الدلالة على الفرق بين صفة الخالق وبين صفة المخلوق فليس كلامه مثل كلامه، ولا معناه مثل معناه، ولا حرفه مثل حرفه، ولا صوته مثل صوته، كما انه ليس علمه، ولا قدرته مثل قدرته، ولا سمعه مثل سمعه، ولا بصره مثل بصره، فان الله ليس كمثله شيء لا في ذاته ولا في صفاته ولا فى أفعاله.

ولما استقر فى فطر الخلق كلهم الفرق بين سماع الكلام من المتكلم به ابتداء وبين سماعه من المبلغ عنه كان ظهور هذا الفرق في سماع كلام الله من المبلغين عنه اوضح من ان يحتاج الى الاطناب. وقد بين أئمة السنة والعلم - كالامام احمد والبخاري صاحب الصحيح فى كتابه فى خلق الافعال وغيرهما

١ - سورة الشورى آية رقم ٥١

من أئمة السنة ـ من الفرق بين صوت الله المسموع منه وصوت العباد بالقرآن وغيره مالا يخالفهم فيه أحد من العلماء اهل العقل والدين.

فصـــل

فى بيان قوله (انه لقول رسول كريم)

واما قوله تعالى (انه لقول رسول كريم)[1] فهذا قد ذكره فى موضعين. فقال فى الحاقة (انه لقول رسول كريم، وما هو بقول شاعر قليلا ما تؤمنون، ولا بقول كاهن قليلا ما تذكرون)[2] فالرسول هنا محمد صلى الله عليه وسلم وقال فى التكوير: (إنه لقول رسول كريم، ذي قوة، عند ذي العرش مكين، مطاع ثم امين، وما صاحبكم بمجنون، ولقد رآه بالافق المبين)[1] فالرسول هنا جبريل فأضافه الى الرسول من البشر تارة، والى الرسول من الملائكة تارة، باسم الرسول، ولم يقل: انه لقول ملك ولا نبى، لان لفظ الرسول يبين انه مبلغ عن غيره لا منشىء له من عنده (وما على الرسول الا البلاغ المبين)[2] فكان قوله: (انه لقول رسول كريم) بمنزلة قوله لتبليغ رسول، او مبلغ من رسول كريم، أو جاء به رسول كريم، أو مسموع عن رسول كريم؛ وليس معناه انه انشأه أو أحدثه أو أنشأ شيئاً منه أو أحدثه رسول كريم إذ لو كان منشئاً لم يكن رسولا فيما أنشأه وابتدأه وإنما يكون رسولا فيما بلغه وأداه، ومعلوم أن الضمير عائد الى القرآن مطلقاً.

و (أيضاً) فلو كان احد الرسولين أنشأ حروفه ونظمه امتنع ان يكون

---

١ ـ ٢ ـ سورة الحاقة آية رقم ٤٠ ـ ٤٢

الرسول الآخر هو المنشيء المؤلف لها، فبطل ان تكون اضافته الى الرسول لاجل احداث لفظه ونظمه. ولو جاز ان تكون الاضافة هنا لاجل احداث الرسول له أو لشيء منه لجاز ان تقول انه قول البشر، وهذا قول الوحيد الذي أصلاه الله سقر.

فان قال قائل: فالوحيد جعل الجميع قول البشر، ونحن نقول إن الكلام العربي قول البشر، وأما معناه فهو كلام الله.

فيقال لهم: هذا نصف قول الوحيد، ثم هذا باطل من وجوه أخرى.

وهو ان معانى هذا النظم معان متعددة متنوعة، وأنتم تجعلون ذلك المعنى واحداً هو الامر والنهي والخبر والاستخبار، وتجعلون ذلك المعنى إذا عبر عنه بالعربية كان قرآناً. وإذا عبر عنه بالعبرانية كان توراة، وإذا عبر عنه بالسريانيه كان انجيلا، وهذا مما يعلم بطلانه بالضرورة من العقل والدين؛ فان التوراة إذا عربناها لم يكن معناها معنى القرآن، والقرآن إذا ترجمناه بالعبرانية لم يكن معناه معنى التوراة.

و (ايضاً) فان معنى آية الكرسي ليس هو معنى آية الدين، وإنما يشتركان فى مسمى الكلام، ومسمى كلام الله، كما تشترك الاعيان في مسمى النوع، فهذا الكلام وهذا الكلام وهذا الكلام كله يشترك فى انه كلام الله اشتراك الاشخاص فى أنواعها، كما ان الانسان وهذا الانسان يشتركون

---

١ ـ سورة التكوير آية رقم ١٩ ـ ٢٣

٢ ـ سورة العنكبوت آية رقم ١٨ وصدر الآية (وإن تكذبوا فقد كذب أمم من قبلكم وما على الرسول إلا البلاغ المبين

في مسمى الانسان وليس في الخارج شخص بعينه هو هذا وهذا وهذا، وكذلك ليس في الخارج كلام واحد هو معنى التوراة والانجيل والقرآن وهو معنى آية الدين وآية الكرسي.

ومن خالف هذا كان في مخالفته لصريح المعقول من جنس من قال: إن اصوات العباد وافعالهم قديمة أزلية. فاضرب بكلام البدعتين رأس قائلهما، والزم الصراط المستقيم: صراط الذين انعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين.

وبسبب هاتين البدعتين الحمقاوين ثارت الفتن وعظمت الاحن، وإن كان كل من أصحاب القولين قد يفسرونهما بما قد يلتبس على كثير من الناس كما فسر من قال: ان الصوت المسموع من العبد أو بعضه قديم: أن القديم ظهر في المحدث من غير حلول فيه.

وأما «أفعال العباد» فرأيت بعض المتأخرين يزعم أنها قديمة خيرها وشرها، وفسر ذلك بان الشرع قديم والقدر قديم، وهي مشروعة مقدرة ولم يفرق بين الشرع الذي هو كلام الله والمشروع الذي هو المأمور به والمنهى عنه، ولم يفرق بين القدر الذى هو علم الله وكلامه وبين المقدور الذي هو مخلوقاته. والعقلاء كلهم يعلمون بالاضطرار ان الأمر والخبر نوعان للكلام لفظه ومعناه، ليس الأمر والخبر صفات لموصوف واحد ـ فمن جعل الأمر والنهي والخبر صفات للكلام لا أنواعاً له فقد خالف ضرورة العقل؛ وهؤلاء في هذا بمنزلة من زعم ان الوجود واحد؛ إذ لم يفرق بين الواحد بالنوع والواحد بالعين؛ فان انقسام «الموجود» الى القديم، والمحدث، والواجب

والممكن، والخالق والمخلوق، والقائم بنفسه والقائم بغيره، كانقسام «الكلام» إلى الأمر والخبر، وإلى الانشاء والاخبار، او الى الأمر والنهي والخبر - فمن قال الكلام معنى واحد هو الأمر والخبر فهو كمن قال الوجود واحد هو الخالق والمخلوق، أو الواجب والممكن. وكما ان حقيقة هذا تؤل إلى تعطيل الخالق فحقيقة هذا تؤل إلى تعطيل كلامه وتكليمه.

وهذا حقيقة قول فرعون الذي انكر الخالق وتكليمه لموسي؛ ولهذا آل الامر بمحقق هؤلاء الى تعظيم فرعون وتوليه وتصديقه فى قوله: (أنا ربكم الأعلى)[1] بل إلى تعظيمه على موسى والى الاستحقار بتكليم الله لموسى كما بسط فى غير هذا الموضع.

(وأيضاً) فيقال: ما تقول فى كلام كل متكلم إذا نقله عنه غيره - كما قد ينقل كلام النبى صلى الله عليه وسلم والصحابة والعلماء والشعراء وغيرهم ويسمع من الرواة او المبلغين - إن ذلك المسموع من المبلغ بصوت المبلغ هو كلام المبلغ كلام المبلغ عنه؟ فان قال: كلام المبلغ لزم ان يكون القرآن كلاما لكل من سمع منه فيكون القرآن المسموع كلام الف الف قارىء لا كلام الله تعالى، وان يكون قوله: «إنما الاعمال بالنيات»[2] ونظائره كلام كل من

---

١ - سورة النازعات آية رقم ٢٤

٢ - الحديث أخرجه ابن ماجة فى كتاب الزهد ٢٦ باب النية ٤٢٢٧ أنبأنا الليث بن سعد قال: أنبأنا يحيى بن سعيد أن محمد بن ابراهيم التيمى أخبره أنه سمع علقمة ابن وقاص أنه سمع عمر بن الخطاب - وهو يخطب الناس فقال سمعت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول وذكره.

وأخرجه البخارى فى بدء الوحى ١ وكتاب الايمان ٤١ ورواه الامام مسلم فى كتاب الامارة ١٥٥ وأبو داود فى كتاب الطلاق ١١ والترمذى فى فضائل الجهاد ١٦ واحمد بن حنبل فى المسند ١:٢٥، ٥٣ (حلبى)

رواه لا كلام الرسول وحينئذ فلا فضيلة للقرآن فى (إنه لقول رسول كريم) فانه على قول هؤلاء قول كل منافق قرأه، والقرآن يقرؤه المؤمن والمنافق كما فى الصحيحين عنه صلى الله عليه وسلم انه قال: «مثل المؤمن الذى يقرأ القرآن مثل الأترجة طعمها طيب وريحها طيب، ومثل المؤمن الذي لا يقرأ القرآن مثل التمرة طعمها طيب ولا ريح لها؛ ومثل المنافق الذي يقرأ القرآن مثل الريحانة ريحها طيب وطعمها مر، ومثل المنافق الذي لا يقرأ القرآن مثل الحنظلة طعمها مر ولا ريح لها»[1] وعلى هذا التقدير فلا يكون القرآن قول بشر واحد بل قول ألف ألف بشر واكثر من ذلك. وفساد هذا في العقل والدين واضح.

وإن قال: كلام المبلغ عنه علم أن الرسول المبلغ للقرآن ليس القرآن كلامه ولكنه كلام الله؛ ولكن لما كان الرسول الملك قد يقال إنه شيطان بين الله أنه تبليغ ملك كريم؛ لا تبليغ شيطان رجيم؛ ولهذا قال: (إنه لقول رسول كريم، ذي قوة، عند ذي العرش مكين) إلى قوله: (وما هو بقول شيطان رجيم)[2]. وبين فى هذه الآية أن الرسول البشرى الذى صحبناه وسمعناه منه ليس بمجنون، وما هو على الغيب بمتهم. وذكره بأسم «الصاحب» لما فى ذلك من النعمة به علينا إذ كنا لا نطيق أن نتلقى إلا عمن صحبناه وكان من

---

١ - الحديث أخرجه الامام مسلم فى كتاب صلاة المسافرين ٢٤٣ (٧٩٧) عن قتادة عن أنس عن أبى موسى الأشعرى، قال: قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وذكره. وأخرجه البخارى فى كتاب الأطعمه. ٣ وفضائل القرآن ١٧ والترمذى فى كتاب الأدب ٧٦ وابن ماجه فى المقدمة ١٦ والدارمى فى فضائل القرآن ٨ وأحمد بن حمبل فى المسند ٤:٣٩٧ (حلبى)

٢ - سورة التكوير الآيات رقم ١٩ ـ ٢٥

جنسنا، كما قال تعالى (لقد جاءكم رسول من أنفسكم)[1] وقال (ولو جعلناه ملكاً لجعلناه رجلاً. وللبسنا عليهم ما يلبسون)[2] كما قال فى الآية الآخرى: (والنجم إذا هوى ما ضل صاحبكم وما غوى)[3] وبين أن الرسول الذى من أنفسنا والرسول الملكى إنهما مبلغان فكان فى هذا تحقيق إنه كلام الله.

فلما كان الرسول البشرى يقال: إنه مجنون أو مفتر نزهه عن هذا وهذا، وكذلك في السورة الآخرى قال: (إنه لقول رسول كريم، وما هو بقول شاعر قليلا ما تؤمنون، ولا بقول كاهن قليلا ما تذكرون تنزيل من رب العالمين)[4] وهذا مما يبين إنه إضافه إليه لأنه بلغه وأداه لا لأنه أحدثه وأنشأه، فإنه قال: (وإنه لتنزيل رب العالمين نزل به الروح الأمين)[5]فجمع بين قوله: (إنه لقول رسول كريم) وبين قوله: (وإنه لتنزيل رب العالمين) والضميران عائدان إلى واحد، فلو كان الرسول أحدثه وأنشأه لم يكن تنزيلا من رب العالمين؛ بل كان يكون تنزيلا من الرسول. ومن جعل الضمير فى هذا عائداً إلى غير ما يعود إليه الضمير الآخر مع إنه ليس فى الكلام ما يقتضى إختلاف الضميرين، ومن قال أن هذا عبارة عن كلام الله ـ فقل له: هذا الذى تقرؤه أهو عبارة عن العبارة التى أحدثها الرسول الملك أو البشر

---

١ ـ سورة التوبة آية رقم ١٢٨

٢ ـ سورة الأنعام آية رقم ٩

٣ ـ سورة النجم ١ ـ ٢

٤ ـ سورة الحاقة الآيات من ٤٠ ـ ٤٣

٥ ـ سورة الشعراء آية رقم ١٩٢ ـ ١٩٣

على زعمك؟ أم هو نفس تلك العبارة؟ فإن جعلت هذا عبارة عن تلك العبارة جاز أن تكون عبارة جبريل أو الرسول عبارة عن عبارة الله، وحينئذ فيبقى النزاع لفظيا؛ فإنه متى قال أن محمدا سمعه من جبريل جميعه وجبريل سمعه من الله جميعه، والمسلمون سمعوه من الرسول جميعه، فقد قال الحق - وبعد هذا فقوله عبارة لأجل التفريق بين التبليغ والمبلغ عنه كما سنبينه.

وإن قلت: ليس هذا عبارة عن تلك العبارة، بل هو نفس تلك العبارة فقد جعلت ما يسمع من المبلغ هو بعينه ما يسمع من المبلغ عنه إذ جعلت هذه العبارة هي بعينها عبارة جبريل فحينئذ هذا يبطل أصل قولك.

وأعلم أن أصل القول بالعبارة «أن أبا محمد عبد الله بن سعيد بن كلاب»[1] هو أول من قال في الإسلام: إن معنى القرآن كلام الله. وحروفه ليست كلام الله، فأخذ بنصف قول المعتزلة ونصف قول أهل السنة والجماعة، وكان قد ذهب إلى أثبات الصفات لله تعالى، وخالف المعتزلة في ذلك، وأثبت العلو لله على العرش ومباينته المخلوقات، وقرر ذلك تقريراً هو أكمل من تقرير أتباعه بعده. وكان الناس قد تكلموا فيمن بلغ كلام غيره هل يقال له حكاية عنه أم لا؟ وأكثر المعتزلة قالوا: هو حكاية عنه، فقال ابن كلاب: القرآن العربي حكاية عن كلام الله؛ ليس بكلام الله.

فجاء بعده «أبو الحسن الأشعري»[2] فسلك مسلكه في إثبات أكثر

---

١ - هو أبو محمد عبد الله بن سعيد بن كلاب توفى بعد سنة ٢٤٠ راجع لسان الميزان ٣: ٢٩٠-٢٩١ وطبقات الشافعية ٢: ٥١ ومقالات الأسلاميين ١: ٣٢٥ والخطط للمقريزى ٢: ٣٥٨ ونهاية الأقدام ١٨١ والملل والنحل ١: ٥٨٥

٢ - هو على بن إسماعيل بن إسحاق أبو الحسن من نسل الصحابى أبى موسى الأشعرى ===

الصفات وفى مسألة القرآن أيضاً، وأستدرك عليه قوله ان هذا حكاية، وقال: الحكاية إنما تكون مثل المحكي فهذا يناسب قول المعتزله؛ وإنما يناسب قولنا أن نقول هو عبارة عن كلام الله؛ لأن الكلام ليس من جنس العبارة، فأنكر أهل السنة والجماعة عليهم عدة أمور.

(أحدها) قولهم: أن المعنى كلام الله وأن القرآن العربي ليس كلام الله، وكانت المعتزلة تقول: هو كلام الله وهو مخلوق، فقال: هؤلاء هو مخلوق وليس بكلام الله؛ لأن من أصول أهل السنة أن الصفة إذا قامت بمحل عاد حكمها على ذلك المحل، فإذا قام الكلام بمحل كان هو المتكلم به كما أن العلم والقدرة إذا قاما بمحل كان هو العالم القادر وكذلك «الحركة». وهذا مما أحتجوا به على المعتزلة وغيرهم من الجهمية فى قولهم: إن كلام الله مخلوق خلقه فى بعض الأجسام ـ قالوا لهم لو كان كذلك لكان الكلام كلام ذلك الجسم الذي خلقه فيه فكانت الشجرة هي القائلة: (إنى أنا الله رب العالمين)[1] فقال أئمة الكلابية إذا كان القرآن العربي مخلوقاً لم يكن كلام الله فقال طائفة من متأخريهم: بل تقول الكلام مقول بالاشتراك بين المعنى المجرد وبين الحروف المنظومة، فقال لهم المحققون: فهذا يبطل أصل حجتكم على المعتزلة؛ فانكم إذا سلمتم أن ما هو كلام الله حقيقة لا يمكن قيامه به بل بغيره أمكن المعتزلة ان يقولوا ليس كلامه الا ما خلقه فى غيره.

=== توفى عام ٣٢٤ هـ. راجع طبقات الشافعية ٢:٢٤٥ والمقريزى ٢:٣٥٩ وابن خلكان ١:٣٢٦ والبداية والنهاية ١١:١٨٧

١ ـ سورة القصص آية رقم ٣٠ وصدر الآية: فلما آتاها نودى من شاطىء الواد الأيمن فى البقعة المباركة من الشجرة أن يا موسى

(الثاني) قولهم: ان ذلك المعنى هو الأمر والنهي والخبر، وهو معنى التوراة، والانجيل والقرآن، وقال أكثر العقلاء: هذا الذي قالوه معلوم الفساد بضرورة العقل.

(الثالث) ان ما نزل به جبريل من المعنى واللفظ وما بلغه محمد لأمته من المعنى واللفظ ليس هو كلام الله.

و «مسألة القرآن» لها طرفان (احدهما) تكلم الله به وهو أعظم الطرفين (والثاني) تنزيله الى خلقه والكلام في هذا سهل بعد تحقيق الأول. وقد بسطنا الكلام في ذلك في عدة مواضع، وبينا مقالات أهل الأرض كلهم في هذه المسائل، وما دخل في ذلك من الاشتباه، ومأخذ كل طائفة، ومعنى قول السلف: القرآن كلام الله غير مخلوق، وأنهم قصدوا به ابطال قول من يقول: ان الله لم يقم بذاته كلام؛ ولهذا قال الأئمة كلام الله من الله ليس ببائن عنه، وذكرنا اختلاف المنتسبين الى السنة هل يتعلق الكلام بمشيئته وقدرته ام لا؟ وقول من قال من أئمة السنة لم يزل الله متكلماً إذا شاء، وأن قول السلف منه بدأ لم يريدوا به انه فارق ذاته وحل في غيره؛ فان كلام المخلوق، بل وسائر صفاته لا تفارقه وتنتقل إلى غيره فكيف يجوز أن يفارق ذات الله كلامه أو غيره من صفاته؟! بل قالوا: منه بدأ. أي: هو المتكلم به رداً على المعتزلة والجهمية وغيرهم الذين قالوا بدأ من المخلوق الذي خلق فيه. وقولهم: اليه يعود. أي: يسرى عليه فلا يبقى في المصاحف منه حرف ولا في الصدور منه آية.

والمقصود هنا الجواب عن مسائل السائل.

فصــــل

في سماع موسى كلام الله منه حقيقة

وأما قول القائل: أنتم تعتقدون ان موسى سمع كلام الله منه حقيقة من غير واسطة، وتقولون ان الذي تسمعونه كلام الله حقيقة وتسمعونه من وسائط بأصوات مختلفة فما الفرق بين ذلك؟

فيقال له بين هذا وهذا من الفرق أعظم مما بين القدم والفرق. فان كل عاقل يفرق بين سماع كلام النبى صلى الله عليه وسلم منه بغير واسطة - كسماع الصحابة منه - وبين سماعه منه بواسطة المبلغين عنه كأبي هريرة[1]

وأبي سعيد وابن عمر[2] وابن عباس، وكل من السامعين سمع كلام النبى صلى الله عليه وسلم حقيقة، وكذلك من سمع شعر حسان بن ثابت أو عبد الله بن رواحة [3] أو غيرهما من الشعراء منه بلا واسطة ومن سمعه من الرواة

---

١ - هو عبد الرحمن بن صخر الدوسي الملقب بأبى هريرة - صحابى كان اكثر الصحابة حفظاً للحديث،ورواية له: نشأ يتيماً ضعيفاً فى الجاهلية وقدم المدينة ورسول الله - صلى الله عليه وسلم - بخيبر فأسلم سنة ٧ هـ ولزم صحبة النبى - فروى عنه ٥٣٧٤ حديثاً - ولما صارت الخلافة الى عمر استعمله على البحرين توفى عام ٥٩ هـ

راجع الاصابة ت ١١٧٩ وصفة الصفوة ١:٢٨٥ وحلية الأولياء ١:٣٧٦

٢ - هو عبد الله بن عمر بن الخطاب أبو عبد الرحمن صحابى من أعز بيوتات قريش فى الجاهلية كان جرئياً جهراً، نشأ فى الاسلام وهاجر الى المدينة مع ابيه وشهد فتح مكة ومولده ١٠ ق . هـ بمكة أفتى الناس فى الاسلام ستين سنة ولما قتل عثمان عرض عليه نفر أن يبايعوه بالخلافة فأبى وغزا افريقيا مرتين توفى عام ٧٣ هـ

٣ - هو عبد الله بن رواحة بن ثعلبة الأنصارى من الخزرج أبو محمد، صحابى يعد من الأمراء والشعراء والراجزين كان يكتب فى الجاهلية ، وشهد العقبة مع السبعين من الأنصار وكان أحد ==

عنه يعلم الفرق بين هذا وهذا، وهو فى الموضعين شعر حسان لا شعر غيره، والإنسان إذا تعلم شعر غيره فهو يعلم أن ذلك الشاعر أنشأ معانيه ونظم حروفه بأصواته المقطعه وإن كان المبلغ يرويه بحركة نفسه وأصوات نفسه.

والتقييد، فإذا وصل بالكلام ما يغير معناه كالشريط والإستثناء ونحوهما من التخصصات المتصله كقوله: (ألف سنة إلا خمسين عاما)[1] كان هذا المجموع دالا على تسعمائة وخمسين سنة بطريق الحقيقة عند جماهير الناس.

ومن قال إن هذا مجاز فقد غلط؛ فإن هذا المجموع لم يستعمل فى غير موضعه وما يقترن باللفظ من القرائن اللفظية الموضوعة هى من تمام الكلام؛ ولهذا لا يحتمل الكلام معها معنيين ولا يجوز نفى مفهومهما بخلاف إستعمال لفظ الأسد فى الرجل الشجاع مع أن قول القائل: هذا اللفظ حقيقة، وهذا مجاز نزاع لفظى، وهو مستند من أنكر المجاز فى اللغة أو فى القرآن ولم ينطق بهذا أحد من السلف والأئمة، ولم يعرف لفظ المجاز فى كلام أحد من الأئمة إلا فى كلام الامام أحمد فإنه قال فيما كتبه «من الرد على الزنادقة والجهمية»[2] هذا من مجاز القرآن وأول من قال ذلك مطلقاً أبو عبيدة معمر بن المثنى[3] فى كتابه الذى صنفه فى مجاز القرآن ثم أن هذا

=== النقباء الاثنى عشر، وشهد بدرا واحداً والخندق والحديبية، واستخلفه النبى ـ صلى الله عليه وسلم على المدينة وكان احد الأحرار فى وقعة مؤته توفى عام ٨ هـ .

١ ـ سورة العنكبوت آية رقم ١٤ وتكملة الآية (فأخذهم الطوفان وهم ظالمون)

٢ ـ واجع هذا الكتاب بتحقيقنا ط:دار اللواء بالرياض

٣ ـ سبقت الترجمة له فى كلمة وافية

كان معناه عند الأولين مما يجوز فى اللغة ويسوغ فهو مشتق عندهم من الجواز كما يقول الفقهاء عقد لازم وجائز وكثير من المتأخرين جعله من الجواز الذى هو العبور من معنى الحقيقة الى معنى المجاز ثم إنه لاريب أن المجاز قد يشيع ويشتهر حتى يصير حقيقة.

والمقصود أن القائل إذا قال: رأيت الشمس أو القمر أو الهلال أو غير ذلك فى الماء والمرآة فالعقلاء متفقون على الفرق بين هذه الرؤية وبين رؤية ذلك بلا واسطة. وإذا قال قائل: ما رأى ذلك بل رأى مثاله أو خياله أو رأى الشعاع المنعكس أو نحو ذلك لم يكن هذا مانعاً لما يعلمه الناس ويقولونه من أنه رآه فى الماء أو المرآة. وهذه الرؤية فى الماء أو المرآة حقيقة مقيدة وكذلك قول النبى - صلى الله عليه وسلم:

«من رآنى فى المنام فقد رآنى حقاً فإن الشيطان لا يتمثل فى صورتى»[1] هو كما قال: صلى الله عليه وسلم رآه فى المنام حقاً فمن قال: ما رآه فى المنام حقاً فقد أخطأ ومن قال: ان رؤيته فى اليقظة بلا واسطة كالرؤية بالواسطة المقيدة بالنوم فقد اخطأ ولهذا يكون لهذه تأويل وتعبير دون تلك.

وكذلك ما سمعه منه من الكلام فى المنام هو سماع منه فى المنام وليس هذا كالسماع منه في اليقظة وقد يري فى المنام أشخاصاً ويخاطبونه والمرئيون

---

١ - الحديث رواه الامام البخارى فى كتابه العلم ١١٠ حدثنا أبو عوانه عن أبى حصين، عن أبى صالح عن النبى - صلى الله عليه وسلم - قال: وذكره، وأخرجه الامام مسلم فى كتاب الرؤيا ١١ وأبو داود فى كتاب الأدب ٨٨ والترمذى فى كتاب الرؤيا ٤ . ٧ وابن ماجة فى كتاب الرؤيا، واحمد بن حنبل فى المسند ٢:٢٣٢، ٣٤٢ (حلبى)

لا شعور لهم بذلك وإنما رأى مثالهم، ولكن يقال: رآهم فى المنام حقيقة، فيحترز بذلك على الرؤيا التى هي حديث النفس.

فإن «الرؤيا ثلاثة أقسام» رؤيا بشرى من الله، ورؤيا تحزين من الشيطان، ورؤيا مما يحدث به المرء نفسه فى اليقظة فيراه فى المنام. وقد ثبت هذا التقسيم فى الصحيح عن النبى صلى الله عليه وسلم؛ ولكن الرؤيا يظهر لكل احد من الفرق بينها وبين اليقظة ما لا يظهر فى غيرها، فكما ان الرؤية تكون مطلقة وتكون مقيدة بواسطة المرآة والماء أو غير ذلك، حتى ان المرئي يختلف المرآة، فاذا كانت كبيرة مستديرة رأى كذلك وان كانت صغيرة أو مستطيلة رأى كذلك، فكذلك في «السماع» يفرق بين من سمع كلام غيره منه ومن سمعه بواسطة المبلغ، ففي الموضعين المقصود سماع كلامه، كما ان هناك فى الموضعين يقصد رؤية نفس النبى؛ لكن اذا كان بواسطة اختلف باختلاف الواسطة فيختلف باختلاف اصوات المبلغين كما يختلف المرئى باختلاف المرايا ـ قال تعالى: (وما كان لبشر ان يكلمه الله إلا وحيا أو من وراء حجاب او يرسل رسولاً فيوحي باذنه ما يشاء)[1]

فجعل «التكليم ثلاثة انواع» الوحي المجرد، والتكليم من وراء حجاب كما كلم موسى عليه وسلم، والتكليم بواسطة ارسال الرسول كما كلم الرسل بارسال الملائكة، وكما نبأنا الله من أخبار المنافقين بارسال محمد صلى الله عليه وسلم، والمسلمون متفقون على ان الله امرهم بما امرهم به في القرآن ونهاهم عما نهاهم عنه فى القرآن، وأخبرهم بما أخبرهم به فى القرآن فامره

١ ـ سورة الشورى آية رقم ٥١

ونهيه واخباره بواسطة الرسول، فهذا تكليم مقيد بالارسال، وسماعنا لكلامه سماع مقيد بسماعه من المبلغ لا منه. وهذا القرآن كلام الله مبلغاً عنه مؤدا عنه، وموسى سمع كلامه مسموعا منه لا مبلغاً عنه ولا مؤدا عنه، وإذا عرف هذا المعنى زاحت الشبهة.

والنبى صلى الله عليه وسلم يروى عن ربه، ويخبر عن ربه، ويحكى عن ربه، فهذا يذكره عن ربه من كلامه الذى قاله راويا حاكياً عنه. فلو قال من قال: إن القرآن «حكاية»: إن محمدا حكاه عن الله كما يقال بلغه عن الله وأداه عن الله لكان قد قصد معنى صحيحاً: لكن يقصدون ـ ما يقصده القائل بقوله فلانا يحكى فلانا أى يفعل مثل فعله وهو ـ إنه يتكلم بمثل كلام الله فهذا باطل قال الله تعالى (قل لئن إجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً)[1]

ونكتة الأمر أن العبرة بالحقيقة المقصودة لا بالوسائل المطلوبة لغيرها فلما كان مقصود الرائى أن يرى الوجه مثلاً فرآه فى المرآه حصل مقصوده وقال رأيت الوجه، وإن كان ذلك بواسطة إنعكاس الشعاع فى المرآة ـ وكذلك من كان مقصوده أن يسمع القول الذى قاله غيره الذي الف الفاظه وقصد معانيه، فإذا سمعه منه أو من غيره حصل هذا المقصود وإن كان سماعه من غيره هو بواسطة صوت ذلك الغير الذي يختلف بإختلاف الصائتين. والقلوب إنما تشير الى المقصود لا إلى ما ظهر به المقصود، كما في «الإسم

---

١ ـ سورة الإسراء آية رقم ٨٨

والمسمى» فإن القائل إذا قال جاء زيد وذهب عمرو لم يكن مقصوده إلا الإخبار بالمجيء عن «المسمى» ولكن بذكر الإسم أظهر ذلك.

فمن ظن أن الموصوف بالمجيء والإتيان هو لفظ زيد أو لفظ عمرو كان مبطلا، فكذلك إذا قال القائل: هذا كلام الله، وكلام الله غير مخلوق، فالمقصود هنا الكلام نفسه من حيث هو هو، وإن كان إنما ظهر وسمع بواسطة

حركة التالي وصوته، فمن ظن أن المشار اليه هو صوت القارىء وحركته كان مبطلا؛ ولهذا لما قرأ أبو طالب المكى[1] على الإمام أحمد رضى الله عنه: (قل هو الله أحد) وسأله هل هذا كلام الله، وهل هو مخلوق؟ فأجابه بأنه كلام الله وأنه غير مخلوق فنقل عنه أبو طالب ـ خطأ منه ـ إنه قال لفظي بالقرآن غير مخلوق، فإستدعاه وغضب عليه وقال انا قلت لك: لفظى بالقرآن غير مخلوق؟ قال: لا ، ولكن قرأت عليك: (قل هو الله أحد)[2] وقلت لك: هذا غير مخلوق، فقلت نعم، قال فلم تحك عنى مالم أقل؟ لا تقل هذا؛ فإن هذا لم يقله عالم ـ وقصته مشهورة حكاها عبد الله[3] وصالح وحنبل والمروذي وفوران وبسطها الخلال فى[4] «كتاب السنة» وصنف المروذي فى «مسألة اللفظ» مصنفاً ذكر فيه أقوال الأئمة.

---

١ ـ هو محمد بن على بن عطية الحارثى أبو طالب واعظ زاهد فقيه من أهل الجبل (بين بغداد وواسط) نشأ واشتهر بمكة ورحل الى البصرة فاتهم بالاعتزال، وسكن بغداد فوعظ فيها فحفظ عنه الناس أقوالاً هجروه من أجلها وتوفى ببغداد عام ٣٨٦ هـ له: قوت القلوب فى التصوف ذكر فيه أشياء منكرة مستبشعة.

راجع وفيات الاعيان ١:٤٩١ وميزان الاعتدال ٣:١٠٧ وتاريخ بغداد ٣:٨٩ ولسان الميزان ٥:٣٠٠

٢ ـ سورة الصمد آية رقم ١

وهذا الذي ذكره أحمد من أحسن الكلام وأدقه؛ فإن الأشارة إذا أطلقت إنصرفت الى المقصود وهو كلام الله الذى تكلم به؛ لا إلى ما وصل به الينا من أفعال العباد واصواتهم. فاذا قيل: لفظي جعل نفس الوسائط غير مخلوقة وهذا باطل، كما ان من رأى وجهاً، فى مرآة فقال اكرم الله هذا الوجه وحياه، أو قبحه، كان دعاؤه على الوجه الموجود في الحقيقة الذي رأى بواسطة المرآة لا علي الشعاع المنعكس فيها، وكذلك اذا رأى القمر في الماء فقال: قد أبدر أو لم يبدر فانما مقصوده القمر الذي فى السماء لا خياله، وكذلك من سمعه يذكر رجلا فقال هذا رجل صالح أو رجل فاسق علم ان المشار اليه هو الشخص المسمى بالاسم؛لا نفس الصوت المسموع من الناطق ـ فلو قال: هذا الصوت أو صوتي بفلان صالح أو فاسق فسد المعنى، وكان بعضهم يقول: لفظي بالقرآن مخلوق فرأي فى منامه وضارب يضربه وعليه فروة فأوجعه بالضرب، فقال له: لا تضربني، فقال : انا ما أضربك، وإنما اضرب الفروة، فقال: انما يقع الضرب علي، فقال هكذا اذا قلت: لفظي بالقرآن مخلوق، فالخلق انما يقع على القرآن .يقول: كما ان المقصود بالضرب بدنك واللباس واسطة فهكذا المقصود بالتلاوة كلام الله وصوتك واسطة، فاذا قلت: مخلوق وقع ذلك على المقصود، كما اذا سمعت قائلا يذكر رجلا فقلت:

---

٣ ـ هو عبد الله بن أحمد بن حنبل الشيبانى البغدادى أبو عبد الله حافظ للحديث من أهل بغداد. له الزوائد على كتاب الزهد لأبيه زاد به المسند زيادة على مسند أبيه نحو عشرة آلاف حديث

راجع تهذيب ٥:١٤١ والطبقات لابن أبى على ١:١٨٠

٤ ـ هو أحمد بن هارون أبو بكر الخلال: مفسر عالم بالحديث واللغة من كبار الحنابلة: من كتبه تفسير القريب، وطبقات أصحاب ابن حنبل وغير ذلك توفى عام ٣١١ هـ

راجع طبقات الحنابلة ٢:١٢ والبداية والنهاية ١١:١٤٨ وتذكرة الحفاظ ٣:٧

انا أحب هذا وأنا أبغض هذا انصرف الكلام إلى المسى المقصود بالاسم لا الى صوت الذاكر؛ ولهذا قال الأئمة: القرآن كلام الله غير مخلوق كيفما تصرف بخلاف افعال العباد واصواتهم؛ فانه من نفى عنها الخلق كان متبدعا ضالا.

فصـــــل

فى اختلاف الناس فى كلام الله تعالى

واما قول القائل: تقولون ان القرآن صفة الله وان صفات الله غير مخلوقة، فان قلتم ان هذا نفس كلام الله فقد قلتم بالحلول وأنتم تكفرون الحلولية والاتحادية، وان قلتم غير ذلك قلتم بمقالتنا.

فمن تبين له ما نبهنا عليه سهل عليه الجواب عن هذا وأمثاله، فان منشأ الشبهة ان قول القائل: هذا كلام الله يجعل أحكامه واحدة، سواء كان كلامه مسموعا منه أو كلامه مبلغاً عنه.

ومن هنا تختلف طوائف من الناس.

«طائفة» قالت هذا كلام الله وهذا حروف واصوات مخلوقة فكلام الله مخلوق.

و «طائفة» قالت هذا مخلوق وكلام الله ليس بمخلوق فهذا ليس كلام الله.

و «طائفة» قالت هذا كلام الله ليس بمخلوق وهذه الفاظنا وتلاوتنا؛ فألفاظنا وتلاوتنا غير مخلوقة.

ومنشأ ضلال الجميع من عدم الفرق فى المشار اليه فى هذا. فأنت تقول هذا الكلام الذي تسمعه من قائله صدق وحق وصواب، وهو كلام حكيم،

وكذلك إذا سمعته من ناقله تقول هذا الكلام صدق وحق وصواب وهو كلام حكيم، فالمشار اليه فى الموضعين واحد، وتقول أيضاً: ان هذا صوت حسن، وهذا كلام من وسط القلب ثم إذا سمعته من الناقل تقول: هذا صوت حسن، او كلام من وسط القلب فالمشار اليه هنا ليس هو المشار اليه هناك، بل اشار الى ما تختص به هذا من صوته وقلبه، والى ما يختص به هذا من صوته وقلبه، واذا كتب الكلام فى صفحتين كالمصحفين تقول في كل منهما هذا قرآن كريم، وهذا كتاب مجيد، وهذا كلام الله فالمشار اليه واحد، ثم تقول هذا خط حسن وهذا قلم النسخ او الثلث، وهذا الخط أحمر أو أصفر والمشار اليه هنا ما يختص به كل من المصحفين عن الآخر.

فاذا ميز الانسان فى المشار اليه بهذا وهذا تبين المتفق والمفترق، وعلم ان من قال هذا القرآن كلام الله وكلام الله غير مخلوق ان المشار اليه الكلام من حيث هو مع قطع النظر عما به وصل الينا من حركات العباد وأصواتهم، ومن قال: هذا مخلوق واشار به الى مجرد صوت العبد وحركته لم يكن له في هذا حجة على ان القرآن نفسه حروفه ومعانيه الذي تعلم هذا القارىء من غيره ويلغه بحركته وصوته مخلوق، من اعتقد ذلك فقد اخطأ وضل.

ويقال لهذا: هذا الكلام الذي اشرت اليه كان موجوداً قبل ان يخلق هذا القارىء فهب ان القارىء لم يخلق نفسه ولا وجدت لا افعاله ولا أصواته فمن اين يلزم ان يكون الكلام نفسه الذي كان موجوداً قبله يعدم بعدمه ويحدث بحدوثه؟ فاشارته بالخلق ان كانت الى ما يختص به هذا القارىء من افعاله وأصواته فالقرآن غني عن هذا القارىء وموجود قبله فلا يلزم من عدم هذا

عدمه، وان كانت الى الكلام الذي يتعلمه الناس بعضهم من بعض فهذا هو الكلام المنزل من الله الذي جاء به جبريل الى محمد، ويبلغه محمد لامته، وهو كلام الله الذي تكلم به فذاك يمتنع ان يكون مخلوقا، فانه لو كان مخلوقا لكان كلاما لمحله الذي خلق فيه ولم يكن كلاماً لله، ولأنه لو كان سبحانه إذا خلق كلاماً كان كلامه كل ما أنطق به كل ناطق كلامه مثل تسبيح الجبال والحصى وشهادة الجلود، بل كل كلام فى الوجود وهذا قول الحلولية الذين يقولون:

وكل كلام فى الوجود كلامه　　　سواء علينا نثره ونظامه[1]

ومن قال: القرآن مخلوق فهو بين أمرين - إما ان يجعل كل كلام فى الوجود كلامه، وبين ان يجعله غير متكلم بشيء أصلاً، فيجعل العباد المتكلمين أكمل منه، وشبهه بالأصنام والجمادات والموات: كالعجل الذي لا يكلمهم ولا يهديهم سبيلا، فيكون قد فرعن اثبات صفات الكمال له حذراً فى زعمه من التشبيه فوصفه بالنقص وشبهه بالجامد والموات.

وكذلك قول القائل: هذا نفس كلام الله، وعين كلام الله، وهذا الذي فى المصحف هو عين كلام الله، ونفس كلام الله، وأمثال هذه العبارات. هذه بمفهومها عند الاطلاق فى فطر المسلمين أنه كلامه لا كلام غيره، وانه لا زيادة فيه ولا نقصان؛ فان من ينقل كلام غيره ويكتبه فى كتاب قد يزيد فيه وينقص كما جرت عادة الناس فى كثير من مكاتبات الملوك وغيرهما - فاذا جاء كتاب السلطان فقيل: هذا الذي فيه كلام السلطان بعينه بلا زيادة

---

١ - هذا البيت لمحيى الدين بن عربى. راجع الفتوحات المكية ١:٢ ط بولاق

ولا نقص: يعنى لم يزد فيه الكاتب ولا نقص. وكذلك من نقل كلام بعض الأئمة فى مسألة من تصنيفه قيل: هذا الكلام كلام فلان بعينه: يعنى لم يزد فيه ولم ينتقص كما قال النبى صلى الله عليه وسلم: «نضر الله امرأ سمع منا حديثاً فبلغه كما سمعه»[1]

فقوله فبلغه كما سمعه لم يرد انه يبلغه بحركاته وأصواته التى سمعه بها، ولكن أراد انه يأتى بالحديث ء'ى وجهه لا يزيد فيه ولا ينقص، فيكون قد بلغه. فالمستمع له من المبلغ يسمعه كما قاله صلى الله عليه وسلم، ويكون قد سمع كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم كما قاله. وذلك معنى قولهم هذا كلامه بعينه وهذا نفس كلامه، لا يريدون أن هذا هو صوته وحركاته، وهذا لا يقوله عاقل ولا يخطر ببال عاقل ابتداء، ولكن اتباع الظن وما تهوى الأنفس يلجىء أصحابه الى «القرمطة» فى السمعيات، و «السفسطة»، فى العقليات.

ولو ترك الناس على فطرتهم لكانت صحيحة سليمة فاذا رأى الناس كلاماً صحيحاً، فان من تكلم بكلام وسمع منه ونقل عنه أو كتبه فى كتاب لا يقول عاقل ان نفس ما قام بالمتكلم من المعانى التى فى قلبه والألفاظ القائمة بلسانه فارقته وانتقلت عنه الى المستمع والمبلغ عنه، ولا فارقته

---

١ ـ الحديث رواه بن ماجة فى المقدمة ١٨ باب من بلغ علماً ٢٣ ثنا محمد بن فضيل ثنا ليث بن أبى سليم عن يحيى بن عباد أبى هبيرة الأنصارى عن أبيه عن زيد بن ثابت قال: قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم وذكره، وفيه زيادة [فرب حامل فقه غير فقيه، ورب حامل فقه الى من هو أفقه منه] ورواه أبو داود فى العلم ١٠ والترمذى فى العلم والدارمى فى المقدمة ٢٤ واحمد بن حنبل فى المسند ١:٤٣٧ ـ ٣:٢٢٥، ٤:٨٠.٨٢، ٥:١٨٣ (حلبى)

وحلت فى الورق؛ بل ولا يقول ان نفس ما قام به من المعانى والألفاظ هو نفس المداد الذي فى الورق؛ بل ولا يقول ان نفس ألفاظه التى هي أصواته هي أصوات المبلغ عنه، فهذه الأمور كلها ظاهرة لا يقولها عاقل فى كلام المخلوق إذا سمع وبلغ أو كتب فى كتاب، فكيف يقال ذلك فى كلام الله الذي سمع منه وبلغ عنه او كتبه سبحانه كما كتب التوراة لموسى، وكما كتب القرآن فى اللوح المحفوظ، وكما كتبه المسلمون فى مصاحفهم.

اذا كان من سمع كلام مخلوق فبلغه ومعناه؛ بل شعر مخلوق كما يبلغ شعر حسان وابن رواحة ولبيد وأمثالهم من الشعراء، ويقول الناس: هذا شعر حسان بعينه، وهذا هو نفس شعر حسان، وهذا شعر لبيد بعينه كقوله:

ألا كل شيء   ما خلا الله باطل

ومع هذا فيعلم كل عاقل ان رواة الشعر ومنشديه لم يسلبوا الشعراء نفس صفاتهم حتى حلت بهم، بل ولا نفس ما قام بأولئك من صفاتهم وأفعالهم كأصواتهم وحركاتهم حلت بالرواة والمنشدين، فكيف يتوهم متوهم أن صفات الباري كلامه أو غير كلامه فارق ذاته وحل فى مخلوقاته، ان ما قام بالمخلوق من صفاته وأفعاله كحركاته وأصواته هي صفات البارى حلت فيه؟! وهم يقولون مثل ذلك فى المخلوق بل يمثلون العلم بنور السراج يقتبس منه المتعلم ولا ينقص ما عند العالم، كما يقتبس المقتبس ضوء السراج فيحدث الله له ضوأ كما يقال: ان الهوى ينقلب ناراً بمجاورة الفتيلة للمصباح من غير ان تتغير تلك النار التى فى المصباح، والمقرىء والمعلم يقرىء القرآن ويعلم العلم ولم ينقص مما عنده شيء؛ بل يصير عند المتعلم مثل ما عنده.

ولهذا يقال: فلان ينقل علم فلان، وينقل كلامه، ويقال: العلم الذي كان عند فلان صار إلى فلان وامثال ذلك، كما يقال: نقلت ما في الكتاب ونسخت ما فى الكتاب، أو نقلت الكتاب أو نسخته، وهم لا يريدون أن نفس الحروف التى فى الكتاب الاول عدمت منه وحلت في الثانى؛ بل لما كان المقصود من نسخ الكتاب من الكتب ونقلها من جنس نقل العلم والكلام، وذلك يحصل بان يجعل في الثاني مثل ما فى الاول، فيبقى المقصود بالاول منقولا منسوخا وان كان لم يتغير الاول، بخلاف نقل الاجسام وتوابعها، فان ذلك اذا نقل من موضع الى موضع زال عن الاول.

وذلك لأن الاشياء لها وجود فى انفسها وهو وجودها العيني. ولها ثبوتها فى العلم، ثم فى اللفظ المطابق للعلم، ثم فى الخط. وهذا الذي يقال: وجود فى الأعيان، ووجود فى الاذهان، ووجود في اللسان ووجود فى البنان: وجود عيني، ووجود علمي، ولفظي، ورسمي؛ ولهذا افتتح الله بقوله تعالى: (إقرأ بسم ربك الذي خلق، خلق الانسان من علق، اقرأ وربك الاكرام، الذي علم وبالقلم، علم الانسان ما لم يعلم)[1] فذكر الخلق عموما وخصوصاً، ثم ذكر التعليم عموما وخصوصاً، فالخط يطابق اللفظ، واللفظ يطابق العلم، والعلم هو المطابق للمعلوم.

ومن هنا غلط من غلط فظن ان القرآن فى المصحف كالاعيان في الورق، فظن ان قوله : (انه لقرآن كريم فى كتاب مكنون)[2] كقوله:

---

١ ـ سورة العلق الآيات من ١ ـ ٥

٢ ـ سورة الواقعة آية رقم ٧٧ ـ ٧٨

(الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والانجيل)[1] فجعل اثبات القرآن الذي هو كلام الله فى المصاحف كاثبات الرسول في المصاحف وهذا غلط: إثبات القرآن كاثبات اسم الرسول هذا كلام وهذا كلام، واما اثبات اسم الرسول فهذا كاثبات الاعمال، او كاثبات القرآن في زبر الأولين، قال تعالى: (وكل شيء فعلوه في الزبر)[2] وقال تعالى: (وانه لفي زبر الأولين)[3] فثبوت الاعمال في الزبر وثبوت القرآن في زبر الأولين هو مثل كون الرسول مكتوبا عندهم في التوراة والانجيل؛ ولهذا قيد سبحانه هذا بلفظ «الزبر» و «الكتب» زبر. يقال زبرت الكتاب إذا كتبته والزبور أي المكتوب، فالقرآن نفسه ليس عند بني اسرائيل ولكن ذكره، كما ان محمدا نفسه ليس عندهم ولكن ذكره، فثبوت الرسول في كتبهم كثبوت القرآن في كتبهم؛ بخلاف ثبوت القرآن في اللوح المحفوظ وفي المصاحف؛ فان نفس القرآن اثبت فيها، جعل هذا مثل هذا كان ضلاله بينا، وهذا مبسوط في موضعه.

و (المقصود هنا) ان نفس الموجودات وصفاتها اذا انتقلت من محل الى محل حلت في ذلك المحل الثاني، واما العلم بها والخبر عنها فيأخذه الثاني عن الأول مع بقائه في الأول، وان كان الذي عند الثاني هو نظير ذلك ومثله؛ لكن لما كان المقصود بالعلمين واحداً في نفسه صارت وحدة المقصود توجب وحدة التابع له والدليل عليه، ولم يكن للناس غرض فى تعدد التابع، كما فى الاسم مع المسمي؛ فان اسم الشخص وان ذكره اناس متعددون ودعا به

---

١ - سورة الأعراف آية رقم ١٥٧

٢ - سورة القمر آية رقم ٥٢

٣ - سورة الشعراء آية رقم ١٩٦

اناس متعددون فالناس يقولون انه اسم واحد لمسمى واحد. فاذا قال المؤذن: اشهد ان لا إله إلا الله، اشهد أن محمداً رسول الله، وقال هذا هو المؤذن وهذا المؤذن، وقاله غير المؤذن فالناس يقولون ان هذا المكتوب هو اسم الله واسم رسوله كما ان المسمى هو الله ورسوله.

واذا قال: (إقرأ باسم ربك)[1] وقال: (اركبوا فيها بسم الله)[2] وقال: (سبح اسمَ ربك الأعلى)[3] وقال: (بسم الله)[4] ففي الجميع المذكور هو اسم الله وان تعدد الذكر والذاكر، فالخبر الواحد من المخبر الواحد من مخبره. والأمر الواحد بالمأمور به من الآمر الواحد بمنزلة الاسم الواحد لمسماه، هذا في المركب نظير هذا في المفرد، وهذا هو واحد باعتبار الحقيقة وباعتبار اتحاد

المقصود وان تعدد من يذكر ذلك الاسم والخبر، وتعددت حركاتهم وأصواتهم وسائر صفاتهم.

واما القائل: ان قلتم: ان هذا نفس كلام الله فقد قلتم بالحلول وانتم تكفرون الحلولية والاتحادية فهذا قياس فاسد. مثاله مثال رجل ادعى ان النبى صلى الله عليه وسلم يحل بذاته فى بدن الذي يقرأ حديثه، فانكر الناس ذلك عليه، وقالوا ان النبى صلى الله عليه وسلم لا يحل فى بدن غيره، فقال: انتم تقولون: ان المحدث يقرأ كلامه، وان ما يقرؤه هو كلام

---

١ ـ سورة العلق آية رقم ١

٢ ـ سورة هود آية رقم ٤١

٣ ـ سورة الأعلى آية رقم ١

٤ ـ سورة هود آية رقم ٤١

النبى صلى الله عليه ولم، فاذا قلتم ذلك فقد قلتم بالحلول، ومعلوم ان هذا فى غاية الفساد.

والناس متفقون على اطلاق القول بان كلام زيد فى هذا الكتاب وهذا الذي سمعناه كلام زيد، ولا يستجيز العاقل اطلاق القول بانه هو نفسه في هذا المتكلم، او فى هذا الورق. وقد نطقت النصوص بان القرآن فى الصدور كقول النبى صلى الله عليه وسلم: «استذكروا القرآن، فلهو اشد تفلتا من صدور الرجال من النعم فى عقلها»[1] وقوله: «الجوف الذي ليس فيه شيء من القرآن كالبيت الخرب»[2] وامثال ذلك. وليس هذا عند عاقل مثل ان يقال الله فى صدورنا واجوافنا، ولهذا لما ابتدع شخص يقال له الصورى بأن من قال القرآن فى صدورنا فقد قال بقول النصارى فقيل لأحمد قد جاءت جهمية رابعة أي: جهمية الخلقية، واللفظية، والواقفية، وهذه الرابعة - اشتد نكيره لذلك، وقال، هذا اعظم من الجهمية. وهو كما قال.

فان «الجهمية» ليس فيهم من ينكر أن يقال القرآن فى الصدور، ولا يشبه هذا بقول النصارى بالحلول الا من هو فى غاية الضلالة والجهالة؛ فان النصارى يقولون؛ الأب والابن وروح القدس اله واحد، وان الكلمة التى هي

---

١ - الحديث أورده الامام مسلم فى كتاب المسافرين ٢٢٨ والدارمى فى فضائل القرآن ٤٨ والرقاق ٣٢، ورواه البخارى فى فضائل القرآن ٢٣ ورواه الامام احمد بن حنبل فى المسند ١:٣٨٢، ٤١٧، ٤٢٣، ٤٣٩، ٤٦٣ (حلبى)

٢ - الحديث أخرجه الترمذى فى كتاب فضائل القرآن ٢٩١٣ حدثنا جرير عن قابوس بن أبى ظبيان عن أبيه عن ابن عباس قال: قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وذكره.

وقال الترمذى: هذا حديث حسن صحيح.

اللاهوت تدرعت الناسوت، وهو عندهم إله يخلق ويرزق؛ ولهذا كانوا يقولون: ان الله هو المسيح بن مريم، ويقولون: المسيح بن الله؛ ولهذا كانوا متناقضين، فان الذي تدرع المسيح إن كان هو الاله الجامع للأقانيم فهو الأب نفسه، وان كان هو صفة من صفاته فالصفه لا تخلق ولا ترزق وليست إلها، والمسيح عندهم إله، ولو قال النصارى ان كلام الله فى صدر المسيح كما هو فى صدور سائر الأنبياء والمؤمنين لم يكن فى قولهم ما ينكر.

فالحلولية المشهورون بهذا الأسم من يقول بحلول الله فى البشر، كما قالت النصارى والغالية من الرافضة وغلاة أتباع المشايخ، أو يقولون بحلوله في كل شيء كما قالت الجهمية إنه بذاته فى كل مكان، وهو سبحانه ليس في مخلوقاته شيء من ذاته، ولا فى ذاته شيء من مخلوقاته وكذلك من قال باتحاده بالمسيح أو غيره، أو قال باتحاده بالمخلوقات كلها، أو قال: وجوده وجود المخلوقات أو نحو ذلك.

فاما قول القائل: إن كلام الله فى قلوب انبيائه وعباده المؤمنين وإن الرسل بلغت كلام الله، والذي بلغته هو كلام الله، وإن الكلام فى الصحيفه ونحو ذلك فهذا لا يسمى حلولا، ومن سماه حلولا لم يكن بتسميته لذلك مبطلاً للحقائق. وقد تقدم أن ذلك لا يقتضى مفارقه صفة المخلوق له وانتقالها الى غيره، فكيف صفة الخالق تبارك وتعالى؟! ولكن لما كان فيه شبهه الحلول تنازع الناس فى إثبات لفظ الحلول ونفيه عنه هل يقال: إن كلام الله حال فى المصحف أو حال فى الصدور؟ وهل يقال: كلام الناس المكتوب حال فى المصحف أو حال فى قلوب حافظيه ونحو ذلك؟ فمنهم طائفة نفت

الحلول كالقاضى أبى يعلى[1] وأمثاله وقالوا: ظهر كلام الله فى ذلك ولا نقول: حل؛ لأن حلول صفة الخالق فى المخلوق، أو حلول القديم فى المحدث ممتنع.وطائفة أطلقت القول بأن كلام الله حال فى المصحف كأبي اسماعيل الانصاري الهروى[2] ـ الملقب بشيخ الأسلام ـ وغيره وقالوا: ليس هذا هو الحلول المحظور الذي نفيناه؛ بل نطلق القول بأن الكلام فى الصحيفة ولا يقال بأن الله فى الصحيفة أو فى صدور الإنسان، كذلك نطلق القول بأن كلامه حال فى ذلك دون حلول ذاته، وطائفة ثالثة كأبى علي بن ابى موسى وغيره قالوا: لا نطلق الحلول نفيا ولا إثباتا لأن أثبات ذلك يوهم إنتقال صفة الرب إلى المخلوقات ونفى ذلك يوهم نفى نزول القرآن إلى الخلق فنطلق ما أطلقته النصوص عما فى إطلاقه محظور لما فى ذلك من الإجمال.

وأما قول القائل إن قلتم [إن هذا نفس كلام الله فقد قلتم بالحلول، وإن قلتم غير ذلك] قلتم بمقالتنا فجواب ذلك أن المقالة المنكرة هنا تتضمن ثلاثة أمور فإذا زالت لم يبقى منكراً.

---

١ ـ هو محمد بن الحسين بن محمد بن خلف بن الفراء أبو يعلى عالم عصره فى الأصول والفروع وأنواع الفنون من أهل بغداد. من تصانيفه الأحكام السلطانيه، وأحكام القرآن، وعيون المسائل، وأربع مقدمات فى أصول الديانات توفى عام ٤٥٨

راجع طبقات الحنابلة ٢:١٩٣ ـ ٢٣٠ وتاريخ بغداد ٢:٢٥٦ وشذرات الذهب ٣:٣٠٦

٢ ـ هو عبد الله بن محمد بن على الأنصارى الهروى أبو إسماعيل شيخ خرسان فى عصره من كبار الحنابلة من ذرية أبى أيوب الأنصارى، كان بارعاً فى اللغه حافظا للحديث . عرض على السيف خمس مرات من كتبه: ذم الكلام وأهله والفاروق فى الصفات، وكتاب الأربعين فى السنة. ومنازل السائرين توفي عام ٤٨١ هـ

راجع الذيل على طبقات الحنابله ١:٦٤

(أحدها) من يقول إن القرآن العربى لم يتكلم الله به وإنما أحدثه غير الله كجبريل ومحمد والله خلقه فى غيره.

(الثانى) قول من يقول إن كلام الله ليس إلا معنى واحداً هو الأمر والنهى والخبر وإن الكتب الألهيه تختلف بإختلاف العبارات لا بإختلاف المعانى فيجعل معنى التوراه والإنجيل والقرآن واحداً، وكذلك معنى آية الدين وآية الكرسى، كمن يقول أن معانى أسماء الله الحسنى بمعنى واحد فمعنى العليم والقدير والرحيم والحكيم معنى واحد فهذا إلحاد فى أسمائه وصفاته وآياته.

(الثالث) قول من يقول أن من بلغته الرسل عن الله من المعنى والألفاظ ليس هو كلام الله وإن القرآن كلام التالين لا كلام رب العالمين. فهذه الأقوال الثلاثة باطلة بأى عبارة عبر عنها.

وأما قول من قال: إن القرآن العربى كلام الله بلغه عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم، وإنه تارة يسمع من الله، وتارة من رسله مبلغين عنه، وهو كلام الله حيث تصرف، وكلام الله تكلم به لم يخلقه فى غيره، ولا يكون كلام الله مخلوقاً، ولو قرآه الناس وكتبوه وسمعوه. وقال مع ذلك: إن أفعال العباد وأصواتهم وسائر صافتهم مخلوقه فهذا لا ينكر عليه، وإذا نفى الحلول وأراد به أن صفه الموصوف لا تفارقه وتنتقل إلى غيره فقد أصاب فى هذا المعنى؛ لكن عليه مع ذلك أن يؤمن أن القرآن العربى كلام الله تعالى، وليس هو ولا شيء منه كلاما لغيره، ولكن بلغته عنه رسله، وإذا كان كلام المخلوق يبلغ عنه مع العلم بأنه كلامه حروفه ومعانيه، ومع العلم بأن شيئا من صفاته لم تفارق ذاته فالعلم بمثل هذا فى كلام الخالق أولى وأظهر والله أعلم.

وقال أيضاً شيخ الأسلام

قدس الله روحه

فصـــل

القرآن كلام الله غير مخلوق

قال تعالى: (وإن أحد من المشركين أستجارك فأجره حتى يسمع كلام الله)[1] وهو منزل من الله، كما قال تعالى: (أفغير الله أبتغى حكما وهو الذى أنزل اليكم الكتاب مفصلا، والذين آتيناهم الكتاب يعلمون إنه منزل من ربك بالحق)[2]. فأخبر سبحانه إنهم يعلمون ذلك والعلم لا يكون إلا حقاً

وقال تعالى: (تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم)[3] (حم، تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم)[4] (حم تنزيل من الرحمن الرحيم)[5] وقال تعالى: (ولكن حق القول منى لأملئن جهنم من الجنه والناس أجمعين)[6] وقال تعالى: (ولولا كلمه سبقت من ربك لكان لزاماً وأجل مسمى)[7] ونحو

---

١ - سورة التوبة آية رقم ٦

٢ - سورة الأنعام آية رقم ١١٤

٣ - سورة الزمر آية رقم ١

٤ - سورة غافر آية رقم ١ - ٢

٥ - سورة فصلت آية رقم ١ - ٢

٦ - سورة السجدة آية رقم ١٣

٧ - سورة طه آية رقم ١٢٩

ذلك، وقال تعالى: (قل نزله روح القدس من ربك بالحق)[1]. فأخبر سبحانهالله، ولم يخبر عن شيء إنه منزل من الله إلا كلامه؛ بخلاف نزول الملائكة والمطرّ والحديد وغير ذلك.

ولهذا كان القول المشهور عن السلف إن القرآن كلام الله غير مخلوق، منه بدأ وإليه يعود؛ فإن من قال إنه مخلوق يقول إنه خلق فى بعض المخلوقات القائمة بنفسها، فمن ذلك المخلوق نزل وبدأ لم ينزل من الله، فأخبار الله تعالى إنه منزل من الله يناقض أن يكون قد نزل من غير الله؛ ولهذا فسر الإمام أحمد قوله «منه بدأ» أى هو المتكلم به، وقال أحمد: كلام الله من الله ليس ببائن عنه.

وأيضاً فلو كان مخلوقا فى غيره لم يكن كلامه، بل كان يكون كلاما لذلك المخلوق فيه، وكذلك سائر ما وصف به نفسه من الإرادة والمحبه والمشيئه والرضى والغضب والمقت وغير ذلك من الأمور لو كان مخلوقا فى غيره لم يكن الرب تعالى متصفا به، بل كان يكون صفه لذلك المحل؛ فإن المعنى إذا قام بمحل كان صفة لذلك المحل ولم يكن صفة لغيره، فيمتنع أن يكون المخلوق أو الخالق موصوفا بصفة موجودة قائمة بغيره؛ لأن ذلك فطري، فما وصف به نفسه من الأفعال اللازمة يمتنع أن يوصف الموصوف بأمر لم يقم به. وهذا مبسوط فى مواضع أخر.

ولم يقل السلف: أن النبى سمعه من الله تعالى، كما يقول ذلك بعض

---

١ ـ سورة النحل آية رقم ١٠٢

المتأخرين، قال تعالى: (لقد من الله على المؤمنين إذا بعث فيهم رسولا من أنفسهم يتلوا عليهم آياته)[1] وفى الصحيحين عن ابن مسعود قال: قال لى النبى صلى الله عليه وسلم «إقرأ علي القرآن» قلت: أقرأ عليك وعليك أنزل؟ قال «انى احب ان أسمعه من غيرى» فقرأت عليه سورة النساء، حتى بلغت الى هذه الآية (فكيف اذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيداً؟) وقال: «حسبك»، فنظرت فاذا عيناه تذرفان من البكاء.[2]

والنبى صلى الله عليه وسلم سمعه من جبريل، وهو الذى نزل عليه به، وجبريل سمعه من الله تعالى، كما نص على ذلك أحمد وغيره من الأئمة، قال تعالى: (قل من كان عدواً لجبريل، فانه نزله على قلبك باذن الله)[3] وقال تعالى: (نزل به الروح الامين على قلبك لتكون من المنذرين، بلسان عربى مبين)[4] وقال تعالى (واذا بدلنا آية مكان آية والله أعلم بما ينزل قالوا: إنما أنت مفتر، بل أكثرهم لا يعلمون، قل نزله روح القدس من ربك بالحق)[5] فأخبر سبحانه انه نزله روح القدس ـ وهو الروح الأمين، وهو

---

١ ـ سورة آل عمران آية رقم ١٦٤

٢ ـ حديث أخرجه الأمام مسلم فى كتاب صلاة المسافرين ٢٤٧ (٨٠٠) عن الأعمش، عن ابراهيم، عن عبيدة، عن عبد الله قال: قال لى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم: وذكره وأخرجه البخارى فى كتاب التفسير سورة ٤ ـ ٩ وفضائل القرآن ٣٣ ـ ٣٥ وأبو داود فى كتاب العلم ١٣ والترمذى فى التفسير سورة ٤:١١

٣ ـ سورة البقرة آية رقم ٩٧

٤ ـ سورة الشعراء آية رقم ١٩٣

٥ ـ سورة النحل آية رقم ١٠٢

جبريل ـ من الله بالحق، ولم يقل احد من السلف: ان النبى صلى الله عليه وسلم سمعه من الله، وإنما قال ذلك بعض المتأخرين.

وقوله تعالى: (ان علينا جمعه وقرآنه، فاذا قرأناه فاتبع قرآنه، ثم ان علينا بيانه)[1] هو كقوله تعالى: (يتلو عليك من نبأ موسى وفرعون بالحق)[2] وقوله: (نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن)[3] ونحو ذلك مما يكون الرب فعله بملائمته؛ فان لفظ (نحن) هو للواحد المطاع الذي له أعوان يطيعونه، فالرب تعالى خلق الملائكة وغيرها تطيعه الملائكة أعظم مما يطيع المخلوق أعوانه، فهو سبحانه أحق باسم «نحن» و «فعلنا» ونحو ذلك من كل ما يستعمل.

وفي الصحيحين عن ابن عباس قال: «كان النبى صلى الله عليه وسلم يعالج من التنزيل شدة وكان يحرك شفتيه، فقال ابن عباس: أنا أحركهما لك كما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحركهما. وقال سعيد ابن جبير : أنا أحركهما كما رأيت ابن عباس يحركهما ، فحرك شفتيه فانزل الله (لا تحرك به لسانك لتعجل به؛ ان علينا جمعه وقرآنه) قال: جمعه لك فى صدرك وتقرأه (فاذا قرأناه فاتبع قرآنه) فاذا قرأه رسولنا، وفى لفظ: فاذا قرأه جبريل فاستمع له وأنصت (ثم ان علينا بيانه) اي نقرؤه. فكان رسول

---

١ ـ سورة القيامة آية رقم ١٧ ـ ١٩

٢ ـ سورة القصص آية رقم ٣

٣ ـ سورة يوسف آية رقم ٣

الله صلى الله عليه وسلم بعد ذلك اذا أتاه جبريل استمع، فاذا انطلق جبريل قرأه النبى صلى الله عليه وسلم كما قرأه».[1]

---

١ ـ الحديث أخرجه الترمذى فى كتاب التفسير باب ٧١ ومن سورة القيامة ٣٣٢٩ ـ حدثنا سفيان بن عيينه عن موسى بن أبى عائشة عن سعيد بن جبير عن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ قال: وذكره

قال الترمذى: هذا حديث حسن صحيح

فهرس الآيات القرآنية الكريمة

رقم مسلسل	الآيـــــة	رقم الصفحة
	أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون بالبينات والزبر وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم»	٣٧
٥٠	« « :«وما أرسلنا قبلك إلا رجالاً نوحي إليهم فاسئلوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون وما جعلناهم جسداً لا يأكلون الطعام».	٣٧
٥١	« « :«قل أرأيتم إن كان من عند الله وكفرتم به وشهد شاهد من بني إسرائيل على مثله».	٣٧
٥٢	« « :«وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم ليجادلوكم»	٣٨
٥٣	« « :«هل أنبئكم على من تنزل الشياطين تنزل على كل أفاك أثيم . يلقون السمع وأكثرهم كاذبون».	٣٨
٥٤	« « :«وإنه لتنزيل رب العالمين،نزل به الروح الأمين...»	٣٨
	إلى قوله:«وإنهم يقولون ما لا يفعلون».	٣٨
٥٥	قال تعالى:«إن هذا إلا قول البشر».	٤٠
٥٦	« « :« لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين منفكين».	٤١
٥٧	« « :«إن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين في نار جهنم».	٤١
٥٨	« « :«إن الذين آمنوا والذين هادوا»	٤١
٥٩	« « :«إتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله»	٤١
٦٠	« « :«وقالت اليهود عزير ابن الله وقالت النصارى المسيح ابن الله ...» إلى قوله:«ولو كره الكافرون».	٤١
٦١	« « :«لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم»	٤١
٦٢	« « :«إنه فكر وقدر فقتل كيف قدر ثم قتل كيف قدر ثم	

رقم مسلسل	الآيــــة	رقم الصفحة
	نظر ثم عبس وبسر ثم أدبر واستكبر فقال إن هذا إلا سحر يؤثر ان هذا إلا قول البشر».	٤١
٦٣	« « :«وما قدروا الله حق قدره إذا قالوا ما أنزل الله على بشر من شيء ....» إلى قوله:«ومن أظلم ممن افترى على الله كذباً أو قال أوحى اليَّ ولم يوح إليه شيء ومن قال سأنزل مثل ما أنزل الله».	٤٥
٦٤	« « :«وقالوا سحران تظاهرا وقالوا إنا بكل كافرون قل فاتوا بكتاب من عند الله هو أهدى منهما اتبعه ان كنتم صادقين».	٤٥
٦٥	« « :«قالوا يا قومنا إنا سمعنا كتاباً أنزل من بعد موسى»	٤٥
٦٦	قال تعالى:«قل أرأيتم إن كان من عند الله وكفرتم به وشهد شاهد من بنى إسرائيل على مثله فآمن».	٤٥
٦٧	« « :«ومن أظلم ممن افترى على الله كذباً أو قال أوحى إليَّ ولم يوح إليه شيء ومن قال سأنزل مثل ما أنزل الله».	٤٥
٦٨	« « :«الم ذلك الكتاب لاريب فيه».	٥٦
٦٩	« « :«قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربى لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربى ولو جئنا بمثله مدداً»	٥٨
٧٠	« « :«فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم ....» إلى قوله:«لسان عربى مبين»	٥٨
٧١	« « :«إنما يعلمه بشر».	٥٨
٧٢	« « :«لسان الذى يلحدون إليه أعجمى».	٥٨
٧٣	« « :«وهذا لسان عربى مبين».	٥٨

رقم الصفحة	الآيــــة	رقم مسلسل
١٢٤	قال تعالى:«خلق الإنسان من علق»	١٤٥
١٢٤	« « :«علم الإنسان مالم يعلم»	١٤٦
١٢٦	« « :«يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات».	١٤٧
١٢٧	« « :«ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات وأولئك لهم عذاب عظيم يوم تبيض وجوه وتسود وجوه».	١٤٨
١٢٧	« « :«إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً لست منهم فى شىء إنما أمرهم إلى الله».	١٤٩
١٢٧	« « :«وإن الذين اختلفوا فى الكتاب لفى شقاق بعيد»	١٥٠
١٢٨	« « :«فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم...» إلى قوله:«وهذا لسان عربى مبين».	١٥١
١٢٩	« « :«وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد».	١٥٢
١٢٩	« « :«من كان عدواً لجبريل فإنه نزله على قلبك بإذن الله»	١٥٣
١٢٩	« « :«وإنه لتنزيل رب العالمين نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين بلسان عربى مبين».	١٥٤
١٢٩	« « :«إنه لقول رسول كريم ذى قوة عند ذى العرش مكين مطاع ثم أمين».	١٥٥
١٣٣	« « :«قل هو الله أحد».	١٥٦
١٣٣	« « :« تبت يدا أبى لهب».	١٥٧
١٣٤	« « :«قل نزله روح القدس من ربك بالحق».	١٥٨
	« « :«والله أعلم بما ينزل».	١٥٩
١٣٤	« « :«ولقد نعلم أنهم يقولون إنما يعلمه بشر لسان الذى يلحدون إليه أعجمى وهذا لسان عربى مبين».	١٦٠

رقم مسلسل	الآيـــــة	رقم الصفحة
	طوى».	١٤٢
١٩٥	« « :«فلما أتاها نودى يا موسى انى أنا ربك».	
١٩٦	« « :«وأنه لما قام عبد الله يدعوه كادوا يكونون عليه لبداً.	١٤٢
١٩٧	« « :«ويوم يناديهم فيقول ماذا أجبتم المرسلين».	١٤٢
١٩٨	« « :«ويوم يناديهم فيقول أين شركائى الذين كنتم تزعمون».	١٤٢
١٩٩	« « :«وإذ قال ربك للملائكة إنى جاعل فى الأرض خليفة».	١٤٢
٢٠٠	« « :«وإذا قلنا للملائكة إسجدوا لآدم».	١٤٢
٢٠١	« « :«ذلك بأنهم اتبعوا ما أسخط الله وكرهوا رضوانه».	١٤٤
٢٠٢	« « :«فلما آسفونا إنتقمنا منهم».	١٤٤
٢٠٣	قال تعالى:«إدعونى أستجب لكم».	١٤٤
٢٠٤	« « :«إنه لقول رسول كريم وما هو بقول شاعر قليلاً ما تؤمنون ولا بقول كاهن قليلاً ما تذكرون تنزيل من رب العالمين».	١٤٦
٢٠٥	« « :«إنه لقول رسول كريم ذى قوة عند ذى العرش مكين مطاع ثم أمين».	١٤٦
٢٠٦	« « :«إنه فكر وقدر فقتل كيف قدر ثم قتل كيف قدر ثم نظر»	١٤٦
٢٠٧	« « :«ثم عبس وبسر ثم أدبر واستكبر فقال ان هذا إلا سحر يؤثر إن هذا إلا قول البشر».	١٤٦
٢٠٨	« « :«إنه لقول رسول كريم وما هو بقول شاعر».	١٤٦
٢٠٩	« « :«وإن أحد من المشركين إستجارك فأجره حتى يسمع كلام الله».	١٤٧
٢١٠	« « :«وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً أو من وراء	

رقم مسلسل	الآيـــــة	رقم الصفحة
٢٦٦	قال تعالى: «ينزل الملائكة بالروح من أمره على من يشاء من عباده»	٢٤٨
٢٦٧	« « : «فيها يفرق كل أمر حكيم أمراً من عندنا إنا كنا مرسلين»	٢٤٨
٢٦٨	« « : «قل نزله روح القدس».	٢٤٨
٢٦٩	« « : «فأنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين».	٢٤٨
٢٧٠	« « : «هو الذى أنزل السكينة فى قلوب المؤمنين».	٢٤٨
٢٧١	« « : «إذ يوحى ربك إلى الملائكة أنى معكم فثبتوا الذين آمنوا».	٢٤٩
٢٧٢	« « : «يغشى الليل النهار»	٢٥٠
٢٧٣	« « : «فلما تغشاها حملت حملاً خفيفاً»	٢٥٠
٢٧٤	« « : «والمؤتفكة أهوى فغشاها ما غشى»	٢٥٠
٢٧٥	« « ألا حين يستغشون ثيابهم يعلم ما يسرون وما يعلنون»	٢٥٠
٢٧٦	« « : «ثم أنزل عليكم من بعد الغم أمنة نعاساً يغشى طائفة منكم»	٢٥٠
٢٧٧	« « : «إذ يغشيكم النعاس أمنة منه».	
٢٧٨	« « : «وأنزل لكم من الأنعام ثمانية أزواج».	٢٥٣
٢٧٩	« « : «فنزل من حميم».	٢٥٣
٢٨٠	« « : «رب أنزلنى منزلاً مباركاً وأنت خير المنزلين».	٢٥٣
٢٨١	« « : «وأنزل لكم من الأنعام ثمانية أزواج».	٢٥٣
	« « : «يا بنى آدم قد أنزلنا عليكم لباساً يوارى سوآتكم وريشاً».	

رقم مسلسل	الآيـــــة	رقم الصفحة
٢٩٧	« « :«فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم».	٢٦٠
٢٩٨	« « :«وإذا بدلنا آية مكان آية والله أعلم بما ينزل قالوا إنما أنت مفتر بل أكثرهم لا يعلمون قل نزله روح القدس من ربك بالحق ليثبت الذين آمنوا وهدى وبشرى للمسلمين ولقد نعلم أنهم يقولون إنما يعلمه بشر لسان الذى يلحدون إليه أعجمى وهذا لسان عربى مبين».	٢٦٠
٢٩٩	« « :«وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً أو من وراء حجاب أو يرسل رسولاً فيوحى باذنه ما يشاء».	٢٦٣
٣٠٠	« « :«إنه لقول رسول كريم وما هو بقول شاعر قليلاً ما تؤمنون ولا بقول كاهن قليلاً ما تذكرون».	٢٦٤
٣٠١	« « :«إنه لقول رسول كريم ذى قوة عند ذى العرش مكين مطاع ثم أمين وما صاحبكم بمجنون ولقد رآه بالأفق المبين».	٢٦٤
٣٠٢	« « :«وما على الرسول إلا البلاغ المبين».	٢٦٤
٣٠٣	« « :«أنا ربكم الأعلى».	٢٦٧
٣٠٤	« « :«إنه لقول رسول كريم ذى قوة عند ذى العرش مكين ...» إلى قوله:«وما هو بقول شيطان رجيم».	٢٦٨
٣٠٥	« « :«لقد جاءكم رسول من أنفسكم».	٢٦٩
٣٠٦	« « :«ولو جعلناه ملكاً لجعلناه رجلاً وللبسنا عليهم ما يلبسون».	٢٦٩
٣٠٧	« « :«والنجم إذا هوى ما ضل صاحبكم وما غوى».	
٣٠٨	« « :«إنه لقول رسول كريم وما هو بقول شاعر قليلاً ما تؤمنون ولا بقول كاهن قليلاً ما تذكرون تنزيل من رب العالمين».	٢٦٩

فهرس الأحاديث النبوية الشريفة

رقم مسلسل	الحـــديث	رقم الصفحة
	الغيب والشهادة أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه في القدر هذا يقول :ألم يقل الله كذا؟ وهذا يقول:ألم يقل الله كذا؟ فقال:أبهذا أمرتم؟أم إلى هذا دعيتم؟إنما هلك من كان قبلكم بهذا.أن ضربوا كتاب الله بعضه ببعض،انظروا ما أمرتم به فافعلوه وما نهيتم عنه فاجتنبوه».	١٢٧
٢٠	كان صلى الله عليه وسلم يقول: «أنت الأول فليس قبلك شيء، وأنت الآخر فليس بعدك شيء».	١٥٧
٢١	قال صلى الله عليه وسلم: «إن لله تسعة وتسعين إسمًا،من أحصاها دخل الجنة».	١٧٧
٢٢	قال صلى الله عليه وسلم: «الله أشد أذناً إلى الرجل يحسن الصوت بالقرآن من صاحب القينة إلى قينته».	١٧٩
٢٣	قال صلى الله عليه وسلم: «إذا دخل أهل الجنة الجنة،نادى مناد: يا أهل الجنة إن لكم عند الله موعداً يريد أن ينجزكموه.فيقولون: ما هو؟ألم يبيض وجوهنا،ويثقل موازيننا،ويدخلنا الجنة،وينجينا من النار؟ قال:فيكشف الحجاب،فينظرون إليه،فما أعطاهم شيئاً أحب إليهم من النظر».	١٨٢
٢٤	قال صلى الله عليه وسلم: «خير القرون القرن الذى بعثت فيه،ثم الذين يلونهم،ثم الذين يلونهم».	٢١٦
٢٥	قال صلى الله عليه وسلم: «إستذكروا القرآن فلهو أشد تفصياً من صدور الرجال من النعم فى عقلها».	٢٣٦
٢٦	قال صلى الله عليه وسلم: «الجوف الذى ليس فيه شيء من القرآن كالبيت الخرب».	٢٣٦
٢٧	قال صلى الله عليه وسلم: «لا تسافروا بالقرآن إلى أرض العدو مخافة أن تناله أيديهم».	٢٣٦

رقم مسلسل	الحديث	رقم الصفحة
٢٨	قال صلى الله عليه وسلم: «إن الله أنزل الأمانة فى جذر قلوب الرجال فعلموا من القرآن وعلموا من السنة».	٢٤٩
٢٩	قال صلى الله عليه وسلم: «مثل المؤمن الذى يقرأ القرآن مثل الأترجة طعمها طيب وريحها طيب. ومثل المؤمن الذى لا يقرأ القرآن مثل الثمرة طعمها طيب ولا ريح لها. ومثل المنافق الذى يقرأ القرآن مثل الريحانة ريحها طيب وطعمها مر. ومثل المنافق الذى لا يقرأ القرآن مثل الحنظلة طعمها مر ولا ريح لها.	٢٦٨
٣٠	قال صلى الله عليه وسلم: «من رآنى فى المنام فقد رآنى حقاً فإن الشيطان لا يتمثل فى صورتى».	٢٧٥

فهرس الأعلام

فهرس الموضوعات

تصويب الخطأ

رقم الصفحة	السطر	الخطـــأ	الصـواب
٥٨	١	كلمات	لكلمات
٥٨	٢	مداداً	مدداً
١١٣	٢	واحداة	واحدة
٢٨٥	١٤	وبالقلم	بالقلم